غونتر غراس: القط والفار، رواية

غونتر غراس

الأعمال الكاملة

٢- القط والفأر

باشراف خالد المعالي

غونتر غراس

القط والفأر

رواية

ترجمة د. أبو العيد دودو
مراجعة د. سالمة صالح

منشورات الجمل

ولد **غونتر غراس** في ١٩٢٧ بضاحية **لانغفور** التابعة آنذاك إلى **دولة دانسغ الحرّة**. والتحق في ١٩٤٤ بالجيش الألماني جندياً في سلاح الجوّ ثم في صنف الدروع، وقد جرح ووضع في الأسر الأمريكي. بعد إطلاق سراحه مارس العديد من المهن في الزراعة والمناجم والمقالع قبل أن يبدأ بتعلّم الحفر على الحجر ومن ثم النحت والطباعة الفنيّة (الغرافيك) في أكاديمية الفنون بدوسلدورف من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢، وتابع دراسته في كليّة الفنون ببرلين. وفي ١٩٥٥ بدأ بنشر أولى قصائده، وبعد ذلك بعام واحد رحل إلى باريس، حيث أقام حتى ١٩٦٠ وانجز كتابة روايته **الطبل الصفيح** التي جلبت له شهرة واسعة، لتتبعها أعمال مهمة أخرى مثل **القطّ والفار** و**أعوام الكلاب** التي أصطلح عليها باسم ثلاثية دانسغ. ويعتبر غراس من الكتّاب الغزيريّ الإنتاج؛ إذ أصدر حتى الآن سبعة عشر مجلّداً، ضمّت إلى جانب أعماله الروائية والمسرحية والشعرية، الكثير من المعالجات النقدية والفكرية والخطابات السياسية. وحظيت أعماله الإبداعية والفكرية باهتمام الرأي العام الألماني والعالمي منذ عشرات الأعوام، وقد توّجت أخيراً بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٩.

ولد **أبو العيد دودو** عام ١٩٣٤ في دوار تمنجر بالجزائر. أتم دراساته الجامعية في الجزائر، تونس، بغداد وفيينا. مارس التدريس في العديد من الجامعات العربية والأوروبية. له العديد من المؤلفات النثرية والترجمات، منها: **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان** (١٩٧٥)؛ **بريشت: بادن**، مسرحية (١٩٧٦)؛ **ستيفان تسافيغ: الهروب إلى الله**، مسرحية (١٩٧٦)، وصدر له عن منشورات الجمل: **غوته: مختارات شعرية ونثرية** (١٩٩٩)؛ **أولريش بك: ما هي العولمة؟** (١٩٩٩)؛ **أولريش بك: هذا العالم الجديد!** (٢٠٠١).

ولدت **سالمة صالح** ١٩٤٢ في الموصل/العراق. نشرت العديد من القصص في الصحف والمجلات الأدبية. تعيش في برلين منذ عام ١٩٨٣. أصدرت العديد من الأعمال القصصية منها: **النهوض**، رواية (بيروت ١٩٧٤)، **التحولات**، مجموعة قصص (دمشق ١٩٧٥)، **زهرة الأنبياء**، ذكريات (دمشق ١٩٩٤)، **شجرة المغفرة**، مجموعة قصص (دمشق ١٩٩٦). وصدر لها عن منشورات الجمل: **انغبورغ باخمان: العام الثلاثون**، قصص ١٩٩٨؛ **كريستا فولف: كاسندرا**، رواية ١٩٩٩، **أنجيلا غرونرت: الطريق الأطول**، النساء في أول برلمان فلسطيني ٢٠٠٠.

غونتر غراس: القط والفار! رواية ترجمة د. أبو العيد دودو، مراجعة: د. سالمة صالح

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ساهمت مؤسسة انترناسيونس مشكورة في بعض تكاليف الترجمة

مقدمة

قد لا يكون من المناسب أن أتحدث في هذه المقدمة عن علاقتي برواية «القط والفأر»، التي قدر لي أن أقوم اليوم بترجمتها إلى اللغة العربية، وتقديمها إلى القارئ العربي، ومع ذلك فإني أحب أن أشير إلى أن هذه الرواية قد ارتبطت في ذهني عند صدورها في مطلع الستينيات – وقد كنت حينها أعيش في عاصمة النمسا – بقصة شرقية، تحمل عنوانا مماثلا، رغم ما فيه من تقديم وتأخير، هو «موش وكربه» أو «الفأر والقط»، وتتمثل في مثنوي الشاعر الفارسي عبيد زكاني، الذى عاش في القرن الرابع عشر، وترجمت قصته إلى اللغة الإنجليزية في أربعينيات القرن الماضي. فأصبحت منذ ذلك لا أذكر إحدى القصتين إلا ذكرت الأخرى وربطت كلا منهما بمؤلفها في آن واحد. والتشابه بين القصتين – وقضية التأثير والتأثر غير مطروحة هنا إطلاقا – لا يتوقف في الحقيقة عند العنوان فقط، وإنما يتعداه إلى السخرية من العصر بجرأة نادرة، ليس هنا مجال الحديث عنها، لا من باب الموازنة ولا من باب المقارنة. وقد سبق لي أن اهتممت بالمؤلف أيضا، وذلك عندما ترجمت أجزاء كثيرة من قصيدته المطولة «حنق سخط غضب» ونشرتها في أحد كتبي في منتصف الثمانينيات.

على أنه قد يكون من المناسب أن أنطلق في تقديمي لهذه الرواية ومؤلفها، مما عبر عنه غونتر غراس نفسه بقوله: «إني أبقى في المكان، وأفسح المجال للرموز، ولي علاقة مباشرة بالجغرافيا والزمن». والجغرافيا تبدو هنا محدودة الدلالة، فهي تمثل مسقط رأسه، مدينة دانتسيغ، غدانسك البولونية اليوم الواقعة على بحر البلطيق، التي كانت تعني، وربما لا تزال، بالنسبة إليه مركز العالم، بحيث إن معظم مسارب أعماله الإبداعية، وخصوصا أكثرها شهرة وإثارة للجدل والنقاش، تؤدي إليها من جميع الأبواب والمسالك

والاتجاهات. والأمثال، التي يفسح له المجال في كتاباته، هي ولا ريب القصص والحكايات والأقوال والمأثورات الشعبية المتبادلة. أما الزمن فهو زمن طفولته وصباه في هذه المدينة وضاحيتها لانغفور، وما سنوات الطفولة سوى مصابيح مستقبلية كاشفة، تضيء الماضي وتستجلي أسراره وخفاياه. ومعرفة هذه الجغرافيا ضرورية لفهم أعماله الأدبية والفنية المختلفة وما تشير إليه من أحداث ورموز. وقد قال ذات يوم عن طفولته هذه: «عُمِّدت، فُصدتُ، ثُبِّتتُ، عُلِّمتُ /. لعبتُ بشظايا القنابل،/ ونشأتُ بين/ الروح القدس وصورة هتلر»، وقد قدر له – كما عبر عن ذلك بعض دارسيه – أن يضيِّع الاثنين معا بعد انفصاله عن مدينته جسديا، واكتشافه لفداحة الأفكار، التي آمن بها الكثير من أبناء جيله، ونتج عنها ما نتج من خراب ودمار.

في هذه المدينة ولد غونتر غراس في السادس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٧ من أب ألماني يعمل في تجارة البقالة وأم بولونية، وزاول فيها دراسته الابتدائية ثم الثانوية حتى عام ١٩٤٤، وانضم خلال هذه الفترة إلى أشبال هتلر أولا، ثم إلى شبيبته عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، فلم يتخلف عن أقرانه الذين تحمسوا حماسة كبيرة للنازية دون أن يكتشفوا – لصغر أعمارهم – ما كانت تنطوي عليه من أخطار. وعمل في السنة الأخيرة من الحرب مساعدا في سلاح المدرعات، وجرح في أثناء ذلك، ونقل إلى المستشفى للعلاج، وعاش نهاية الحرب وهو لا يزال في المستشفى، ووقع أسيرا قرب مدينة كوتبوس، الذى ذكر الراوي في رواية «القط والفأر» أنه أضاع فيها رسائله ويومياته، بأيدي القوات الأمريكية. ويصف هايكو بوشر السنوات التي قضاها غونتر غراس في هذه المرحلة من حياته بأنها مفتاح أعماله، حتى إنه ليعدها وكأنها قد فقدت صلتها بحياته الموالية، واتخذت لها مركزا خاصا في ذاكرته، اختزن فيها ما اختزن من انطباعات وتجارب وخبرات عامة وخاصة، انصهرت كلها في وعيه الفني والأدبي، وأتاحت له أن يعكس محيطه وعالمه وحياته على نحو بلغ حدا كبيرا من التميز والتفرد

والخصوصية.

على أن غونتر غراس ينكر أن يكون لأعماله الأدبية صلة بحياته، فقد قال في أحد أحاديثه: «لست أجد فقرات من حياتي الخاصة، فيما أتذكره منها، في «الطبل الصفيح » ولا في «القط والفأر»، وليس في نيتي أيضا أن أروي شيئا يتعلق بسيرتي الذاتية، ثم إني لا أعتقد أن ذلك ممكن، إلا أن هناك من جانب آخر ذكريات لا تخلو من إشارة إلى تجارب مستمدة من كلمة، من رائحة، من مسكة يد، من استراقة سمع. وهذه الأشياء، هذه الجزئيات من التجارب المعيشة، يمكن تحويلها إلى قصة بشكل أسهل وأيسر إلى حد كبير. يضاف إلى ذلك على العموم أن الشخصيات الثانوية، والمناظر الطبيعية، واختيار الموضوع وانتقاءه، ذلك كله إنما هو قطعة من المؤلف، قطعة معينة، تعني اكتشافه لذاته.»

وكيفما كان الأمر فإن تجارب طفولته وشبابه المبكر قد بلورت ما كان يشعر به من ميول فنية، تمثلت في الشعر والرسم والنحت والموسيقى، فأخذ يمارس كل ذلك بتشجيع من أمه، التي كانت تهوى الموسيقى. وقد بدأت محاولاته الفنية هذه فيما بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٢، وقد عمل بعد إطلاق سراحه مزارعا، لكن حرصه على تنمية مواهبه هذه دفعه إلى الذهاب إلى مدينة دوسلدورف والالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة فيها لدراسة الرسم والنحت، وقد تطلب منه ذلك، حتى يوفر تكاليف حياته ودراسته، أن يشتغل عاملا منجميا حينا، وعازفا في إحدى الفرق الموسيقية حينا آخر، بمعنى أنه كان طالبا عاملا، كما يقال في الصيغ التعبيرية الألمانية. وانتقل سنة ١٩٥٣ إلى برلين، وتابع دراسته في كلية الفنون الجميلة، ودرس على بعض المشاهير من أساتذتها. وفي هذه الفترة بدأ ينشر ما كتبه من أعمال شعرية ونثرية، الأمر الذي مكنه من الاتصال بأعضاء مجموعة ٤٧ الشهيرة من الشعراء والأدباء والنقاد، الذين جمعت بينهم هموم الوطن المهزوم، الذي دمرته الحرب، والرغبة في النهوض بالأدب الألماني الحديث، التي اتسم قرابة عشريتين بالركود والتهافت في مادته وشكله وأخلاقياته ومحرماته الموروثة،

وقد ظل على انتمائه إلى المجموعة المذكورة، وكان من بين أعضائها كتاب معروفون من أمثال هاينريش بول، ومارتين فالزر، وباول تسيلان وغيرهم، إلى أن تلاشت هذه المجموعة وتفرق أفرادها وسار كل عضو منهم في طريقه الخاص.

ونشر غراس ديوانه الأول عام ١٩٥٦، وقد ضمنه بعض رسومه وكتاباته النثرية. ولعل عدم إحراز ديوانه هذا على النجاح الذى كان يتوقعه له، هو الذى جعله ينتقل إلى باريس مع أسرته – كان قد تزوج عام ١٩٥٤ من الراقصة السويسرية أنّا شفارتس، وأنجب منها أربعة أولاد، ثم انفصل عنها عام ١٩٧٨ ليتزوج في السنة الموالية من العازفة على الأرغن أوته غونيرت – في سنة ١٩٥٦ ليعيش فيها حتى سنة ١٩٦٠، وقد أقام في أثناء ذلك المعارض الأولى لرسومه ونقوشه، وكانت له اتصالات كثيرة بالمشاهير من رجال الفكر في باريس، التي كانت تعتبر في ذلك الحين قلب الثقافة الأوربية النابض بالنشاط والحركة.

وفي هذه الفترة بدأ بكتابة روايته «الطبل الصفيح»، وقرأ أحد فصولها في مقر مجموعة الـ٤٧، فأعجب أعضاؤه بما قرأه عليهم ومنحوه الجائزة التي كانت هذه المجموعة قد خصصتها للأعمال الإبداعية المتميزة، وأصدر الرواية كاملة عام ١٩٥٩. وبطلها، وهو من مواليد دانتسيغ مثل المؤلف، إنسان ولد بعد أن اكتمل تطوره الفكري، فأوقف نموه في عامه الثالث، وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره أخذ، أثناء إقامته الإجبارية في مركز تربوي لاتهامه بارتكاب جريمة ما، يروي حياته أو «يضربها» على طبل من الصفيح، على غرار ما يفعله بعض المداحين والقوالين في بعض البلدان العربية وهم يضربون البنادير أو الدفوف، وذلك احتجاجا منه على عالم الكبار من منظوره بصفته قزما، وقد أشار المؤلف أيضا بصفة عرضية إلى هذا الطفل القزم أكثر من مرة في رواية «القط والفأر»، وإن اكتفى هنا بإثارة الضجة ثم الاختفاء دون الانقياد لأحد. وهذا المنظور يتيح له – وهو تحت – تصور جزء كبير من الحقيقة، هذا إن لم يتح له تصورها كاملة، ووصف ما

عرفته تلك الفترة من أزمات مختلفة، وشعاره هو «هناك أشياء في الحياة لا ينبغي - مهما كانت قداستها - أن تظل على ما هي عليه»، وفي الرواية من القصص والمشاهد ما يبرر هذا الشعار الجريء.

وما أن ترجمت هذه الرواية إلى كل اللغات الحية، أو اللغات التي توصف بأنها «لغات ثقافية»، حتى أصبح المؤلف أديبا مشهورا، الأمر الذى جعله يعكف على كتابة روايته، بل قصته المطولة «القط والفأر»، وسأتحدث عنها فيما بعد، ويصدرها عام١٩٦١، ثم يصدر بعد عامين من ذلك روايته الثالثة، التي كان من المفروض أن تكون رواية «القط والفأر» مجرد جزء فيها، وهناك أسماء تكررت فيها مما يؤكد هذه الصلة المباشرة، وهي رواية «سنوات الكلاب»، وتتألف من ثلاثة أقسام لكل قسم منها راو خاص، وموضوعها الصداقة التي جمعت بين إدوارد آمزل وفالتر ماترن وامتدت أكثر من ربع قرن، وانعكس فيها تاريخ ألمانيا النازية والاتحادية وما انطوت عليه الأولى من خطر على العالم كله وعلى الإنسانية جمعاء.

هذه الروايات الثلاث، التي تحتوي الأولى والثالثة منها على وفرة من الأشكال التقليدية تصاحبها أصالة تستمد أسسها الجوهرية ممن سبقه من الكتاب الألمان من ذوي الشهرة العالمية، تشكل ما يعرف بثلاثية دانتسيغ، التي أعادت إلى الأدب الألماني، كما عبر عن ذلك أحد النقاد، حيويته، واتساع مداه، وشموخه، ووصف غراس بأنه وسع، من خلال أعماله الروائية هذه، رؤى التقاليد الأدبية ومضامينها الممتدة من حكايات الشطار والعيارين إلى قصص المغامرات، ولكنه أضاف إليها مفهوما واقعيا آخر يتصل بمجالات اللاوعي والخيال والحلم والغرابة، كما وصف بأنه الوارث الحقيقي لتوماس مان، صاحب روايات «الجبل السحري»، و«يوسف وإخوته»، و«بودنبروغس» وغيرها، واعتبر، إلى جانب هاينريش بول، من المبرزين في السخرية من المظاهر الدينية والسياسية المزيفة، ووضع إلى مصاف الكتاب العالميين من أمثال مايلر ونبوكوف وسارتر وغيرهم، واقترح لنيل جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٠ باعتباره أكبر كاتب ألماني على

قيد الحياة وفاز في السنة نفسها بعضوية الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون.

والشهرة ترتبط في العالم المتقدم بالجوائز، الأدبية منها على وجه الخصوص، لذلك أسارع إلى القول، قبل مواصلة الحديث عن أعماله الأخرى، فالثلاثية تعتبر الأساس الأول لشهرته، بأن غونتر غراس قد نال عدة جوائز في ألمانيا، منها جائزة جورج بوشنر عام ١٩٦٥، التي لم تمر دون أن تقوم حولها زوبعة من الانتقادات والاحتجاجات، كان مبعثها بالدرجةالأولى دوافع أخلاقية وسلوكية محضة، تتصل بما جاء في بعض رواياته على العموم من مشاهد إباحية. على أن غراس كان يجد دائما من يعجبون به، ويؤيدونه في مواقفه الجريئة، ومن بينهم الكاتب الروائي كازمير إجميد، الذى وقف إلى جانبه باعتباره كاتبا ملحميا معاديا للدجل السياسي والنفاق الاجتماعي. ونال كذلك جائزة أكاديمية الفنون ببرلين، التي كان ينتمي إلى عضويتها منذ سنة ١٩٦٣، وهي الجائزة التي ترتبط باسم الكاتب تيودور فونتانه. ولم تقتصر هذه الجوائز، قبل حصوله عام ١٩٩٩ على جائزة نوبل، على ألمانيا وحدها، فقد حصل على جوائز أجنبية أيضا، منها أحسن جائزة كتاب أجنبي في فرنسا عام ١٩٦٢، وجائزة مونديللو عام ١٩٧٧ في صقلية، وجائزة فياريجو عام ١٩٧٨ بروما، وكان محل حفاوة كبيرة، ونال ضروبا من التكريم والتشريف في البلدان والمدن الأوربية، التي زارها، خصوصا مدينة مسقط رأسه، التي أنجبته وألهمته وفتحت أمامه باب الشهرة والخلود.

وأصدر عام ١٩٦٩ رواية «تخدير موضعي»، وهي عبارة عن دعوة فكرية إلى الأخذ بأسباب التقدم والتطور بدل القيام بالثورة ضد ما هو قائم من أجل الثورة، بمعنى أنها رواية سياسية أو هي تجسم اهتمام المؤلف بالسياسة الحزبية. وتتألف من ثلاثة أجزاء وتدور أحداثها، خصوصا الجزء الأول منها، الذى يتم في صورة مونولوج داخلي، في عيادة لطب الأسنان، فيها طبيب ومريض جالس فوق كرسي، وأمامهما شاشة تلفزة، تلهي المريض عن الآلام

التي يعاني منها أثناء قيام الطبيب الحفر والثقب والنجارة! فالمريض يحكي قصته، والشاشة تحكي قصتها هي الأخرى، وليس هناك من علاقة بين أفكاره وبين ما يشاهده، وهناك قديسة تحمي من يعانون من آلام أسنانهم، ولكنها تحمي في الوقت نفسه أطباء الأسنان! لقد تحدث غونتر غراس في أعماله الأدبية أكثر من مرة عن ضجيج الأسنان المريضة وعنادها. ومن الطريف بهذه المناسبة أنه كان، فيما روته بعض الصحف، في طريقه إلى طبيب الأسنان عندما تلقى خبر حصوله على جائزة نوبل للآداب!

وصدرت له عام ١٩٧٢ رواية «من يوميات حلزون»، يتخذ فيها دور المربي، ربما لارتباطه بتربية أولاده على الطريقة التي كان يريدها لهم، وينتقد ما يعتري التطور الاجتماعي من إبطاء، وما يكتنف الحياة السياسية من تخاذل بدل الحرص على معالجة المشاكل القائمة ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها. ثم يعود بنا مرة أخرى في رواية «الشبوط»، التي صدرت عام ١٩٧٧، إلى مدينة دانتسيغ، ويواصل بحيوية ونشاط وتفرد ما كان قد تحدث عنه أو عن بداياته في روايته الأولى. وقد أثارت هذه الرواية بدورها ضجة كبيرة في الأوساط السياسية والأدبية، فاقبل النقاد على تحليل مضمونها، وتباروا في تحليل أسلوبها وفنياتها الخاصة، وقد اعتبروها رواية فريدة، لم تعرف ألمانيا مثلها منذ سنوات الحرب. ففي هذه الرواية يتجلى بوضوح استمرار التقاليد الأدبية عند غونتر غراس كما عرفها الأدب العالمي من كتابات رابلي وغريمسهاوزن وجان باول وجويس وستيرن. فقد جمع غراس بين الخرافات والطوباويات، كما سجل عليه النقاد، فتناول التاريخ العالمي من «منظور المطبخ»، وعالج موضوع المرأة بشكل خاص، واتجه بذلك اتجاها معاديا للرجال، فما للرجال عنده من وظيفة غير إساءة استعمال السلطة وصناعة الحرب، وما من هدف لمعاداة الرجال سوى الوصول إلى التحرر والحرية والديموقراطية.

ونشر كذلك رواية «الولادات الرأسية أو الألمان ينقرضون» عام ١٩٨٠ وقد استفاد فيها من فنيات العمل السينمائي كما سبق له أن فعل ذلك في رواية

«تخدير محلي.» ومع ذلك فإن النقد لم يرض عن هذه الرواية، مما دفع بغونتر غراس الى الامتناع عن الكتابة لفترة من الزمن والتفرغ للنقش والنحت.

ونشر أيضا رواية «الفأرة» عام ١٩٨٢، غير فيها من اتجاهه السياسي، وعاد بذلك إلى الفأر مرة أخرى، وكأن الأمر عنده لا يخرج – مهما اتسع مداه – عن لعبة القط والفأر، فلكل قط ضحية من الفئران، ولكل قدر ضحية من بني آدم. ويبدو فيها المؤلف وكأنه قد أصبح عالما من علماء البيئة، فقد أبرز فيها مختلف الكوارث، التي تنتج عن التلوث والتجارب النووية والجينية وغيرها. وعاد كذلك إلى مرض الأسنان والدعوة إلى حمايتها من التسوس في رواية «أظهر لسانك» عام ١٩٨٧، التي يؤكد فيها على وظيفة الفن، وشعارها هو: «من أراد أن يستخرج العفونة،التي اختفت طويلا، خلف معجون الأسنان، من أراد أن يتنفس، فعليه أن يفتح فمه!»

وروايات غونتر غراس تشكل على الدوام نوعا من التحدي الصارخ، سواء تعلق الأمر بأسلوبها، أم بمضمونها، أم ببراعة لغتها المتجددة دائما، خصوصا الجانب المحلي منها، الذى خلع على تعابيره وكلماته الكثير من اللبس والغموض، لا بالنسبة إلى الأجانب الذين يحاولون ترجمة مؤلفاته إلى لغاتهم القومية، فحسب، وإنما حتى بالنسبة إلى مواطنيه، الذين شكا الكثير منهم أيضا من عدم فهمه لغته وأسلوبه، الأمر الذى جعل بعضهم يتجنب قراءته لما يسببه لهم غياب الأفعال في بعض جمله الإنشائية والخبرية على السواء من إثارة، تجعلهم يرمون كتبه جانبا في غضب! ولعل أبرز أزمة تسببت فيها رواياته من حيث مضمونها هي العاصفة التي ثارت عند صدور روايته «حقل واسع» عام ١٩٩٥، التي عبر فيها عن ثورته على التصورات التقليدية للتاريخ والحاضر، والشرق والغرب، والعدو والصديق، كما عبر عن موقفه من الوحدة الألمانية، التي تمت في نظره بصورة إجبارية!

ولعل غونتر غراس الوحيد، حتى الآن على الأقل، من بين الكتاب العالميين، الذى تناول أحداث القرن العشرين في كتابه «قرني» مرحلة مرحلة، وراح يتفحصها، ويحاول أن يتبين جوانب الخير والشر فيها والأماكن، التي

يلتقيان فيها، وعالج بذلك، كما فعل في بقية كتبه، ما يتحرج الكثيرون من معالجته، فهو لا يكتفي بأن يكون له رأي مخالف، بل يعتبر أن مثل هذا الرأي لا قيمة له ما لم يعبر عنه بالصورة التي يرضى بها ضميره، وفي الشكل الفني الذى يوصله إلى هدفه دون مراعاة لكل ما يخرج عن ذلك. ومن ثم لم يكن من الغريب أن يصل الطلب على هذا الكتاب إلى حوالي نصف مليون نسخة بعد الإعلان عن جائزة نوبل. ومما يتميز به غونتر غراس أيضا أنه لم يقتنع في يوم من الأيام، ويعود ذلك فيما يبدو إلى تعدد مواهبه ومحاولة إبرازها في كل مناسبة، بأن العناوين وحدها قادرة على تبليغ ما يريد قوله من جميع جوانبه، ولذلك يحرص كل الحرص على أن يضع رسوم أغلفة كتبه بنفسه، ليمكن قارئه من قراءة ثانية متزامنة لأعماله من جهة، وليجمع من جهة أخرى بين فنيات السرد والرسم في رواياته، وبين الشعر والرسم في دواوينه، فيكتب قصيدتين، إحداهما صامتة والأخرى ناطقة كما جاء في التعبير القديم، أو كما ورد عند ليسينغ في كتابه «لاؤكون» النقدي الشهير!

ولا مجال للحديث عن كتب غونتر غراس كلها، على أنه ينبغي الإشارة إلى أنه كتب، إضافة إلى الأشعار والروايات، أعمالا مسرحية، منها «الركوب ذهابا وإيابا» و«الفيضان» (١٩٥٧) و«العامة يجربون الثورة» (١٩٦٦) وقد أشار النقاد إلى أنه كتب هذه المسرحية الأخيرة مضاهاة لأسلوب بريخت في مسرحه السياسي أو مناهضة لموقفه من ثورة العمال في السابع عشر من شهر حزيران سنة ١٩٥٣، إلا أنه سار في معظم مسرحياته على نهج جماعة اللامعقول مثل يونيسكو وأودبيرتي وغيرهما قبل أن ينتقل إلى كتابة المسرحية السياسية والتعليمية بناء على اهتمامه بالعمل السياسي، لا سيما من خلال مشاركته في الحملات الانتخابية ضمن دعاة الحزب الاشتراكي الألماني وزعمائه ومؤيديه.

ونعود الآن إلى رواية «القط والفأر»، وأسجل بداية أن محنة بطلها، يؤاخيم مالكه العظيم، لا تقل من حيث غرابتها عن محنة بطل «الطبل الصفيح»، حتى وإن كان الأول يتمتع بجسد كامل. لقد بدأت محنته بين زملائه في المدرسة

أثناء الحرب العالمية الثانية في مدينة دانتسيغ، ويتولى رواية قصته فيها زميله بيلنتس عندما ينتبه إلى غضروفه المتضخم، إلى تفاحة آدم في عنقه ويضع عليه قطا، وإحساسه بالذنب يدفعه إلى كتابة قصته. كان بطل القصة يعاني من تفاحة آدم هذه، فهي تتحرك كما يتحرك الفأر، عندما يأكل أو يبلع أو يتحدث، ولكن عدو هذا الفأر، وهو القط، وليد تصور الراوي وخياله، يظل غير منظور، بحيث لا يرى وهو يطارد الفأر أو يلعب به، فما هو إلا رمز إلى محنته أو إلى المجتمع الذى يعيش فيه. ولذلك فإن كل ما يفعله البطل من وضع أشياء مختلفة – مفل براغي، وسام بولوني، صورة لمريم العذراء – حول عنقه لإخفاء عاهته الجسدية وصرف الناس عن الانتباه والنظر إليها، إنما هو محاولة منه لإبعاد العدو عن الفأر، بل ربما مساعدته في التغلب عليه على نحو ما.

لكن هذه العاهة الجسدية لم تحل دون بروزه بين أقرانه، وكأن ذلك تعويض له عن العيب، الذى داهمه وقت المراهقة، عن غير قصد، فقد كانت دافعا له على التفوق في التمارين الرياضية، وفي بعض مظاهر الرجولة، وفي الغطس والمداومة عليه، وإحضار كل ما يمكن إحضاره من حطام الزورق البولوني الغريق، وفعل كل ما من شأنه أن يثير إعجاب الآخرين به والرفع من شأنه، حتى لا ينعزل عن محيطه. كما كانت دافعا له أيضا على أن يسرق من ضابط، كان قد تخرج مثله من نفس المدرسة، وإن كان ذلك قد تم في إطار محاولته تغطيته عاهته من جهة، والظهور بمظهر يدل على حيازته للأوسمة من جهة أخرى والتخلص ولو لبعض الوقت من سحنة وجهه المتألمة، التي تشبه – كما يراها الراوي في معظم الأحيان – سحنة المسيح، وفي هذه اللحظة يبدأ تحوله، على حد تعبير غيرت ساوترمايستر، نحو مصيره المحتوم، وكان في مقدمة ذلك طرده من مدرسته. لقد بذل مالكه ما في وسعه ليبرز من جديد من خلال أعماله البطولية، فاستطاع أن يبرز فعلا، وأصبح بعد فترة قصيرة الأمد قائد فرقة المدرعات، ونال وساما على ذلك، تصور أنه سيعيد له مكانته المتميزة وبروزه المتفرد.

على أن العالم الخارجي رفض أن يعترف له بما كان يريد، وحرمه من الإعجاب الذى كان يطمح إلى نيله. كان ذلك عندما رفض مدير مدرسته السابقة أن يسمح له بإلقاء محاضرة فيها، تمكنه من الظهور بمظهر البطل أمام زملائه أسوة بذلك الضابط البحري ومحاولة منه للتفوق عليه هو الآخر من خلال محاضرته. وعندئذ يقرر أن ينتقم لنفسه من مدير المدرسة، وأن يفر من الخدمة العسكرية لقرفه منها، ويمضى بعدئذ إلى الزورق الذى كان قد هيأ فيه قمرته البارزة فوق سطح الماء، ليتخذ منه مقاما له، ويعتزل فيه، ويختفي كل أثر له.

لقد كانت للراوي، وهو القط في القصة، وإن اعتراه التردد في ذلك أحيانا محاولة منه لتبرئة نفسه، مشاعر مختلفة تجاه بطل الرواية، تراوحت ما بين الإعجاب، والحب، والكراهية، والسخرية وغير ذلك، ولكن ذكراه ظلت في وعيه أكثر حياة، بحيث تتمثل له صورته في كل مكان، ولعلها بقيت تبعث في نفسه المشاعر نفسها، رغم أن البطل لم يعد مسرحا لتمثيلية القط والفأر، وإنما تحول إلى غطاس، إلى ذلك الطائر الذى يجيد العوم والغطس، وإلى زورق في آن واحد، وكلاهما يلازم الماء، يوجه نظرهما نحوه حزن خفي وندم كبير. وهذا ليس تلخيصا للقصة وإنما هو إشارة للحدث الرئيسي، وأدع للقارئ اكتشاف بقية نواحي هذه القصة.

ولا شك أن حصول غونتر غراس على جائزة نوبل كان ضربة لبعض نقاده، الذين حكموا عليه بالسقوط على أثر صدور رواياته «حقل واسع»، ومثل هذا النقد لا يمكن إلا أن يدل على التعسف في الحكم على أعماله الحاضرة وحدها ونسيان أعماله السابقة المتميزة. ولا بأس أن أذكر بهذا الصدد أن مثل هذا الحكم قد أعاد إلى الأذهان ما كان يقال هنا وهناك عن نجيب محفوظ من أنه قد انتهى ولم يعد يقدم الجديد، وإذا بالأكاديمية السويدية تكلله بجائزتها الكبيرة وتعترف له بمكانته الأدبية بين مشاهير المخلدين من أدباء العالم.

أبو العيد دودو، الجزائر، ضاحية بن عكنون، ٢٠/٥/٢٠٠٠

أهم المصادر:

- Deutsche Literatur seit 1945, Herausgegeben von Dietrich Weber, Koerner, Suttgart, 1968.
- Franz Lennarz, Deutsche Schriftsteller des 20. Jahrhunderts im Spiegel der Kritik, Band I, Kroener, Stuttgart 1984.
- Fritz Martini, Deutshce Literaturgeschichte, 15. Auflage, Kroener, Stuttgart 1968.
- Walter Killy, Literatur Lexikon, Autoren und Werke deutscher Sprache, Band 9, Digitale Bibleothek, Berlin 1998.
- Kindllers Literatur Lexikon, dtv, Muenchen 1974, Bde 5, 11 und 12.
- Lexikon deutschsprachiger Schriftsteller, von den Anfaengen bis zur Gegenwart, Leipzig 1967

-١-

... وذات مرة، عندما أصبح مالكه قادرا على السباحة، كنا منطرحين على العشب قرب مضرب الكرة. كان علي أن أذهب إلى طبيب الأسنان، ولكنهم لم يتركوني، لأنه كان من الصعب الاستغناء عني بصفتي لا عبا ماهرا. كانت سني تحدث ضجيجا. ومرّ قط عبر الحقل قُطريًا من غير أن يُرشق بشيء ما. كان بعضهم يعلك العيدان أو يقطعها. كان القط لمدير الملعب، وكان آسود. كان هوتن زونتا غ يحك مضربه بجورب من الصوف. ولم تحرز سني تقدما مريحا. كانت الدورة قد استغرقت ساعتين، وكانت خسارتنا كبيرة، ولم يكن لنا إلا أن ننتظر مباراة الثأر. كان القط صغيرا، ولكنه لم يكن قطيطا. جرى تبادل أهداف كثيرة في ملعب كرة اليد. وكانت سني تردد كلمة واحدة. وفي ميدان السباق كان عداؤو المائة متر يتمرنون على بداية الانطلاق أو كانوا عصبيين. وكان القط يلف ويدور. وفي السماء زحفت ببطء وبصوت عال طائرة ذات ثلاثة محركات، ولكنها لم تستطع أن تتغلب بأزيزها على أزيز سني. وكانت قط مدير الملعب الأسود يظهر من خلف عيدان العشب ميدعة أطفال بيضاء. كان مالكه نائما. وكانت محرقة الجثث بين المقابر المتحدة والمدرسة العليا تؤدي عملها بمساعدة الريح الشرقية. صفر مدرس الثانوية مالنبرانت: لقد تم تجاوز مسك الكرة المتبادل. كان القط يتمرن. وكان مالكه نائما أو كان يبدو عليه ذلك. وكنت أعاني إلى جانبه من وجع أسناني. اقترب القط متمرنا. وجلبت انتباهه تفاحة آدم في عنق مالكه، لأنها كانت كبيرة الحجم، تتحرك بصورة مستمرة، وتلقي بظل على ما حولها. وتأهب قط مدير الملعب الأسودُ بيني وبين مالكه للوثوب. كنا نكوِن مثلّثا. وسكنت سني ولم تعد تراوح في مكانها، حيث تحولت تفاحة آدم في عنق مالكه إلى فأر بالنسبة إلى القط. وكان القط يافعا بقدر ما كانت آلة مالكه متحركة – لقد وثب على كل حال إلى بلعومه؛ أو أن أحدنا أخذ القط ووضعه على عنقه، أو أنا، بمعاناتي لوجع الأسنان أو بدونها، أخذت القط وأريته فأر مالكه: فصرخ

يؤاخيم مالكه، ولكنه لم يصب سوى بخدوش غير ذات أهمية.

إلا أن علي الآن، أنا الذى أظهر فأرك للقط ولجميع القطط، أن أكتب. حتى لو أننا كنا قد اختُرعنا معا، فإنه كان علي أن أفعل ذلك. والذى اخترعنا يلزمني، بسبب المهنة، أن آخذ تفاحة آدم بيدي من عنقك المرة بعد الأخرى، وأقودها إلى كل مكان رآها تنتصر فيه أو تنهزم. وهكذا أترك في البداية الفأر يثب فوق المفل، وأرمي بشَعب من النوارس البحرية المتخمة فوق رأس مالكه في الريح الشرقية المتوثبة، وأصف الطقس بأنه صيفي جميل بشكل مستمر، وأخمن أن حطام السفينة هو قارب قديم من صنف سزايكا، وأخلع على بحر الشمال لون قناني المياه المعدنية ذات الزجاج السميك، وأدع بشرة مالكه التي يسيل فوقها الماء سواقيا، ما دام الأمر قد ثبت في جنوب شرقي برميل إرشاد السفن في نويفارفاسر، تصبح محببة بحبيبات تتراوح بين الدقة والخشونة شبيهة بحبات البرد. إلا أنه ليس الخوف، وإنما القشعريرة المعتادة بعد السباحة الطويلة، هي التي استحوذت على مالكه، وأخذت من بشرته ملاستها.

على أن أي واحد منا، نحن الذين كنا نجلس القرفصاء فوق جسر القيادة نحيفين طويلي الأذرع بين الركب المرتفعة بصورة مائلة، لم يطلب من مالكه أن يغوص مرة أخرى إلى مقدم سفينة التنقيب عن الألغام الغريقة وإلى مكان الآلات القريبة من وسطها، وأن يستخرج منه شيئا بمفله، برغي صغير عجلة صغيرة أو يخرج شيئا رائعا: لافتة من النحاس الأصفر كتبت عليها طريقة استعمال آلة من الآلات كتابة متراصة بالبولونية والإنجليزية؛ ذلك أننا كنا جالسين على كل ما ارتفع فوق سطح الماء من منشآت الجسور التابعة لسفينة بولونية قديمة للتنقيب عن الألغام، أنزلت إلى الماء من مدينة مودلين، وأنجزت في غدينغن من صنف سزايكا، وهي التي كانت قد غرقت قبل سنة جنوب شرقي الإشارات البحرية للميناء،أي خارج الممر البحري دون أن تعيق حركة السفن.

ومنذ ذلك الحين يبس سَلح النوارس فوق الصدأ. كانت هذه النوارس تطير في كل طقس منسابة انسيابا كبيرا بعيون جانبية تشبه الكريات

الزجاجية، أحيانا على انخفاض حتى ليكاد المرء يمسك بها فوق بيت البوصلة، ثم ترتفع في اختلاط وطبقا لخطة ما، لم يكن من الممكن فك رموزها، وكانت ترسل خلال طيرانها سلحها اللزج، ولم يكن أبدا يصيب البحر اللين، ولكنه كان يصيب دوماً القضبان المشبكة لمنشآت الجسر. واستمر سقوط إفرازاتها الكلسية الصماء في صورة خثارات متلاصقة وقطع يتراكم بعضها فوق بعض. وعندما كنا نجلس فوق السفينة، كانت تحاول أظافر أرجلنا وأظافر أيدينا إزالة سلحها هذا. وقد انكسرت أظافرنا، ولكن ذلك لم يكن يحدث لأننا كنا نقرض أظافرنا – باستثناء شيلينغ، الذى كان يمضغ باستمرار، وكانت أظافره مصابة بمرض الحُقاب. مالكه وحده كانت له أظافر طويلة صفراء، وإن كانت مصفرة من كثرة الغطس، وكان يحافظ على طولها، حيث لم يكن يقرضها ولا كان يكشط بها سلح النوارس. وقد بقي من بيننا أيضا الوحيد، الذى لم يأكل مما نزعناه من سلح، بينما كنا نحن، لأن ذلك اتفق لنا، نمضغ قطعا كلسية كقطع الصدف، ثم نبصقها كمخاط زبدي من على ظهر السفينة. لم يكن لسلح النوارس أي مذاق أو كان له مذاق الجبس أو مسحوق السمك أو مذاق كل ما يمكن تصوره: مذاق السعادة، الفتاة، أو الإله الطيب. وزعم فينتر، الذى كانت له موهبة جيدة في الغناء، ما يلي:

– هل تعلمون أن الصادحين من المغنين يأكلون يوميا سلح النوارس؟

وغالبا ما كانت النوارس تتلقف في طيرانها بصاقنا الكلسي ولم يكن يبدو عليها أنها تلاحظ شيئا.

عندما بلغ يؤاخيم مالكه الرابعة عشرة بعد بدء الحرب العالمية بفترة قصيرة، لم يكن يعرف السباحة ولا قيادة الدراجة، لم يكن يثير انتباه أحد على الإطلاق، وترك تفاحة آدم، التي جذبت القط إليها فيما بعد، تفتقد. كان قد أعفي من ألعاب التربية البدنية والسباحة، لأنه كان يعرف كيف يقدم شهادة طبية تثبت أنه مريض. وقبل أن يتعلم مالكه قيادة الدراجة ويتخذ فوقها مظهرا مضحكا، وهو مقطب الوجه عابسه، وقد ارتفعت أذناه المحمرتان عاليا وراحت ركبتاه المنحنيتان جانبا تعلوان وتهبطان، سجل نفسه في السباحة في الموسم الشتوي بمسبح المدينة السفلى، غير أنه لم يسمح

له في البداية بالتدريب على السباحة إلا خارج الماء مع الأطفال فيما بين سن الثامنة والعاشرة. ولم يكن في الصيف التالي أيضا قد تعلم السباحة. وكان على قيم مسبح بروزن، وهو شخصية نموذجية لقيم المسبح، له جسم عوامة إرشاد السفن وسيقان نحيفة عديمة الشعر تحت العلامة البحرية المغطاة بالقماش، أن يترك مالكه يتدرب على الرمل قبل أن يسمح له بالسباحة في الماء. ومع ذلك فعندما كنا نسبح بعيدا عنه عصراً بعد آخر ونروي له أشياء غريبة عن زورق التنقيب عن الألغام الغريق، تملكته رغبة قوية، حتى إنه تمكن من السباحة خلال أسبوعين - واجتاز اختبار السباحة.

كان يسير برزانة ووقار بين الجسر البحري وبرج القفز الكبير وبين المسبح ذهابا وإيابا، وكانت قد تكونت لديه قدرة على تحمل السباحة، عندما بدأ بتمارين الغطس من مرطم الأمواج بجسر العبور البحري، وكان يحضر معه في البداية أصدافا بسيطة من بحر الشمال، ثم صار يغطس خلف زجاجة بيرة مملوءة بالرمل، كان يرمي بها بعيدا إلى حد ما. ونجح بعد حين فيما يبدو في إخراج الزجاجة من القاع بانتظام، فعندما بدأ يغطس عندنا من فوق الزورق، لم يعد مبتدئا في السباحة.

كان يتوسل من أجل أن نسمح له بالسباحة معنا. كنا نريد، وعددنا ستة أو سبعة، أن نقوم برحلتنا اليومية، وقد بللنا أنفسنا بعناية في مربع مسبح الأسر المسطح، وإذا بمالكه قد وقف فوق ممر مسبح الرجال:

- خذوني معكم. من المؤكد أنني قادر على ذلك.

كان هناك مفل يتدلى تحت بلعومه ويحول الانتباه عنه.

- حسنا!

جاء مالكه معنا وتجاوزنا بين الرصيفين الرمليين الأول والثاني تحت الماء، فلم نجهد أنفسنا في اللحاق به:

- فليتخبط إذن ما شاء له ذلك.

عندما كان مالكه يسبح سباحة صدرية، كان المفل يرقص بين لوحي الكتف بصورة واضحة، فقد كان له مقبض خشبي. وإذا ما هو سبح على ظهره، ترنح المفل على صدره، ولكنه لم يكن يستر أبدا ذلك الغضروف

المشؤوم بين الفك والترقوة، الذى بقي خارجا بمثابة زعنفة الظهر وكشط شيئا قليلا من عارضة السفينة.

ثم أرانا مالكه ما يستطيع، فقد غطس بالمفل عدة مرات متواصلة، تفصل بينها فترات قصيرة، وأخرج ما أمكنه فكه من مكانه بعد الغطس مرتين أو ثلاث: غلافا، وأجزاء من الغطاء الخشبي، وقطعة من مولد الكهرباء، وعثر على حبل مهترئ، ربط به جهازا يدويا أصليا لإطفاء النار وأخرجه من مقدم السفينة؛ وكان الجهاز - وهو بالمناسبة من صنع ألماني - لا يزال صالحا للاستعمال. وقد أثبت مالكه لنا ذلك، وأطفأ بالرغوة، وأرانا كيف يطفئ المرء بالرغوة، وأطفأ بالرغوة البحر الزجاجي الخضرة - وكان قد فرض نفسه منذ اليوم الأول بشكل كبير جدا.

كانت ندائف الرغوة لا تزال تشكل جزرا وأشرطة ممطوطة فوق كثبان منبسطة مستوية، كانت تجتذب عددا قليلا من النوارس، لا تلبث أن تدفعها بعيدا عنها، فتتساقط مجتمعة، وتدفع الى الشاطىء قشطة حَمُضَت. عندها توقف مالكه أيضا، وجلس في ظل بيت البوصلة، وقد صارت له الآن، كلا، بل كانت له منذ مدة طويلة، قبل أن تتعب مزق الرغوة التائهة فوق الجسر وتهتز تحت كل هبة هواء - هذه البشرة الحبيبية المنكمشة.

ارتعد مالكه، وترك بلعومه يطير، وتراقص مفله مع الغضاريف المهتزة. لكن ظهره كان أيضا جبنيا في بعض المواضع وكان ابتداء من الكتفين فما تحت مساحة محترقة سرطانية الحمرة، تقشر جلدها الذي احترق من جديد على جانبي عموده الفقري الشبيه بلوحة الغسيل المرة بعد أخرى. وقد رشق بحبات من البرد وتمدد بفعل رشاشات الماء المتحركة. وكانت شفتاه الضاربتان إلى الصفرة ذات حواف زرقاء، تكشفان عن أسنانه المصطكة. وحاول بيديه الكبيرتين الناحلتين أن يمسك ركبتيه، اللتين احتكتا بالحاجز المغطى بالأصداف، ليتمكن جسمه وكذلك أسنانه على هذا الوجه من المقاومة.

ودعك هوتن زونتاغ - أم تراني كنت أنا؟ - مالكه:

- لا ينبغي أن تصيبك برودة، يا هذا! علينا أن نعود.

وصار المفل أكثر رزانة.

كنا في حاجة إلى خمس وعشرين دقيقة، إن نحن انطلقنا من مرطم الأمواج، وإلى خمس وثلاثين دقيقة، إن نحن انطلقنا من المسبح، لقطع المسافة، وكان رجوعنا يتطلب ثلاثة أرباع الساعة على الأقل. ومهما نال منه التعب أثناء ذلك، فإنه كان يصل قبلنا إلى صخرة مرطم الأمواج الصوَّانية بدقيقة بوضوح، وظل محتفظا بتفوقه علينا في اليوم الأول. و في كل مرة قبل أن نكون نحن قد بلغنا الزورق - كان هذا هو اسم سفينة البحث عن الألغام فيما بيننا، يكون هو قد غطس تحت الماء، ومن ثم كان يرينا بشكل منتظم تقريبا، بمجرد أن نمد أيدينا الشبيهة بأيدي الغسالات نحو الصدأ وسلح النوارس أو الركائز البارزة - يرينا مفصلة ما، شيئا كان من السهل عليه أن يفكه وينزعه من مكانه، دون أن ينبس بكلمة واحدة، وقد بدأ يرتعد رغم أنه كان قد دهن نفسه ابتداء من السبحة الثانية أو الثالثة بدهان نيفيا بشكل كثيف إلى حد الإسراف؛ فقد كان لمالكه ما يكفيه من مصاريف الجيب.

كان مالكه الطفل وحيد أبويه.

كان نصف يتيم.

لم يكن أبوه على قيد الحياة.

كان يرتدي شتاء وصيفا على حد سواء حذاء عاليا قديما، لعله ورثه عن أبيه.

وكان يربط المفل في عنقه بشريط حذاء أسود.

أتذكر الآن فقط أن مالكه كان، لأسباب معينة، يحمل في عنقه إلى جانب المفل شيئا آخر، ولكن المفل كان أكثر جلبا للأنظار.

من المحتمل أنه كان يحمل هذا المفل دائما، ولكننا لم نلق إليه بالا أبدا، يقينا أنه يعود إلى اليوم الذى تعلم فيه السباحة خارج الماء وكان عليه أن يتخبط أشكالا من التخبط في الرمل - كانت في عنقه سلسلة فضية صغيرة، تعلق بها شيء فضي كاثوليكي: مريم العذراء.

لم ينزع مالكه الحلية المعلقة في عنقه أبدا، حتى في أثناء حصة الألعاب؛ فما كاد يبدأ السباحة خارج الماء ويتلقى دروسا فيها في المسبح الشتوي للمدينة

السفلى، حتى تردد أيضا على قاعتنا المخصصة للألعاب الرياضية ولم يعد يظهر أبدا شهادة مرضية من أي طبيب للأسرة. إما أن تكون الحلية المعلقة قد اختفت في تقويرة قميص التدريب وإما أن العذراء الفضية كانت قد استقرت لصق الشريط الصدري الأحمر فوق قماش الفانلة البيضاء.

لم يكن مالكه يعرق في المتوازيين أيضا. وحتى التمارين على حصان الوثب، التي لم يكن يشارك فيها سوى أفضل اثنين أو ثلاثة من الطابور الأول، لم يكن يتخلى عنها، وإنما كان يدور معوجا، وقد برزت عظامه الخشنة من منط لوحة القفز فوق الجلد الطويل، ويهبط بشكل منحرف ومعه السلسلة ومريم العذراء التي كانت تنزاح عن عنقه، فوق الحصيرة مثيرا الغبار حوله. وعندما كان يتمرن على دورات مأبض الركبتين في العقلة – وقد تمكن فيما بعد من أن يدور دورتين، ولو أنهما كانتا تتمان بصورة رديئة، أكثر مما كان قد وصل إليه هوتن زونتا غ، وهو أفضل لاعب جمباز عندنا – ، إذن عندما غص مالكه بتمارينه على حركات مأبض الركبة ووصل بها سبعا وثلاثين دورة، خرجت حليته من الفانلة، وانقذف الشيء الفضي سبعا وثلاثين مرة، سابقا خصلات شعره نصف البني على الدوام، حول قضيب العقلة التي تحدث صريرا، من غير أن يستطيع التحرر من عنقه واكتساب حريته منه. ذلك أنه كان له، إضافة إلى البلعوم الكابح، ذلك القذال البارز، الذى كان يوقف، ببداية الشعر والثنية الواضحة، السلسلة المنزلقة الثائرة بفعل دورات مأبض الركبة. كان المفل فوق الحلية، وقد غطى شريط الحذاء بعض جوانب السلسلة. ومع ذلك فإن المفل لم يُزاحم الحلية، خصوصا وأنه لم يكن يُسمح لهذا المفل ذي المقبض الخشبي بالدخول إلى قاعة الألعاب الرياضية. وكان معلم الرياضة، وهو مدرس يدعى مالنبرانت، اشتهر في دوائر الرياضيين، لأنه وضع دليلا يتضمن قواعد لعبة البيسبول، قد منع مالكه من حمل المفل المعلق بشريط الحذاء خلال الحصة الرياضية. أما التميمة، التي كان يحملها في عنقه، فإن مالنبرانت لم يعترض عليها أبدا، لأنه كان يدرس الدين إضافة إلى التربية البدنية والجغرافية وعرف حتى نهاية الحرب كيف يقود بقايا ناد رياضي كاثوليكي – عمالي.

وهكذا كان على المفل أن ينتظر في غرفة حفظ الملابس فوق القميص، بينما سمح لمريم العذراء الفضية في عنقه، التي حال لونها قليلا، بمساعدته على أداء التمارين الصعبة.

كان مفلا عاديا: متينا رخيصا. كثيرا ما كان على مالكه أن يغطس خمس أو ست مرات من أجل أن يفك لافتة صغيرة، ليست أكبر من لافتة اسم مثبتة الى جانب باب مسكن من المساكن مشدودة ببرغيين، أو يخرجها إلى السطح، خاصة عندما تكون اللافتة قد التصقت بأجزاء معدنية أو يكون البرغيان قد علاهما الصدأ. وبالمقابل كان ينجح في بعض الأحيان بعد الغطسة الثانية في إخراج لافتات أكبر، كتبت فوقها نصوص كثيرة، وكان هذا يتم عن طريق استعماله المفل بمثابة حديدة لتكسير البراغي في أغطية الخشب المهترئة وإخراج الغنيمة لإظهارها لنا فوق الجسر. لقد جمع اللافتات الصغيرة بإهمال، وأهدى الكثير لفنتر ويورغن كوبكا، اللذين كانا يجمعان دون مراعاة كل ما يمكن تفكيك براغيه، حتى لافتات الشوارع ولافتات المراحيض العامة، ولم يأخذ معه إلى البيت سوى القطع التي تتلاءم مع أمتعته الخاصة.

لم يكن مالكه يرأف بنفسه: فعندما كنا نحن نغفو فوق الزورق، كان هو يعمل تحت الماء. كنا قد قشطنا سلح النوارس، فأصبحت ألواننا بنية بلون السيجار، ومن كان له شعر أشقر، صار له شعر أشقر تبني. أما مالكه، فكان جلده يحترق في الشمس في كل مرة. وعندما كنا نتبع حركة المرور البحرية شمال المنار، كان هو ينكس رأسه دون أن تطرف له عين: كان محمرا، وكان جفناه ملتهبين قليلا، قليلي الأهداب، وكانت عيناه، كما أعتقد، زرقاوين زرقة فاتحة، لا يعتريهما الفضول إلا عندما تكونان تحت الماء. عاد مالكه أكثر من مرة بدون لافتة، بدون غنيمة، ولكنه عاد بمفل مكسور أو معوج لا أمل في إصلاحه. أرانا إياه أيضا وترك في نفوسنا انطباعا طيبا. لم توجه لا الخيبة الفاترة ولا الغضب غير المنضبط تلك الحركة التي ألقى بها المفل من فوق كتفيه إلى البحر، وأربك بها النوارس في الوقت نفسه. فهو لم يتعود أبدا على رمي الأدوات المكسورة بلامبالاة مصطنعة أو حقيقية. حتى مثل هذا الرمي كان يعني: الآن سأريكم الأمر قريبا من جانبه الآخر!

... وذات مرة – كانت باخرة مستشفى بمدخنتين قد دخلت مضيق القناة، وكنا قد اتفقنا بعد تردد على أنها من «قياصرة» العمل البحري في شرق بروسيا، نزل يؤاخيم مالكه إلى مقدم السفينة تحت الماء من غير أن يأخذ معه المفل، واختفى في الكوة المكسورة الغائمة المزرقة، التي تكاد المياه تغمرها بمقدم السفينة، وضغط أنفه بإصبعين من أصابعه، واختفى أولا برأسه وبشعره، الذى تفرق في الوسط بفعل السباحة والغطس، وسحب ظهره ومؤخرته خلفه، وتنفس الهواء مرة أخرى من الجهة اليسرى، ثم ضغط نفسه ببطني قدميه إلى حافة الكوة نحو الأسفل في اتجاه الحوض المعتم البارد، الذى تحفظ به الحيوانات المائية، وكان قد تلقى النور الكاشف عبر العيون المفتوحة في جانب السفينة: كانت هناك أسماك عصبية من نوع أبي شوكة، ومجموعة أخرى متوقفة من أسماك الشلّق، وشبكات نوم مهترئة لا تزال مشدودة إلى ظهر مقصورة طاقم السفينة، وقد تلبدت وأحاطت بها لحى من الطحالب البحرية، جعلت منها أسماك الرنجة بيوتا لصغارها. ونادرا ما كان يوجد هناك سمك النازلي. أما ثعبان الماء فلم يتوفر منه غير ما كان يطلق عنه من إشاعات. ولم يتم أبدا العثور على سمك من أسماك الترس.

ومسكنا رُكبنا، التي كانت ترتعد قليلا، وسحقنا سلح النوارس نُخامةً، وكنا متوتري الأعصاب على نحو معتدل، متعبين، نصف مقيدين، قمنا بعد الزوارق الشراعية المبحرة، التي كانت تسير أسرابا، واضعين نصب أعيننا دخان مدخنة سفينة المستشفى الممتد دوما على نحو عمودي، وكنا ننظر إلى بعضنا جانبيا – كان قد بقي فترة طويلة تحت الماء –، كانت النوارس تحوم، والأمواج الصاخبة تغرغر فوق مقدم السفينة، وتتكسر على مساند مدفعها المنزوع من مكانه، وتصطفق خلف الجسر، حيث يتراجع الماء بين نوافذ التهوية ويلحس مواضع الربط نفسها بصورة متواصلة، وكنا نعاني من الكلس المتجمع تحت أظافرنا، وحكة جلودنا الجافة، والوميض أمام أعيننا، وطقطقة المحرك مع الريح، وكانت هناك مواضع كنا نشعر بضغطها علينا، وقد صارت أعضاؤنا نصف متجمدة، وثمة سبع عشرة شجرة من أشجار الحور بين بروزن وغليتكاو – وإذا به يخرج من الماء مندفعا إلى أعلى: كانت

هناك حمرة ضاربة إلى الخضرة حول ذقنه، وصفرة فوق عظام وجنتيه، ازاح ماء من الكوة، وقد تفرق شعره في وسط رأسه بشكل حاد، وترنح فوق مقدم السفينة والماء يغمر ركبتيه، ومد يده نحو الماسك فوقه، وركع وراح يحملق فينا مبتلا، فكان علينا أن نسحبه إلى الجسر. لكنه أرانا شيئا، والماء لا يزال يقطر من أنفه ومن زاويتي فمه، أرانا مقفلا، وهو مقفل من الصلب مصنوع من قطعة واحدة. كان مقفلا إنجليزي الصنع، سبكت فوقه كلمة: شيفيلد. لم يكن به أقل صدأ، ولا كانت به خدوش، وكانت هناك طبقة من الدهن لا تزال مثبتة به: كان الماء يتكور فوقه ويتدحرج بعيدا عنه.

كان يوخائيم مالكه قد حمل هذا المقفل الثقيل، ولنقل المقفل المستعصي على الكسر، أكثر من سنة، حتى حين لم نكن نسبح أو نادرا ما كنا نسبح إلى الزورق، يوميا وقد ربطه بشريط الحذاء حول عنقه، وراح يمارس بواسطته، مع أنه أو لأنه كاثوليكي، نوعا من الطقوس، فكان مثلا يقدمه قبل حصة الألعاب الرياضية إلى المدرس مالنبرات ليحتفظ له به، لأنه كان يخشى عليه من اللصوص، وكان يأخذه معه أيضا إلى كنيسة مريم؛ ذلك أنه لم يكن يذهب إليها يوم الأحد فقط، بل كان يذهب إليها خلال الأسبوع أيضا، وذلك قبل بدء الدراسة، لحضور قداس الصباح في كنيسة طريق البحرية تحت مجمع اسكوتلاندة الجديدة السكني التابع للجمعية التعاونية.

لم تكن تفصله هو ومقفله الإنجليزي عن كنيسة مريم سوى مسافة قصيرة: عندما كان يخرج من الجادة الشرقية، وينزل طريق الدّببة، كان يجد نفسه أمامها. كانت هناك صفوف من البيوت، يتألف أكثرها من طابقين، وكانت من بينها أيضا دور ذات سقوف مزدوجة، وبوابات، وأشجار مثمرة. وكان هناك كذلك صفان من العمارات، لم تملط أو ملطت وكانت بها بقع رطوبة. كان الترام ينعطف على الجهة اليمنى، فينعطف معه الخط الهوائي تحت سماء نصف غائمة في معظم الأحيان. أما على الجهة اليسرى، فكانت تقوم حدائق عمال السكة الحديدية الرملية الضيقة: كانت تحتوي على عرائش، وحظائر للأرانب مصنوعة من الخشب الأحمر الداكن لعربات البضائع التي لم تعد تستعمل. وكانت تقوم خلفها إشارات الخطوط الحديدية في اتجاه

الميناء الحر. كما كانت ثمة خزانات ورافعات متحركة أو ثابتة. كانت المنشآت العليا لسفن الشحن غريبة وكثيرة الألوان. وكانت هناك على الدوام سفينتان لنقل الركاب مرمدتا اللون لهما أبراج مصنوعة على النمط القديم، وكان ثمة حوض عائم، ومخبزة غيرمانيا، ومناطيد مربوطة على ارتفاع متوسط، يغلب عليها اللون الفضي، كانت تهتز وتتحرك في هدوء. إلا أنه كانت هناك إلى الجهة اليمنى مدرسة – هيلينه – لانغه السابقة البارزة إلى الأمام، ثم مدرسة غودرون، التي كانت تحجب فوضى ترسانة شيشاو البحرية الحديدية حتى رافعة المطرقة، إضافة إلى وجود ملاعب رياضية حظيت بعناية تامة، ومرام رياضية مصبوغة حديثا، وعلامات بيضاء خاصة بمنطقة الجزاء موزعة على العشب القصير: يلعب في أيام الآحاد الفريق الذي يرتدي الملابس الزرقاء والصفراء ضد فريق شيلْمول ٩٨ – لم يكن هناك مدرج، وإنما كانت هناك قاعة ألعاب حديثة عالية النوافذ ذات لون فاتح، ومع ذلك فقد كان غريبا الصليب المدهون بالقطران المثبت فوق سقف غريب. كان على المرء أن يقيم كنيسة مريم، التي كانت سابقا قاعة رياضية تابعة لنادي اسكوتلاندة الجديدة الرياضي، لتستعمل عند الضرورة، لأن كنيسة قلب – يسوع كانت تقع في مكان بعيد وكان الناس في اسكوتلاندة الجديدة وفي شيلمول وفي الجادتين الشرقية والغربية، وأغلبهم عمال في الترسانة البحرية، وموظفون في البريد وفي السكك الحديدية، قد أرسلوا عرائض لعدة سنوات إلى أوليفا، التي كان الأسقف يقيم فيها، إلى أن تم، في عهد الدولة الحرة، شراء قاعة الألعاب الرياضية وتغيير بنائها وتثبيتها وفقا للتعاليم المسيحية.

كانت طبيعة قاعة الألعاب الرياضية لكنيسة مريم رغم الصور الملونة المتعرجة وقطع الزينة، التي أخذت من أقباء الكنائس الخورية التابعة للأسقفية ومخازنها كلها، وكذلك من الملكيات الخاصة، لا تسمح بالإنكار ولا المراءاة – حتى روائح البخور والشمع لم تطغ دائما ولا بما فيه الكفاية أبدا على عفونة الرياضيين الطبشورية الجلدية للسنوات الماضية وبطولات لعبة كرة اليد في القاعة –، بل لطخت الكنيسة بشيء إنجيلي ضنين لا يمكن إلغاؤه، يتمثل في رصانة المصلّى المتزمتة.

كان مفل يؤاخيم مالكه الفولاذي سيبدو في كنيسة قلب يسوع، التي تراكمت من الآجر على الأسلوب القوطي الجديد في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت تقع إلى جانب المجموعات السكنية قرب محطة القطار بالضاحية، تجديفا غريبا على نحو كريه. أما في كنسية مريم فقد كان بإمكانه أن يحمل مفله الإنجليزي الرفيع علنا دونما حرج: فالكنيسة الصغيرة بأرضيتها المشمعة بعناية، وألواحها الزجاجية المصنفرة المربعة، التي تبدأ من منطقة قريبة تحت السقف، وبمماسكها الحديدية المجهزة بعناية في الأرضية، والتي كانت ذات مرة تمنح العقلة التماسك والأمان، وبحواملها العرضية الحديدية، رغم كونها مصبوغة بالأبيض تحت السقف المسلح الحرِش ذي الأخاديد، الذى تغطيه ألواح خشبية، كانت قد ثبتت فيها فيما سلفَ الحلقات، والارجوحة، ونصف دستة من حبال التسلق، كانت مع ذلك، رغم الجبس الملون المذهب المجسم لمعالمها الذي يقوم في كل زاوية، كنيسة صغيرة حديثة ذات برودة محايدة على نحو ما، بحيث ما كان المفل الحديدي المعلق، الذى جعله طالب في الثانية، بصفته مصليا أولا ثم بصفته متناولا للقربان، يتأرجح فوق صدره معتبرا اياه ضرورة، لم يلفت نظر حضور قداس الصباح القليلين ولا صاحب الغبطة غوزيفسكي ولا مساعده النؤوم – الذي كنته في معظم الأحيان – أثناء أداء الصلاة.

غلط! لو كنت أنا، فما كانت لتغيب عني يقينا رؤية المفل. عندما كنت أقوم بالخدمة أمام الهيكل، كنت أحاول، حتى خلال الصلاة أمام درج الهيكل، أن أحتفظ به على مرأى مني لأسباب مختلفة: لكنك أنت لم تكن تريد أن يصل الأمر إلى هذا الحد، فكنت تحتفظ بالمفل المعلق بشريط الحذاء تحت القميص، ولذلك كانت هناك بقع من الشحم تلطخ قماش قميصك بصورة لافتة للانتباه، وترسم المفل على نحو غامض. كان يُرى، من الهيكل، راكعا في المقعد الثاني من صفوف مقاعد الجهة اليسرى، يوجه صلاته بعينين مفتوحتين رماديتي اللون، فيما أعتقد، ملتهبتين في معظم الأحيان بسبب الغطس والسباحة، نحو مريم العذراء.

... وذات مرة – لم أعد أذكر في أي صيف – أكان ذلك فوق الزورق خلال

العطلة الأولى الكبرى بعد دخول رومل فرنسا بوقت قصير، أم كان في الصيف الذى أعقب ذلك؟ – في يوم حار غائم، كان ثمة ازدحام في المسبح العائلي، وبيارق متهدلة، وأجساد طافحة، وإقبال شديد على غرف المرطبات، ووقوف على بطون أقدام محترقة فوق بسط من جوز الهند أمام غرف الحمام المغلقة المليئة بالكركرة، بين الأطفال المنفلتين: منهم من تدحرج، ومن تلوث، ومن جرح في رجله، وكان من بينهم طفل اجتاز مرحلة التعهد، بلغ اليوم الثالثة والعشرين، وبقيت قامته دون قامة الكبار المروضين بعناية – راح هذا الطفل غير المؤدب، وهو في حوالي الثالثة من عمره، ينقر على طبل صفيح للأطفال بشكل خشبي رتيب، جعل فترة ما بعد الظهر تتحول إلى دكان حدادة جهنمي – عندئذ تحررنا، وسبحنا إلى زورقنا، بَدَونا في ناظور معلم السباحة من الشاطئ ستة رؤوس في الطريق، يزداد حجمها صغرا؛ واحد متقدم وهو أول من يصل إلى الهدف.

ألقينا بأنفسنا فوق المشبك وسلح النوارس، اللذين بردّتهما الرياح، ولكنهما كانا مع ذلك لا يزالان ملتهبين، ولم يعد من الممكن دفعنا إلى القيام بأية حركة، بينما كان مالكه قد غطس تحت الماء مرتين، ثم خرج منه، وقد أثقل يده اليسرى، ذلك أنه كان قد بحث في مقدم السفينة وفي حجرات أفراد الطاقم داخل شبكات النوم المعلقة المتأرجحة بتراخ أو الثابتة في مكانها، كما بحث تحتها بين أسراب من أسماك أبي شوكة المتعددة الألوان، وغابات الأعشاب البحرية، وأسماك الشلق المتطايرة، وكشط، فعثر بين الأمتعة القديمة الملوثة بالدهن على كيس، كان مرة ملكا للبحار لفيتولد دوزتسينسكي أو ليستسينسكي، وعلى وسام برونزي في حجم اليد، يظهر في جانب منه، تحت نسر بولوني رفيع، اسم صاحب الوسام وكذلك تاريخ حصوله عليه، بينما تظهر في الجانب الآخر صورة جنرال متهدل الشارب: بعد فركها قليلا بالرمل وذرور سلح النوارس أخبرتنا الكتابة المدورة على الوسام أن مالكه قد أخرج صورة المارشال بيلزودسكي إلى الهواء.

لم يكن مالكه يبحث خلال أربعة عشر يوما إلا عن الأوسمة، وقد وجد أيضا قطعة تذكارية قصديرية تشبه الطبق معلقة في قارب للسباق، يعود إلى سنة أربع وثلاثين في مرفأ مدينة غدينغن – وعثر في وسط الزورق، أمام

مستودع الآلات، في قاعة الضباط الضيقة، التي يصعب الوصول إليها، على ميدالية في حجم المارك مصنوعة من الفضة، تحتوي على خرم فضي تعلق منه، كان جانبها الخلفي مسطحا ومشحوذا خاليا من الاسم، وكان جانبها الأمامي واضح المعالم مزينا تزيينا كبيرا: كان نقشا بارزا رفيعا، يتضمن صورة مريم العذراء مع طفلها.

كان الأمر يتعلق، كما دلت على ذلك الكتابة الرفيعة أيضا، بماتكا بوسكا ستيستوخوفستا الشهيرة؛ لم يقم مالكه بصقل الفضة، وترك للميدالية ما فوقها من غبار الماضي، عندما اكتشف وهو فوق الجسر ما حمله معه من تحت الماء، فقدمنا له نحن الرمل الهش لصقلها.

ولكن بينما كنا نحن لا نزال نختصم، نريد أن نرى الفضة ملتمعة، كان هو قد ركع في ظل بيت البوصلة، وأخذ يحرك لقيته يمنة ويسرة أمام ركبتيه العظميتين إلى أن أصبحت في الزاوية المناسبة لعينيه اللتين كان قد خفّضهما من أجل أداء الصلاة. وضحكنا نحن عندما ضرب الصليب بأنامله المرهقة، وهو مرتعدٌ مزرقٌ، وحاول أن يحرك شفتيه الطائرتين حركة تتناسب مع صلاته ويردد كلمات لاتينية خلف بيت البوصلة. لا أزال إلى اليوم أعتقد أنه مقطعه المفضل الذي لم ينطق به عادة بصوت مرتفع إلا يوم الجمعة قبل حلول أحد السعف: عذراء العذارى المجيدة - لا تنبذيني.

وفيما بعد، عندما منع مدرسنا كلوزه مالكه من حمل الميدالية البولونية في عنقه بصورة علنية وفي أثناء الدرس - كان كلوزه مدير المؤسسة، على أنه نادرا ما كان يدرس وهو يرتدي الزي الرسمي -، كان مالكه يكتفي بالتميمة الصغيرة المعتادة والمفل الحديدي تحت تفاحة آدم، التي كانت تعتبر بالنسبة للقط فأرا.

كان يعلق ميدالية العذراء الفضية بين الوجه البرونزي لبيلسودسكي وبين صورة في حجم البطاقة البريدية للقائد بونته، بطل مدينة نارفيك.

-٢-

هل كان هذا التفاني في العبادة لهوا؟ كان بيتكم يقع في الجادة الغربية. وكانت فكاهتك، إن كانت لك فكاهة، غريبة. كلا، كان بيتكم يقع في الجادة الشرقية. حقا، لقد كانت الشوارع كلها متشابهة في الأحياء السكنية. مع ذلك كان عليك ألا تأكل سوى شريحة الخبز بالزبدة، فكنا نضحك، وتنتقل عدوى الضحك من بعضنا إلى البعض الآخر. كنا نتعجب بمجرد أن نضحك منك. وعندما سأل المدرس برونيس كل تلاميذ صفنا عن مهنهم في المستقبل، أجبته أنت – كنت آنئذ تعرف السباحة – عن ذلك قائلا:

– سأصير ذات يوم مهرجا، أضحك الناس.

لم يضحك أحد منا في غرفة الدرس المربعة – وقد شعرت أنا بالفزع، لأن وجه مالكه كان قد اكتسى كثيرا من الجدية عندما أعلن عن رغبته في أن يصبح مهرجا في سيرك أو في أي مكان آخر، بحيث كان هناك ما يدعو إلى الخوف من أنه سيضحك الناس فيما بعد على نحو مروع، ولو كان ذلك من خلال العبادة العلنية لمريم العذراء بين فقرة الحيوانات المفترسة وألعاب أراجيح السرك المدهشة؛ لكنك كنت جادا في صلاتك على ظهر الزورق – أم تراك كنت تريد المزاح؟

كان يسكن في الجادة الغربية وليس في الجادة الشرقية. كان البيت يقوم إلى جانب وبين وفي مواجهة بيوت متماثلة، لا تختلف إلا من حيث أرقامها، وربما بفضل ستائرها مختلفة النقوش أو ذات الطيات البارزة، ولكنها لم تكد تختلف من حيث نباتاتها المتنافرة في حدائقها الأمامية الضيقة. وكانت هناك أيضا لكل حديقة أمامية بيوت للطيور موضوعة فوق الصواري وأشياء للزينة لامعة. إما ضفادع، فطريات عيش الغراب أو تماثيل أقزام. أقعت أمام بيت مالكه ضفدعة خزفية، إلا أنه كانت هناك أيضا ضفادع خزفية خضراء تقبع أمام البيت التالي والبيت الذي يليه.

باختصار، كان الرقم أربعة وعشرين، وكان مالكه يسكن، عندما يقبل

المرء من ناحية طريق الذئب، في البيت الرابع على الجهة اليسرى من الشارع. كانت الجادة الشرقية تفضي، وكذلك الجادة الغربية الموازية لها، إلى الزاوية اليمنى من طريق الدّببة، الذى كان يسير بموازاة طريق الذئب. فمن انطلق نازلا من طريق الذئب عبر الجادة الغربية، كان يرى فوق السقوف المغطاة بالآجر الأحمر على اليد اليسرى الجهة الأمامية والجهة الغربية لبرج له سقف على شكل قبة. كان من ينزل في نفس الاتجاه عبر الجادة الشرقية يرى من فوق السقوف على اليد اليمنى الجهة الأمامية والشرقية لبرج الأجراس نفسه. ذلك أن كنيسة المسيح كانت تقع تماما بين الجادة الشرقية والجادة الغربية في الجهة المقابلة من طريق الدببة وتعلن من خلال أربعة عقارب تحت السقف الأخضر المقبب الوقت للحي كله، من ميدان – ماكس – هالبه إلى كنيسة مريم الكاثوليكية، التي لم تكن لها ساعة، من طريق ماغديبورغ إلى طريق بوسادوفسكي قرب شيلْمول، وتمكن العمال البروتستانتيين وكذلك الكاثوليكيين، والموظفين والبائعات، وتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية على الدوام من الوصول في الوقت المحدد إلى أماكن العمل أو إلى المدرسة دون تقسيم طائفي.

كان مالكه يرى من غرفته صفحة أرقام الجانب الشرقي من البرج. وكان قد أثث حجرته في جملون السقف، بين الجدران المائلة قليلا، وحصنها ضد الأمطار والبرد فوق شعره المفروق في الوسط: حجرة تحت السطح مليئة بالأمتعة العتيقة المعتادة لدى الشباب، من مجموعة الفراشات إلى صور بريدية للممثلين المفضلين لديه، والطيارين المقاتلين من أصحاب الأوسمة وجنرالات الدبابات، وبين ذلك صور زيتية غير مؤطرة لمادونا السيكستينية (نسبة إلى سيكستوس الرابع) بملكين مكتنزي الوجنتين في الحاشية السفلى من الصورة، والميدالية المذكورة لبيلسودكسي، والتميمة المقدسة الورعة من تشانشتوخاو إلى جانب صورة قائد المدمرة نارفيك.

لفتت انتباهي في الزيارة الأولى مباشرة البومة البيضاء المحشوة. لم أكن أسكن بعيدا، إذ كنت أسكن في الجادة الغربية، مع ذلك لا ينبغي أن يدور الحديث حولي، وإنما حول مالكه أو حول مالكه وحولي، ولكن موجهين النظر

إلى مالكه دوما، فله هو فرق في وسط شعره، وهو الذي يرتدي حذاء عاليا، ويعلق حول عنقه مرة هذا الشيء وأخرى ذاك الشيء الآخر، ليصرف انتباه القط الخالد عن الفأر الخالد، هو الذي ركع أمام هيكل مريم، وكان الغطاس صاحب حرقة الشمس الجديدة، وكان يتقدمنا بمسافة دائما، حتى ولو كان التشنج يعتريه بشكل كريه، وكان يريد، وهو لم يكد يتعلم السباحة، أن يكون ذات يوم بعد المدرسة وما الى ذلك مهرجا في السيرك يضحك الناس.

كان للبومة البيضاء أيضا مفرق الوسط المتسم بالجدية، وكانت تظهر، مثل مالكه، ملامح المخلِّص المتألمة الحازمة إلى حد ما، وكأنما كان يثقبها وجع الأسنان من الداخل. كان والده قد ترك له الطير المحنط بشكل جيد والمرسوم بشكل ناعم، تقبض مخالبه على غصن شجرة بتولا.

كان وسط الغرفة بالنسبة إلي، أنا الذى كنت أجهد نفسي كي أتجاهل البومة البيضاء ولوحة العذراء الزيتية وكذلك القطعة الفضية المجلوبة من مدينة تشينشتوخاو، ذلك الحاكي الذى جاء به مالكه من الزورق بعد مجهودات كبيرة بذلها في أعمال صغيرة. لم يجد تحت أثرا لأية اسطوانة. من المؤكد أنها كانت قد انحلت وتلاشت. أما ذلك الصندوق الذى كان له مقبض للادارة وذراع للإبرة فقد عثر عليه في تلك الحجرة من حجر الضباط، التي منحته أيضا الميدالية الفضية وعددا من القطع الأخرى. كانت قمرة المركب تقع في وسط الزورق، وكان هذا يعني أنه لم يكن من الممكن لنا نحن، وكذلك الأمر لهوتن زونتاغ، الوصول إليها. ذلك أننا كنا نكتفي بالدخول إلى مقدم السفينة، ولم نكن نجرؤ على تجاوز الحاجز العازل المعتم، الذى لا تكاد الأسماك تتحرك داخله، للوصول إلى مكان الآلات والقمرات الضيقة المجاورة له.

قبل أن تنتهي العطلة الصيفية الأولى فوق الزورق بوقت قصير، أحضر مالكه الحاكي – كان من صناعة ألمانية مثل الجهاز اليدوي لإطفاء الحرائق – بعد حوالي اثنتي عشرة غطسة، وهو يحركه مترا بعد آخر في اتجاه مقدم الزورق إلى أن وصل به إلى الكوة المؤدية إلى السطح، ورفعه في النهاية بمساعدة الحبل نفسه، الذى رفع به الجهاز اليدوي لإطفاءالحرائق، إلى

الهواء وحمله إلينا فوق الجسر.

كان علينا أن نصنع من الخشب والفيلين العائمين نحونا مشحوفا لحمل الصندوق الذى كان ذراعه قد اعتراه الصدأ، إلى البر. سحبناه بالتناوب. ولم يشارك مالكه في السحب.

بعد أسبوع كان الحاكي ينتصب في حجرته وقد تم إصلاحه ودهن ولمعت أجزاؤه المصنوعة من المعدن. كان هناك لباد جديد يشد قرص الأسطوانة. ترك الجهاز، بعد أن شغله أمامي، يدور بقرص فارغ أخضر. كان مالكه واقفا خلف ذراعيه المشبكتين بجانب البومة البيضاء على غصن شجرة البتولا. كان فأره هادئا. كنت واقفا وظهري إلى اللوحة الزيتية السيكستينية، أنظر إلى قرص الأسطوانة الفارغة المهتز قليلا أو أسرح نظري من نافذة الحجرة فوق سقوف القرميد الغريبة في اتجاه كنيسة المسيح، التي كانت لها ميناء الساعة في الجهة الأمامية، وميناء الساعة في الجهة الشرقية من البرج المقبب. قبل أن تدق الساعة السادسة قرقر الحاكي المجلوب من زورق البحث عن الألغام قرقرة متصلة. كان مالكه قد أدار الحاكي عدة مرات وطلب مني أن أشاركه في طقسه الجديد بنفس الانتباه: أصوات مختلفة ذات درجات، ناجمة عن دوران القرص الفارغ. لم تكن لدى مالكه في ذلك الحين اسطوانات.

كانت هناك كتب على ظهر السفينة الطويل المعوج. وكان مالكه يقرأ كثيرا حقا، ويقرأ الكتب الدينية أيضا. لا بد أن أذكر أنه كان هناك أيضا، إلى جانب نباتات الصبار الموضوعة على سدة النافذة، إلى جانب نموذج لغواصة من فئة – فولف (الذئب)، إلى جانب نموذج للسفينة الحربية غريلّه (الجندب) وكوب للماء، كان موضوعا إلى جانب حوض الغسل، كان دائما كدرا، في قعره طبقة من رواسب سكرية بسمك الإبهام. كان مالكه يخلط في ذلك الكوب في الصباح، ومن غير أن يزيل رواسب اليوم الماضي، الماء بالسكر بعناية ليجعل منهما صبغة، تمنح شعره الناعم المنساب بطبيعته التماسك والمتانة. وقد عرض علي مرة هذه الصبغة فمشطت شعري بالماء المسكر. بقيت تسريحة الشعر بعد استعمال المادة المثبتة زجاجية متجمدة حقا، واستمرت

حتى المساء: لكن جلد رأسي كان يحكني، وكانت يداي تتدبقان، مثل يدي مالكه، عندما أمررهما فوقه فاحصا، ولكن لعلي تصورت في وقت لاحق أن يدي قد تدبقتا به وهما لم تتدبقا على الإطلاق.

كانت أمه وأختها الكبرى تسكنان تحته في ثلاث غرف، لم تستعملا منها سوى اثنتين. كانتا تلتزمان الصمت، وعندما يكون في البيت، كانتا دائما خائفتين وفخورتين بالفتى، لأن مالكه كان يعتبر، حسب شهاداته، تلميذا جيدا، حتى لو لم يكن الأول بين أقرانه. كان يكبرنا بسنة واحدة، وهذا ما كان يقلل من قيمة منجزاته المدرسية، لأن أمه وخالته لم ترسلا فتاهما إلى المدرسة الابتدائية، باعتباره حسب أقوالهما ضعيفا عليلا، إلا بعد مرور سنة على موعد دخوله إليها.

لكنه لم يكن طموحا، كان يعكف على كتبه باعتدال، ويترك لكل تلميذ أن ينقل عنه، ولم يبلِّغ عن أحد، ولم يظهر ولعًا بالتفوق إلا في حصة الألعاب الرياضية، وكان ينفر بشكل واضح من حماقات تلاميذ السنة الثالثة المعتادة بالمدرسة الثانوية، وقد تدخل عندما أحضر هوتن زونتا غ واقيا كان قد وجده بين مقاعد حديقة شتيفن، حمله مغروزا في غصن إلى غرفة الدرس وعلقه فوق مقبض بابها. أُريدَ الايقاع بمدرس الثانوي ترُويغه، وهو معلم نصف أعمى، كان من المفروض أن يحال على التقاعد. نادى أحدهم في الممر:

– ها هو قادم!

عندها نهض مالكه من مقعده، وسار ببطء وأبعد الواقي من مقبض الباب بورق لف الطعام.

لم يعترض أحد على ذلك. لقد أرانا مرة أخرى كيف يكون السلوك القويم؛ والآن يمكنني القول: بما أنه لم يكن طموحا، وكان يعكف على كتبه بصورة معتدلة، ويترك الجميع ينقلون عنه، ولم يظهر أية رغبة في التفوق إلا في حصة الألعاب الرياضية، ولم يجنح إلى المشاركة في تلك الأعمال اللعينة، فقد جعل ذلك منه من جديد مالكه المتمين، الذى كان يجمع الاستحسان لما يقوم به بطريقة مختارة حينا، متشنجة حينا آخر؛ فقد كان في الآخر يريد العمل فوق الحلبة، أو فوق خشبة المسرح إن أمكن. وكان ينال، حين يتمرن كمهرج على

إبعاد الواقيات اللزجة، الإعجاب في صورة همهمة، فقد كاد يكون مهرجا، حين كان يقوم بحركات رياضية على العقلة ويدير العذراء الفضية في عفونة قاعة الألعاب الرياضية. لكنه كان يجني معظم الاستحسان والإعجاب خلال العطلة الصيفية على الزورق الغريق، مع أننا لم نكن نستطيع أن نتصور أن غطسه الجنوني سيكون فقرة مؤثرة في السيرك. ولم نكن نضحك أبدا عندما كان ينزل المرة بعد المرة إلى الزورق وهو أزرق اللون مرتعد الأوصال، ويحضر منه شيئا حتى يستطيع أن يرينا إياه. وكنا في كل مرة نفكر ونقول في دهشة:

– رائع، يا هذا، عظيم! وددت لو امتلكت أعصابك. أنت كلب مجنون، يا يؤاخيم. ترى كيف استطعت أن تنزع هذا من موضعه؟

كان الإعجاب به يريحه ويهدئ مُتَوثِّبه في عنقه؛ على أن هذا الإعجاب به كان يربكه في آن واحد، ويعطي للمتوثب نفسه دافعا جديدا. كان يشير في أغلب الأحيان بأنه لا يقيم وزنا لما ناله من إعجاب جديد. لم يكن مدعيا؛ أنت لم تقل أبدا:

– قلدني في هذا!

أو

– فليحاول أحدكم مرة تقليدي في هذا!

أو

– لم يتمكن أي واحد منكم حتى الآن أن ينزل مثلما نزلت أنا قبل الأمس أربع مرات تحت الماء، لا تفصل بينها سوى فترات زمنية قصيرة، من وسط القارب حتى مطبخ السفينة وأخرجت العلبة المحفوظة. من المؤكد أنها علبة فرنسية، فقد كانت بها أفخاذ الضفادع، طعمها يشبه طعم لحم العجل إلى حد ما، أما أنتم فقد كنتم خائفين، حتى إنكم رفضتم أن تذوقوها بعد أن أكلت أنا نصفها. وأخرجت كذلك علبة أخرى، وقد وجدت معها أيضا فتاحة، ولكن العلبة الثانية كانت فاسدة: لحم مملح.

كلا، لم يتكلم مالكه هكذا أبدا. لقد كان يقوم بأشياء غير عادية، كان مثلا يستخرج كثيرا من العلب المحفوظة، التي كانت، حسب عناوينها المرشومة،

ذات أصل إنجليزي أو فرنسي، من مطبخ السفينة السابق، حتى إنه أحضر منها فتاحة يمكن استعمالها إلى حد ما، وفتح بها العلبة أمام أعيننا في صمت، وأكل أفخاذ الضفادع المزعومة، فكانت لتفاحة آدم تسلقاتها عند المضغ - نسيت أن أذكر أن مالكه كان بطبيعته أكولا، ومع ذلك احتفظ بنحافة جسمه - ومد بالعلبة نحونا من غير إلحاح، يدعونا إلى أخذها منه، عندما أصبحت نصف فارغة. فشكرناه على ذلك، وقد كان على فينتر أن يتسلل أثناء التفرج عبر الركائز الفارغة في اتجاه باب الميناء وراح يحاول التغلب على غثيانه فترة طويلة دون فائدة.

لقد نال مالكه بعد الوجبة التوضيحية الإعجاب بطبيعة الحال، وهو يومئ بالنفي تعبيرا عن لامبالاته، وراح يطعم النوارس، التي كانت قد اقتربت منه كثيرا أثناء تناوله لطعامه، بقايا أفخاذ الضفادع واللحم المملح. وفي النهاية رمى بالعلب ومعها النوارس خارج الزورق، ومسح الفتاحة بالرمل. كانت في نظره الوحيدة، التي تستحق أن يحتفظ بها لنفسه. كان يحملها في عنقه، مثلما يحمل المفل الإنجليزي، وهذه التميمة أو تلك، على الدوام وفيما بعد بصورة غير منتظمة، بل ربما فقط، عندما كان يبحث عن العلب المحفوظة في مطبخ سفينة البحث عن الألغام البولونية - لم تصب معدته بأي أذى أبدا - كان يحمل تلك الفتاحة المربوطة بخيط حول عنقه تحت قميصه بجانب الأشياء القديمة الأخرى إلى المدرسة - وكان يحملها معه حتى إلى قداس الصباح في كنيسة مريم؛ فما من مرة ركع فيها قرب مقعد التثبيت، ووضع رأسه في قذاله، وأخرج لسانه، وترك صاحب الغبطة غوزينسكي يطعمه القربان، إلا تطلع مساعد القسيس في القداس إلى ياقة قميصه: كانت الفتاحة تتأرجح في عنقك إلى جانب صورة مريم العذراء والمفك المدهون؛ وكنت معجبا بك دون أن تعلق على ذلك أهمية. كلا، لم يكن مالكه طموحا.

كان طرده أيضا من منظمة الشباب في نفس السنة، التي تعلم فيها السباحة، وألحاقه بشبيبة هتلر، لأنه كان قد رفض في كثير من أيام الآحاد أن يبدأ خدمته في الصباح ويقود جماعته - لقد كان قائد جماعة - إلى احتفال الصباح في غابة وهدة بيشكن، قد جلب له، على الأقل في صفنا،

الإعجاب الكثير. تلقى تصريحاتنا كالعادة على نحو فيه من اللامبالاة بقدر ما فيه من الارتباك. وكان يتخلف، بصفته عضوا في شبيبة هتلر، باستمرار عن العمل في صبيحة أيام الآحاد. إلا أن تغيبه لم يلفت النظر في هذه المنظمة التي كانت تحتضن جميع الشبان ابتداء من سن الرابعة عشرة، ذلك أن شباب هتلر كان يقاد بشكل أكثر تخاذلا من شباب المنظمة، كان من الممكن أن ينظم إليه أشخاص مثل مالكه، يضاف إلى ذلك أنه لم يكن معاندا بالمعنى المعروف، فكان يزور أثناء الأسبوع أمسيات بيوت الطلبة والمدرسة بشكل منتظم، وكثيرا ما كان يسهم أيضا في حملات جمع الأشياء القديمة، وجمع مساعدات الشتاء، طالما لم يكن لضجيج العلب مساس بقداس الصباح في صبيحة يوم الأحد. وبقي مالكه ضمن منظمة الشباب الحكومي، سيما وأن تحويله من منظمة الشباب إلى شبيبة هتلر لم يكن حالة خاصة، عضوا غير معروف وعديم الطابع، بينما التصقت به في مدرستنا، بعد الصيف الأول فوق الزورق، سمعة اسطورية خاصة، لم تكن رديئة ولا كانت جيدة.

من الواضح أن ثانويتنا، مقارنة بمنظمة الشباب المذكورة، كانت دوما تعني بالنسبة إليك، بتقاليدها الجامدة حينا، والمحببة حينا آخر، وبطاقيات تلاميذها الملونة، وبروح المدرسة الذى كثيرا ما كان يستشهد به عندما يتعلق الأمر بما ينتظر منا، على النحو الذى غذيتها به أنت حتما، أكثر من ثانوية عادية يمكن أن تعادل بها.

– ماذا جرى له؟

– أقول إن لديه لوثة.

– لعل لذلك علاقة بموت أبيه.

– وهذه الأطمار في عنقه؟

– وهو يركض باستمرار لأداء الصلاة.

– مع ذلك أقول إنه لا يؤمن بشيء.

– هو في ذلك واقعي جدا.

– والميدالية وهذا الذى يضاف إليها الآن أيضا

– اسأله أنت، فأنت الذى جعل القط آنئذ...

وحاولنا حل اللغز ولم نستطع فهمك. قبل أن تتعلم السباحة، كنت عدَماً، ينادى عليه من حين لآخر، وكان يجيب في الأغلب إجابات صحيحة، ويدعى يؤاخيم مالكه. مع ذلك أعتقد أننا كنا نجلس على قمطر واحد فترة من الزمن في السنة السادسة أو بعدها، على أية حال كان ذلك قبل محاولاتك الأولى في السباحة؛ أو كان مكانك خلفي أو على نفس المستوى معي في القسم الأوسط، بينما كنت أنا جالسا في القسم القريب من النافذة إلى جانب شيلينغ. قيل أنه كان عليك أن تحمل النظارات حتى الصف الخامس؛ لم أنتبه أنا إلى ذلك. لم ألاحظ أيضا حذاءك العالي ذا الرباط، لم ألاحظه إلا عندما أصبحت تسبح سباحة حرة، وبدأت تحمل في عنقك رباط الحذاء المستعمل في الأحذية العالية. هزت العالم في ذلك الحين أحداث كبيرة، لكن تأريخ مالكه كان يعني: قبل السباحة الحرة، بعد السباحة الحرة، وعندما بدأت الحرب في كل مكان، ليس دفعة واحدة، وإنما كان ذلك تدريجيا، أولا في فيستربلاته، ثم في الإذاعة، وبعد ذلك في الصحف، لم يحدث له شيء ذو بال، هو تلميذ المدرسة الثانوية، الذى لم يكن يعرف السباحة ولا قيادة الدراجة؛ كان زورق البحث عن الألغام من صنف سزايكا، الذى سيقدم له إمكانيات الظهور، يلعب وحده دورا حربيا في شَرم بوتسيغ، وفي الخليج وفي مرفأ هيلا لصيد السمك ولو كان ذلك لبضعة أسابيع فقط.

لم يكن الأسطول البولوني كبيرا، ولكنه كان طموحا. كنا نعرف عن ظهر قلب وحداتهم الحديثة التي نزل معظمها إلى البحر في المصانع الإنجليزية أو الفرنسية، وكنا نستطيع أن نعرف تجهيزاتها بالمدافع، وحمولتها بالأطنان، وسرعتها بالعقد دون خطأ، كما كنا نستطيع أن نعد تقريبا أسماء كل السفن الإيطالية الخفيفة، والسفن والبواخر المدرعةالبرازيلية القديمة.

تفوق مالكه فيما بعد في هذا العلم أيضا وصار ينطق بطلاقة وبدون توقف بأسماء المدمرات اليابانية، من الحديثة من نوع كوزامي، التي صنعت في سنة ثمان وثلاثين، إلى الزوارق الحربية البطيئة من نوع أصاغاو، التي تم تحديثها عام ثلاثة وعشرين، ويقول بطلاقة ودون أن يتلعثم:

– هومودوكي، ساتوكي، يودوكي، هوكازه، نداكازه وأويته.

من الممكن الإتيان على ذكر المعلومات المتعلقة بوحدات الأسطول البولوني بسرعة: كان هناك المدمرتان «بليسكافيكا» و«غروم»، وزوارق من فئة الألفي طن، تسير بسرعة تسع وثلاثين عقدة، ولكنها تخلت عن المواجهة قبل يومين من نشوب الحرب، واتجهت إلى الموانئ الإنجليزية وضمت إلى الأسطول الإنجليزي. – لا تزال المدمرة «بليسكافيكا» ترسو إلى اليوم في غدينغن، بوصفها متحفا حربيا عائما حيث يزورها تلاميذ المدارس.

وأخذت المدمرة «بورزا» نفس الاتجاه إلى إنجلترا، وهي زورق من فئة ألف وخمسمائة طن، تسير بسرعة ثلاث وثلاثين عقدة. أما الغواصات البولونية الخمس فلم تنجح منها في الوصول إلى المرافئ الإنجليزية سوى الغواصتين «فيلك» و«أورزل» بعد رحلة خطرة بدون خريطة بحرية وبدون قائد. أما الزوارق «ريس» و«زبيك» و«سيمب»، فقد تم احتجازها في السويد.

لم يكن يرى في مرافئ مدن غدينغن، وبوتسيغ، وهيسترنيست، وهيلا عند بداية الحرب سوى طراد فرنسي قديم، يستعمل بمثابة مدرسة بحرية ومسكن، وكذلك «غريف» واضع الألغام، وهو من فئة ألفين ومائتي طن، مجهز بالمدافع تجهيزا قويا، صنع في الترسانة البحرية نورماند، لو هافر، يحمل فوق ظهره بشكل منتظم ثلاثمائة لغم. بعد ذلك كانت قد بقيت قوارب «فيشر» كمدمرات وحيدة، مجموعة من زوارق الطوربيد القديمة التابعة للبحرية القيصرية؛ وكانت زوارق البحث عن الألغام الستة من فئة سزايكا، التي تسير بسرعة ثماني عشرة عقدة، مجهزة بمدفع أمامي من عيار سبعة فاصل خمسة وأربع بنادق رشاشة مغروزة في حلقات متحركة، وتحمل حسب المعلومات الرسمية عشرين لغما، كانت تضع الألغام وتنزعها.

وكان زورق من هذه الزوارق ذات المائة وخمسة وثمانين طنا قد صنع من أجل مالكه بالذات.

واستمرت الحرب البحرية في خليج دانتسيغ من أول سبتمبر إلى الثاني من أكتوبر وأظهرت بعد استسلام شبه جزيرة هيلا ما يلي، وهي نتيجة ظاهرية لا غير: كانت الوحدات البولونية «غريف»، و«فيشر»، و«بلطيق» وكذلك ثلاثة زوارق من فئة سزايكا، «ميفا»، و«ياشكولكا» و«سزابلا» قد أحرقت وأغرقت

في الميناء؛ وألحقت الأضرار بالمدمرة الألمانية «ليبريشت ماس» بواسطة الإصابات المدفعية، وسار زورق البحث عن الألغام م ٨٥ شمال شرقي هاسترنيست فوق لغم بولوني مضاد للزوارق، وغرق وفقد ثلث طاقمه.

لم تتجاوز الغنائم الزوارق الثلاثة من فئة سزايكا، التي ألحقت بها أضرار طفيفة. وبينما أصبح من الممكن بعد حين استعمال الزوارق «زوراو» و«سزايكا» تحت اسم «أوكهوفت» و«فيستربلاته»، بدأ الزورق الثالث «روبيتفا» عندما سحب من هيلا إلى نويفاسر ينضح ماء ويغرق، وينتظر مالكه؛ ذلك أنه كان هو الذى أخرج في الصيف التالي اللافتة الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصفر، التي نقش عليها اسم «روبتفا." وقيل فيما بعد أن ضابطا بولونيا ورئيس النوتية، كان عليهما أن يجذفا الزورق تحت الحراسة الألمانية، هما اللذان جعلا مياه البحر تغمره على غرار النموذج المعروف سكابا فلاو.

لهذه الأسباب أو تلك كان قد غرق بجانب القناة ومنار نويفارفاسر، ولم يرفع، مع أنه كان قد رسا بشكل مناسب فوق إحدى الكوم الرملية تحت الماء، وإنما ظل ينتصب عاليا أثناء سنوات الحرب التالية بمنشآته العلوية، وببقايا سوره وثقوب التهوية ومساند المدفع المنزوع، بشكل غريب في البداية، ثم بشكل مألوف، ومنحك، أنت يا يؤاخيم مالكه، هدفا؛ من ذلك مثلا البارجة «غنايزآو»، التي أغرقت في فبراير عام خمسة وأربعين أمام مدخل مرفأ غدينيا، أصبحت مقصدا للتلاميذ البولونيين؛ انه سيبقى غير مؤكد ما إذا كان بين الغطاسين المنظفين للبارجة «غنايزآو» من بين الشباب البولوني شخص يغطس بجنون تحت الماء مثلما يفعل ذلك في البيت.

لم يكن مالكه جميلا. كان يحسن به أن يجري عملية جراحية لتفاحة آدم. من الممكن أن يكون الأمر كله كامنا في الغضروف.

لكن تفاحة آدم كان لها ما يناسبها. ثم إن المرء لا يستطيع كذلك أن يقدم البرهان على كل شيء بناء على النّسَب القائمة. أما روحه، فلم تنكشف لي أبدا. ولم أسمع أبدا فيم يفكر. وفي النهاية بقي عنقه والقوى الكثيرة المضادة له. كذلك حمله رزما من الشطائر إلى المدرسة وإلى المسبح واستهلاكه شرائح الخبز المدهونة بالسمن النباتي أثناء الدرس قبل السباحة بفترة قليلة، يمكن أن يكون إشارة أخرى وحسب إلى الفأر، فقد كان الفأر يمضغ معه ولا يعرف الشبع.

وبقيت الصلاة في اتجاه هيكل مريم. لم يكن المصلوب يهمه كثيرا. وكان من اللافت للنظر أن ذلك الصعود والهبوط في عنقه لم يختف حقا أو هو لم يتوقف، عندما كان يسند رؤوس أصابعه إلى بعضها، غير أنه كان يجرض بريقه عند الصلاة بحركة بطيئة واستطاع عن طريق وضع يده بحركة مبالغ فيها،أن يصرف الانتباه عن مصعد، كان يتحرك دائما فوق ياقة قميصه بملحقاته من الخيوط وأربطة الأحذية والسلاسل الصغيرة.

وفيما عدا هذا لم يكن له حوادث كثيرة مع الفتيات. ترى هل كانت له أخت؟ حتى بنات عمي لم يكن في وسعهن مساعدته. لا تؤخذ علاقته بتولا بوكريفكا بعين الاعتبار، كانت من نوع خاص، تصلح أن تكون فقرة في السيرك - ألم يرد أن يصبح مهرجا -، لأن تولا، وهي فتاة قصيرة رقيقة الساقين، كان يمكن أن تكون صبيا تماما. وعلى أية حال لم تشعر الفتاة الضعيفة، التي كانت تسبح معه وفقا مزاجها، في صيفنا الثاني فوق الزورق - بالحرج أبدا حين كنا نخلع سراويل السباحة محافظة عليها، ونستلقي عراة فوق المشبك ولم نعرف أو لم نعرف إلا قليلا ماذا يسعنا أن نفعل.

كان من المستطاع رسم وجه تولا بنقطة فاصلة شرطة. كان ينبغي أن

يكون لها في الحقيقة غشاء بين أصابع قدميها، فقد كانت تضطجع بخفة إلى حد كبير. كانت تفوح منها دائما، حتى فوق الزورق، رغم أعشاب البحر، والنوارس، والمشبك الحامض، رائحةُ غراء النجار، لأن أباها كان يتعامل مع الغراء في ورشة نجارة عمها. كانت تتكون من الجلد والعظام والفضول. هادئة كانت تنظر من فوق ذقنها الذي تسنده بيدها، حين كان فينتر أو إش لا يستطيعان تجنب الأمر، كانت تجلس وقد أحنت عمودها الفقري قبالة فينتر، الذي كان يحتاج إلى وقت طويل للانتهاء من استمنائه، وتقول له متذمرة:

– إن الأمر ليطول معك، يا هذا!

وعندما نزل ماء الصلب أخيرا، وصفق فوق المشبك، بدأت حقا تتململ، وألقت بنفسها على بطنها، وضيقت عينيها الشبيهتين بعيني الفأر، وشرعت تنظر وتنظر، تريد أن تكتشف شيئا لا أدري ما هو، قرفصت ثانية، ركعت، ثم وقفت بساقين متقاطعين، فوق ماء الصلب، وبدأت تحرك بإصبع قدمها إلى أن تحول إلى زبد أحمر:

– رائع، يا هذا! افعل ذلك الآن، أنت يا أتسه!

لم تشعر تولا بالملل من هذا الاستمناء – وكان يتم حقيقة على نحو بريء – حقا. كانت تتوسل إلينا بصوت أخن:

– افعل ذلك. من لم يفعل ذلك اليوم بعد؟ إنه دورك الآن.

وكانت تجد دائما بلداء وطيبين، يبدأون بالعمل من أجل أن يكون لها ما تشاهده، حتى لو لم يكونوا راغبين في ذلك. وكان الوحيدَ، الذي لم يشارك فيها، إلى أن وجدت تولا الكلمة التي حركته بها، هو – ولهذا يتم هنا وصف هذه الأولمبيادة – السباح والغطاس الكبير يؤاخيم مالكه. فبينما كنا نقوم جميعا بذلك العمل، الذي ورد ذكره في الإنجيل، فرادى أو – كما يسمى في استمارة أسئلة الاعتراف – متعددين، كان مالكه يبقى دائما في لباس السباحة، ويجهد نفسه في النظر في اتجاه هيلا. كنا متأكدين من أنه كان يمارس نفس الرياضة اليدوية في البيت، في غرفته بين البومة الثلجية وتمثال السيدة العذراء السيكستيني. خرج في تلك اللحظة من تحت الماء، وكان

يرتعد كالعادة، ولم يحمل معه شيئا، يمكنه أن يرينا إياه. كان شيلينغ قد استمنى مرة أخرى من أجل تولا. ودخلت الميناء سفينة ساحلية ذات محرك بقوتها الخاصة. وتوسلت إليه تولا:

– افعل ذلك مرة أخرى!

ذلك لأن شيلينغ كان من بيننا أكثر من يفعل ذلك. لم تكن هناك أية سفينة في الميناء. فاستمهلها شيلينغ:

– ليس بعد السباحة. سأفعل ذلك غدا مرة أخرى.

فاستدارت تولا على عقبها، وتأرجحت فوق أصابع رجليها المنفرجة قبالة مالكه، الذى كان يحدث ضجة خلف بيت البوصلة كما يفعل دائما، ولكنه لم يكن قد جلس بعد. وغادرت الميناء باخرة جرارة ذات مدفع أمامي.

– أتستطيع هذا أيضا؟ افعله! أم تراك لا تستطيع؟ لا تريد؟ لا يجوز لك؟

أخرج مالكه نصفه من الظل وضرب بباطن كفه وبظهر يده وجه تولا الصغير المرسوم بشكل مضغوط. فاضطربت تفاحة آدم في عنقه. حتى المفل جن جنونه. لم تبك تولا ولم تسقط طبعا أية دمعة، وراحت تضحك متذمرة بفم مغلق، وتكورت أمامه، وأدارت أعضاءها المطاطية مشكلة جسرا، وراحت تنظر عبره من تحت ساقيها المنفرجتين في اتجاه مالكه، وكان قد عاد إلى الظل ثانية – واستدارت الجرارة نحو الشمال الغربي – إلى أن قال لها:

– حسنا. من أجل أن تكفي عن الكلام.

وفي الحين تخلت تولا عن جسرها، فرفصت بشكل عادي متربعة، عندما أنزل مالكه لباس السباحة حتى ركبتيه. فاندهشنا كما يندهش الأطفال في مسرح للعرائس: بضع حركات قصيرة من مرفقه الأيمن، انتصب قضيبه بضخامة، حتى إن حشفته برزت من ظل بيت البوصلة وصارت في الشمس. وحين شكلنا جميعا نصف دائرة، انسحبت لعبة مالكه القادرة على الوقوف دائما إلى الظل من جديد، وسألته تولا:

– هل أستطيع أن ألمسه بسرعة، بسرعة وحسب؟

فأومأ مالكه بالموافقة وترك يده تسقط، ولكنه أبقاها على شكل مقبض. وبدت يدا تولا المخدوشتان أبدا ضائعتين في ذلك الشيء، الذى وسع من

مداه وحجمه بفعل أناملها المختبرة، ونفخ عروقه وحرك حشفته.

صاح يورغن كوبكا:

– قيسيه!

كان على تولا أن تفرج يدها اليسرى كاملة مرة وبصورة مقتصرة مرة أخرى. وهمس واحد ثم آخر:

– ثلاثون سنتمترا على الأقل.

لم يخل هذا من المبالغة طبعا. وكان على شيلينغ، الذى كان له بيننا أطول مجذاف، أن يخرج قضيبه هو الآخر ويوقفه ويضعه إلى جانبه: كان قضيب مالكه أولا أضخم، وثانيا أطول بمقدار علبة عود الثقاب وكان مظهره ثالثا أكثر نموا وأكثر خطورة وجدارة بالعبادة!

لقد أرانا ذلك مرة ثم مرة أخرى بعد قليل حين استحلب مرتين متتاليتين – كما كنا نسمي ذلك – نخلة قضيبه. وقف مالكه، وركبتاه ممدودتان قليلا، على مقربة من سور المركب خلف بيت البوصلة، ينظر في جمود باتجاه عوامة إرشاد السفن في نويفارفاسر، وكاد يكون خلف دخان الجرارة البحرية المختفية، ولم يدع زورق الطوربيد من فئة النورس الداخل إلى الميناء يلهيه عما هو فيه، وعرض صورة جانبية له من أصابع قدمه البارزة قليلا من فوق ظهر السفينة حتى الخط الذي أحدثه الماء عند مفرق رأسه: من الجدير بالملاحظة أن طول عضوه الجنسي قد ألغى تفاحة آدم، البارزة بشكل واضح عادة، وسمح بتنظيم جسمه في تناسق غريب، لكنه رصين.

وما كاد مالكه يرش الشحنة الأولى من فوق سور المركب، حتى بدأ من جديد. وأوقف فينتر الوقت في ساعته العازلة للماء: لقد احتاج مالكه إلى نفس العدد من الثواني التي احتاج إليها الطوربيد لقطع المسافة بين مرطم الأمواج وعوامة إرشاد السفن تقريبا. فعندما عبر الزورق العوامة، كان مالكه قد استفرغ مثل ما استفرغه في المرة الأولى من ماء صلبه: وضحكنا بشكل جنوني، عندما راحت النوارس تنقض على ذلك الشيء الرجراج في البحر الأملس الذى نادرا ما تتحرك أمواجه، وتصرخ طالبة المزيد!

لم يكن على مالكه أن يكرر هذه العروض ولا أن يتبارى فيها، فما كان

بمقدور أحد منا، بعد السباحة والغطس المرهق خاصة، أن يبلغ رقمه القياسي؛ فما كنا نفعله، هو أننا كنا نمارس الرياضة ونحترم القواعد.

جدت تولا بوكريفكه، التي كانت أكثر من أعجب به مباشرة، في أثره فترة من الزمن، فكانت تقعد فوق الزورق على مقربة من بيت البوصلة، وتحدق في لباس سباحة مالكه. لقد توسلت إليه أكثر من مرة، ولكنه رفض طلبها دون أن يغضب.

– هل يجب عليك أن تعترف بخطاياك؟

فأومأ مالكه بالإيجاب، وراح يلعب بمفله المربوط بشريط الحذاء ليصرف نظرها عنه.

– هل تأخذني معك مرة إلى أسفل؟ إني أخاف أن أقوم بالغطس بمفردي. أراهن على أنه لا يزال هناك ميت تحت الماء.

لأسباب تربوية أخذ مالكه تولا معه إلى مقدم الزورق. غطس معها طويلا، فعندما أخرجها من الماء، كانت تتعلق بقبضته وهي مصفرة مرمدة، وكان علينا أن نقلب جسمها النحيل المسطح في كل مكان منه.

ومنذ ذلك اليوم لم تحضر تولا بوكريفكا معنا إلا مرات قليلة وأصبحت، مع أنها كانت أكثر مهارة ممن كن في سنها من الفتيات الأخريات، تثير أعصابنا بحديثها عن البحار الميت في الزورق. على أن هذا كان هو موضوعها العظيم. ووعدتنا بجائزة:

– من أخرجه لي منكم، مكنته من نفسي!

من الجائز أن نكون قد بحثنا جميعا، نحن في مقدم الزورق ومالكه في موقع الآلات، من غير أن نعترف لأنفسنا بذلك، عن بحار بولوني نصف متحلل، ولم نفعل ذلك لدفع القضيب الناقص التكوين، وإنما فعلناه هكذا، هكذا ببساطة.

لم يعثر مالكه كذلك على شيء، سوى بعض الأطمار الملبدة بالطحالب والأعشاب، كانت تندفع منها مسرعة أسماك أبى شوكة، حتى لاحظت النوارس شيئا ونادت شهية طيبة.

كلا، لم يعر مالكه تولا اهتماما كبيرا، حتى ولو أنها كانت لها فيما بعد – على ما قيل – علاقة به. لم يكن للفتيات عنده اعتبار، ولم يلق بالا حتى لأخت

شيلينغ. وقد نظر إلى بنات عمي من برلين مثل سمكة. وإذا ما كان له شيء من ذلك، فقد كان مع الشبان؛ لا أريد بهذا أن أقول أن مالكه كان معكوسا من هذه الناحية! ففي تلك السنوات،التي كنا نذهب فيها ونجيء بصورة منتظمة بين المسبح والزورق الغريق في القعر، لم نعرف كلنا أبدا بدقة ما إذا كنا ذكورا أم إناثا. في الحقيقة لم يكن هناك بالنسبة إلى مالكه، حين يتعلق الأمر بالمرأة، – لعله كانت شائعات وأكاذيب مناقضة لذلك قد ظهرت فيما بعد – سوى مريم العذراء الكاثوليكية. فمن أجلها فقط حمل في عنقه كل ما يمكن حمله وإظهاره إلى كنيسة مريم. فكل ما فعله، من ممارساته في الغطس إلى منجزاته العسكرية المتأخرة، إنما فعله من أجلها أو – وها أنا قد حتم علي أن أناقض نفسي – من أجل أن يصرف الأنظار عن تفاحة آدم في عنقه. ومن الممكن في النهاية، من غير أن يقصر في الوفاء بحق السيدة العذراء والفأر، أن يذكر باعث آخر: كانت ثانويتنا، هذا الصندوق العفن الذى لا يمكن تهويته، خصوصا قاعة المحاضرات، تعني الكثير بالنسبة إلى يؤاخيم مالكه، وأرغمتك فيما بعد على القيام بمجهوداتك الأخيرة.

لقد آن لي في هذه اللحظة أن أتحدث عن وجه مالكه. لقد خرج البعض منا من الحرب سالمين، وأصبحوا يعيشون في المدن الصغيرة، والمدن الصغيرة الكبيرة، وصاروا من أصحاب البدانة، صار شعرهم يتساقط، وأصبحوا يكسبون بعض الشيء. لقد تكلمت مع شيلينغ في دويسبورغ ويورغن كوبكا في براونشفيغ، قبل أن يهاجر إلى كندا بفترة قصيرة. بدأ كلاهما في الحين بالحديث عن تفاحة آدم:

– ألم يكن له شيء في عنقه، يا هذا؟ ألم نسلط عليه ذات مرة قطا؟ ألم تكن أنت الذى وضع القط على عنقه...

وكان علي أن أقاطعه:

– لست أعني ذلك، إنما أقصد وجهه فقط.

اتفقنا بصورة مؤقتة: كانت له عينان رماديتان أو رماديتان ضاربتان إلى الزرقة، كانتا فاتحتين، لكنهما لم تكونا لامعتين، ولا بنيتين على الإطلاق. وكان وجهه نحيفا طولا، قوي العضلات فيما حول عظام الوجنتين. ولكن

أنفه كان كبيرا بشكل لافت للانتباه، إلا أنه كان ممتلئا، يحمر بسرعة كلما برد الطقس. وقد سبق الحديث عن بروز مؤخرة رأسه. وكان من الصعب علينا أن نتفق على شفة مالكه العليا. اتفق معي يورغن كوبكا في أنها: كانت مقلوبة إلى الأمام ولم يكن يسعها أبدا أن تغطي قواطعه العليا، التي لم تكن بدورها عمودية وإنما كانت مائلة أشبه ما تكون بالأنياب – ما عدا عند الغطس بطبيعة الحال. كنا قد بدأنا نشك في الأمر، ثم تذكرنا أن الصغيرة بوكريفكه كانت لها أيضا شفة مقلوبة وقواطع مرئية على الدوام. وفي النهاية لم نكن متأكدين مما إذا كنا لم نخلط بين مالكه وتولا فيما يتصل بالشفة العليا على وجه الخصوص. لعلها هي التي كانت لها شفة عليا، وقد كانت لها فعلا، وهذا أمر مؤكد.

لقد ذكرني شيلينغ في دويسبورغ – كنا قد التقينا في حانة المحطة، لأن زوجته لم تكن تحب الزيارات المفاجئة – بذلك الرسم الساخر، الذى أحدث في صفنا ضجة دامت بضعة أيام. في حوالي واحد وأربعين ظهر عندنا شخص، كان يتكلم بشكل متكسر ولكنه كان طليق اللسان، كانوا قد رحلوه مع أسرته من بحر البلطيق: كان نبيلا، أنيقا على الدوام، يعرف اليونانية، يهذي مثل كتاب من الكتب، كان أبوه بارونا، يرتدي في الشتاء طاقية من الفرو، ترى كيف كان اسمه، كان اسمه الشخصي على أية حال كاريل. كان يعرف الرسم، ويرسم بسرعة كبيرة، حسب الطلب وبدون طلب: يرسم زلاقات الخيل تحيط بها الذئاب، ورجالا سكارى من الكوزاك، ويهودا وكأنهم من «المهاجم»، وفتيات عرايا فوق الأسود، فتيات بشكل عام ذوات سيقان خزفية طويلة، ولكنه لم يكن يرسمهن أبدا قبيحات، ويرسمهن في مقابل ذلك بلشفيين، يمزقون الأطفال بأسنانهم، ويرسم هتلر وهو يرتدي لباس كارل الأكبر، وسيارات السباق، وقد جلس خلف عجلات قيادتها سيدان يرتديان شالات طويلة مرفرفة؛ وكان على الخصوص يلقي بالفرشاة وبالريشة أو بالقلم الأحمر بخفة ومهارة فيضع رسوما ساخرة للمعلمين وزملائه التلاميذ فوق كل قطعة من الورق أو يرسم بالطبشور على السبورة؛ أما مالكه، فإنه لم يرسمه بالقلم الأحمر فوق الورق على أية حال، وإنما رسمه

في المدرسة فوق السبورة بطبشور كان له صرير.

كان قد رسمه من الأمام. وكان لمالكه في تلك الفترة مفرق قردي في شعره ثُبِّت بماء السكر. على أنه رسم وجهه بمثابة مثلث مدبب في اتجاه ذقنه، ورسم فمه وقد تقلص بمرارة. ولم يكن هناك أثر لظهور قواطعه، التي كان يمكن أن يكون لها أثرها بوصفها أنيابا. ورسم عينيه نقاطا ثاقبة تحت حاجبيه المرفوعين بألم، والعنق ملفوفا، يقع نصفه في منظر جانبي، له تفاحة آدم كانت وليدة خياله. ورسم مؤخرة رأسه وملامحه التي كان الألم يرتسم فيها على شكل ضوء دائري مقدس: كان المُخلِّص مالكه كاملا وكان له أثره.

ضحكنا فوق مقاعدنا ضحكا كالصهيل، ولم نتمالك أنفسنا إلا حين أخذ شخص منا (مالكه) بخناق كاريل الجميل، وراح يضربه أولا بيده المجردة، ثم شرع يضربه، قبل أن نستطيع الفصل بين الرجلين بقليل، بمفل حديدي، كان قد نزعه من عنقه، وقد كان يريد القضاء عليه قرب المنصة.

كنت أنا الذى محا رسمك بوصفك مخلصا بالإسفنجة من السبورة.

بسخرية وبدونها. لعلك ما كنت لتصير مهرجا، وإنما تصير شيئا يشبه مصمم الأزياء؛ لقد كان مالكه هو الذى ابتدع في الشتاء، بعد الصيف الثاني فوق الزورق ما سميناه بالأهداب: وهي عبارة عن كرات ذات لون واحد أو ملونة، ولكن في حجم كرتين من كرات المضرب دائما، تحمل بخيط مضفور من الصوف تحت ياقة القميص مثل ربطة العنق، وتعقد في الأمام بمثابة ربطة، فتضاف كرة إلى أخرى شبيهة بنظام الفراشة إلى حد ما. وقد وجدت من أكد لي أن هذه الكريات أو الأهداب – هكذا كنا نسميها – قد حملها الناس ابتداء من الشتاء الثالث للحرب، خصوصا في أوساط المدارس الثانوية، في كل مكان في ألمانيا تقريبا خاصة في شمالها وغربها. وكان مالكه هو الذى أدخلها عندنا. كان في إمكانه أن يخترعها، ولعله هو الذى اخترعها، فحسب قوله، ترك خالته سوزي تصنع عدة أزواج منها من بقايا جوارب المرحوم والده الصوفية المهترئة كثيرة الترقيع والتي دقت خيوطها من الغسل، وجاء بها إلى المدرسة مربوطة حول عنقه بصورة تلفت النظر.

بعد عشرة أيام كانت موضوعة في دكاكين الملبوسات، وهي لا تزال خجلة غير مطمئنة داخل علب من الورق المقوى قرب صندوق النقد. ولم يمض سوى وقت قليل، وهو ما كان مهما، حتى أصبح من الممكن الحصول عليها دون بطاقة تموين، وقد نسقت بشكل جميل في الواجهات، وواصلت حملة انتصارها حتى لانغفور، وتم ارتداؤها عبر ألمانيا الشرقية والشمالية – ولدي شهود على ذلك – حتى في لايبزج وبيرنا، وبعد أشهر بلغت بصورة مفردة، بعد أن نزع مالكه الكريات ثانية، بلاد نهر الراين وبفالتس، وأنا أعرف بالضبط اليوم الذى نزع فيه مالكه اختراعه من عنقه، وسأتحدث عن ذلك فيما بعد.

واصلنا حمل هذه الأهداب في أعناقنا فترة طويلة، وقد ارتديناها في النهاية من باب الاحتجاج، لأن مديرنا، مدرس الثانوية كلوزه، اعتبر حمل الأهداب

شيئا يليق بالجنس اللطيف، واصفا إياه بأنه غير جدير بشاب ألماني، ومنع ارتداءه داخل جدران المدرسة وفي ساحتها أيضا. لقد امتثل الكثير لأمر كلوزه، الذى قرئ تعميمه في جميع الصفوف، باستثناء دروسه هو. وقد خطر ببالي على ذكر الأهداب بابا برونيس، وهو مدرس بالثانوية، انتهت مدة خدمته، لكنه أعيد أثناء الحرب للوقوف خلف المنصة وإلقاء الدروس. كان يجد دائما متعة في تلك الأهداب المزركشة، وكان قد ربطها حول ياقة قميصه المنتصبة مرة أو مرتين، بعد أن تخلى مالكه عن حملها، وراح يتلو، وهو على هذه الهيئة، بيت الشاعر آيشندورف «رواق معتم، نوافذ عالية...» أو شيئا آخر، وكان البيت على أية حال من شعر آيشندورف، الذى كان أحب شاعر إلى نفسه. – كان أوسفالد برونيس يحب التطعم، ويكثر من أكل الحلويات، وقد ألقي عليه القبض في وقت لاحق في بناية المدرسة بدعوة أنه استولى على أقراص الفيتامينات التي كان من المفروض أن توزع على تلاميذ المدرسة، ومن المرجح أن يكون قد اعتقل لأسباب سياسية – كان بورنيس ماسونيا – . وجرى استجواب التلاميذ. أرجو ألا أكون قد قلت شيئا يلحق به الضرر. كانت الفتاة التي جعل منها أبنة، وهي كائن شبيه بالدمية، تأخذ دروسا في رقص الباليه، وترتدى ثيابا سوداء وهي تمر عبر الشوارع. لقد أخذوه إلى شتوتهوف، وبقي فيها – قصة متشعبة غامضة، ينبغي أن تكتب في موضع آخر، لكني لن أكتبها أنا، ولن تكون لها بأية حال من الأحوال علاقة بقضية مالكه.

ولنعد مرة أخرى إلى الأهداب. كان مالكه قد اخترعها طبعا لتستفيد من ذلك تفاحة آدم في عنقه، وقد استطاعت فعلا تهدئة ذلك المتوثب الطليق، ولكنها ما كادت تصبح بدعة في السنة الثانوية الأولى، حتى كفت عن جلب الانتباه في عنق مبدعها أيضا: وهكذا أرى يؤاخيم مالكه أثناء صيف واحد وأربعين أو اثنين وأربعين – لا بد أن ذلك كان سيئا بالنسبة له،إذ لم يكن الأمر له شأن بالغطس، وكانت الأهداب قد باءت بالفشل – ينزل على انفراد تام من الجادة الشرقية عبر طريق الدببة في اتجاه كنيسة مريم: ويسير

بحذاء أسود عالي الكعب فوق الثلج الذي يسمع له صرير والذى نثر فوقه الرماد. بلا قبعة، أذناه الواقفتان حمراوان متجمدتان، وشعره المتجمد بفعل ماء السكر والجليد مفروق من وراء قمة رأسه إلى وسطه، وحاجباه يجتهدان في عناء لبلوغ جذر أنفه. عيناه مرعوبتان، تبدوان شاحبتين شحوبا مائيا أكثر مما هما عليه في واقع الأمر، ياقة معطفه مرفوعة.

– كان المعطف أيضا مما تركه له المرحوم أبوه. – وكان يرتدي شالا ملاصقا لذقنه الذى كان يبدو مدببا هزيلا، وقد وضع أحد طرفيه على الطرف الآخر، وثبته بمشبك كبير، يرى من بعيد بوضوح. وعند كل عشرين خطوة كانت يده اليمنى تخرج من جيب معطفه وتتلمس ترتيب الشال أمام عنقه – كنت قد رأيت المهرج، المشعوذ السويسري غروك، وكذلك شابلن يؤديان عملهما في السينما بمشبك كبير مماثل –، ومالكه يتدرب: كان الرجال والنساء وأصحاب الأزياء الرسمية ممن هم في عطلة، والأطفال، فرادى وكتلا، يكبرون أمامه فوق الثلج. كانت أنفاسهم جميعا، ومنهم مالكه أيضا، تهب من أفواههم بيضاء وتمر فوق أكتافهم. كانت جميع الأنظار، التي كان يجابهها، تتجه رأسا إلى المشبك الغريب، الغريب جدا، الغريب بشكل مريع – هذا ما قد يفكر فيه مالكه.

في أثناء الشتاء الجاف القاسي نفسه قمت مع اثنتين من بنات أعمامي، كانتا قد جاءتا من برلين لقضاء عطلة عيد الميلاد، ومع شيلينغ، حتى تتم التشكيلة، بجولة فوق البحر الذي تجمد سطحه إلى زورقنا المتجمد الخاص بالبحث عن الألغام. كنا نريد أن نتباهى قليلا ونري الفتاتين صاحبتي البشرة الملساء والشعر الأشقر المجعد شيئا ذا أهمية، هو زورقنا. وكنا نأمل كذلك أن نفعل مع الفتاتين اللتين تظاهرتا بالحرج في القاطرة الكهربائية وعلى الشاطئ، شيئا رائعا، وإن كنا لم نعرف بعد ما هي طبيعته.

على أن مالكه أفسد علينا فترة ما بعد الظهر. فقد دفعت كاسحات الجليد، التي كان عليها أن تكسر الجليد في مدخل الميناء أكثر من مرة، بكتل الجليد أمام الزورق، فكوّنت، وقد تزاحمت وتكدست، سدا منيعا مشقوقا، ما أن تلامسه الريح حتى يصفر، وحجبت قسما من بنايات الجسر العلوية. لم نر

مالكه إلا عندما وقفنا فوق حاجز بطول قامة الإنسان وسحبنا الفتاتين إلينا في الأعلى. وكان الجسر، وبيت البوصلة، وكوة التهوية خلف الجسر، وكل ما بقي، يشكل حلوى زجاجية وحيدة بيضاء ضاربة إلى الزرقة، تلحسها عبثا شمس جمدها الصقيع. لم تكن هناك نوارس، كانت بعيدة هناك في الخارج، تحوم فوق مزبلة سفينة الشحن المتجمدة في الميناء.

كان مالكه طبعا قد رفع ياقة معطفه وربط الشال تحت ذقنه، ووضع المشبك أمامه. لم يكن يغطي رأسه ومفرق شعره في وسطه أي شيء، ولكنه كان قد وضع أغطية فوق أذنيه شبيهة بتلك التي يضعها رجال القمامة وسائقو عربات الجعة، كانت سوداء دائرية يشدها مقبض من الصفيح يمر فوق مفرق شعره مثل دعامة أفقية، وكانت تضغط أذنيه الواقفتين.

لم ينتبه إلينا، لأنه كان يعمل فوق السقف الجليدي في مقدم السفينة، ولا بد أنه كان يشعر بالحرارة. حاول بواسطة بلطة يدوية صغيرة تكسير الجليد في المكان الذى يمكن أن تكون فيه الكوة المفتوحة على مقدم السفينة. وأحدث بضربات سريعة قصيرة أثرا دائريا، فرسم محيط غطاء مجرى مائي. وثبنا أنا وشيلينغ من فوق الحاجز، ومسكنا الفتاتين وقدمناهما إليه. لم يكن عليه أن ينزع قفازا. انتقلت البلطة إلى يده اليسرى، وصافح الجميع بيده اليمنى الدافئة المدغدغة، التي عادت في الحال إلى البلطة، وراح يكسر المجرى المائي بعدما انتهينا من مصافحته. انفرج فم الفتاتين قليلا، فبردت الأسنان الصغيرة. وكانت الأنفاس وقد تحولت إلى صقيع تلطم مناديل الرأس. كانتا تنظران بعيون ملساء إلى المكان، الذى كان فيه الحديد والجليد يعضان بعضهما. لم يلق إلينا بالا ونحن نقف إلى جانبه، وبدأنا، رغم أننا كنا مغتاظين منه، نتحدث عن مآثره في الغطس وبذلك عن الصيف:

– كانت له لافتة، أجل، وكان له أيضا جهاز إطفاء الحرائق، وعلب الأطعمة، وأقول لكم، كانت معها فتاحة، كان داخل تلك العلب لحم بشري، حتى الحاكي، بعد أن نقله إلى فوق، كان يخرج منه شيء، كان له مرةً...

لم تفهم الفتاتان كل شيء، وطرحتا أسئلة غبية، وخاطبتا مالكه بضمير الجمع «أنتم.» كان يكسر بلا كلل، وكان يحرك رأسه ذا الأغطية على الأذنين،

عندما نبالغ نحن في إطراء أمجاده في الغطس فوق الجليد، ولكنه لم ينسى أبدا أن يتلمس بيده الحرة شاله ومشبكه. وبينما أنفقنا نحن قوانا، واعترانا البرد، كان هو يستريح، من غير أن يعتدل تماما، بين عشرين ضربة وعشرين أخرى، استراحة قصيرة، يملؤها بكلمات متواضعة وتقديم تقرير واقعي. واثقا ومحرجا في نفس الوقت كان يؤكد على محاولات الغطس الصغيرة، وكان يغفل الحديث عن مغامراته الجريئة، ويتحدث عن آماله أكثر مما يتحدث عن مخاطراته داخل زورق البحث عن الألغام الغريق المبتل، وهو يواصل خلال ذلك ثقب سقف الجليد. لم تكن ابنتا عمي معجبتين بمالكه؛ لقد كان يختار في حديثه كلمات فاترة، لم يكن فيها ما يضحك. ثم إن الفتاتين ما كانتا لتخالطا أبدا شخصا، يضع أغطية فوق أذنيه مثل جد عجوز. ومع ذلك لم نحظ باهتمامه. بقينا مثل أطفال صغار تجمدت أوصالهم من البرد، يقفون جانبا بأنوف يسيل منها المخاط؛ وقد نظرت الفتاتان إلينا، أنا وشيلينغ، خلال طريق العودة أيضا، نظرات متعالية.

بقي مالكه هناك، فقد كان يريد أن ينتهي من حفر الثقب وأن يثبت لنفسه أنه قد وجد الموضع الذى توجد فيه الكوة. إنه حقا لم يقل لنا: «ابقوا معي إلى أن أخرق الجليد!» غير أنه أخر ذهابنا حوالي خمس دقائق، عندما أصبحنا فوق سد الجليد، وذلك عندما راح ينثر كلمات بصوت خافت، لم يوجها إلينا نحن فوق بقدر ما كان قد وجهها إلى سفينة الشحن المتجمدة في الميناء، دون أن يمط ظهره.

طلب منا أن نساعده. أم تراه أصدر أمره إلينا بكلمات مهذبة؟ كان علينا على أية حال أن نبول في المجرى الإسفيني الشكل، وأن نذوّب الجليد ببولنا الدافئ أو نلينه على الأقل. وقبل أن نتمكن أنا أو شيلينغ من القول:

– لن يتم ذلك أبدا!

أو

– لقد فعلنا ذلك في طريق مجيئنا.

هتفت ابنتا عمي بفرح وأعلنتا أنهما مستعدتان للمساعدة:

– أجل! إلا أن عليكم أن تنظروا بعيدا، وأنت أيضا، أيها السيد مالكه.

بعد أن أوضح مالكه للفتاتين أين تجلسان – قائلا إنه يجب أن يصب تيار البول دائما في المكان ذاته، وإلا فإنه لن تكون هناك فائدة من ذلك – صعد فوق السد واستدار نحو الشاطئ. وبينما كانت تتم خلفنا شرشرة البول والضحك والهمس بصوتين في الوقت ذاته، بقينا نتطلع إلى دبيب النمل الأسود أمام بروزن والمعبر البحري المتجمد. كانت أشجار الحور المعدودة في متنزه الشاطئ ملبسة بما يشبه السكر سبع عشرة مرة. وكانت الكرة الذهبية فوق تمثال الحرب، الذى كان يعلو كمسلة من غابة بروزن، تقدم لنا إشارات وميض مضطربة. كان يوم الأحد في كل مكان.

عندما ارتفعت سراويل التزحلق للفتاتين من جديد، وكنا نحن نقف في الأسفل عند المجرى على رؤوس أصابع أقدامنا، كانت الدائرة لا تزال ترسل البخار، خصوصا في ذينك الموضعين اللذين كان مالكه قد حفر فيهما علامة بالبلطة من باب الاحتياط. كان الماء قد اجتمع في الحفرة بلون أصفر باهت، وأخذ يتسرب مشرشرا. وكانت حافات المجرى قد اتخذت لونا ذهبيا ضاربا إلى الخضرة. وغاص الجليد باكيا، وبقيت طويلا رائحة حادة، حيث لم تكن هناك رائحة أخرى تفوح ضدها، أصبحت أكثر حدة عندما ضرب مالكه بالبلطة في السائل الساخن وكشط من جريش الجليد ما يملأ دلوا عاديا، وتمكن من حفر ممرات للوصول إلى العمق في موضعين محددين.

وعندما تكومت الطبقة الطرية جانبا، وتجمدت تحت الجليد في الحال، وضع علامة على موضعين جديدين، فكان على الفتاتين أن تستديرا، وفككنا نحن أزرارنا، وقدمنا مساعدتنا لمالكه عندما تمكنا من تذويب سنتمترات أخرى من طبقة الجليد، وحفرنا ثقبين آخرين، لكنهما لم يكونا عميقين بما فيه الكفاية. لم يبل مالكه، ولم نطلب منه أن يفعل ذلك، غير أننا خشينا أن تشجعه الفتاتان على ذلك.

ما أن انتهينا، وقبل أن تستطيع ابنتا عمي فتح فمهما، حتى صرفنا مالكه عنه. وحين وقفنا فوق السد ثانية ونظرنا خلفنا، كان هو قد سحب شاله ومشبكه فوق ذقنه وأنفه، من غير أن يكشف رقبته. وانكشفت الكريات الصوفية أو الأهداب ذات البقع الحمراء والبيضاء بين الشال وياقة

المعطف. عاد من جديد إلى العمل في ذلك المجرى، الذى كان يهمس بنا وبالفتاتين، وأحنى ظهره خلف غلالات هاربة من بخار محلات الغسيل التي كانت الشمس تمرغ فيها.

كان حديثنا في طريق عودتنا إلى بروزن يدور حوله لا غير. فقد تناوبت ابنتا عمي طرح أسئلة لم تكن جميعها مما يجاب عنه أو فعلتا ذلك في وقت واحد. ولكن عندما أرادت الصغرى أن تعرف لماذا يرفع مالكه شاله عاليا حتى ذقنه مثل ضمادة للرقبة وبدأت الكبرى بالحديث عن الشال أيضا، انتهز شيلينغ هذه الفرصة القصيرة، وأخذ يصف تفاحة آدم في عنق مالكه كما لو أن الأمر كان يتعلق بتضخم في الغدة الدرقية، وقام أيضا بحركات لم تكن تخلو من مبالغة، وقلد مالكه وهو يمضغ، ورص قبعة التزحلق فوق رأسه، وفرق شعره بأصابعه في الوسط من باب التلميح، وتوصل في النهاية إلى أن يضحك الفتاتين، فوصفتا مالكه بأنه غريب وأنه ليس سليم العقل تماما.

ولكن رغم هذا النصر الصغير على حسابك، وقد شاركت أنا أيضا بقسطي فيه، وقلدت علاقتك بمريم العذراء - سافرت ابنتا عمي بعد اسبوع إلى برلين ثانية من غير أن نفعل معهما شيئا ذا بال، باستثناء ما تبادلناه في السينما من معانقات معتادة.

لا ينبغي أن يفوتني أن أذكر أنني سافرت في وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي بالقطار إلى بروزن، وسرت فوق الجليد في ضباب الساحل الكثيف، وكاد يفوتني الزورق، ووجدت ثقب الجليد في مقدم السفينة قد أصبح جاهزا، دست الطبقة الجليدية التي تكونت من جديد خلال الليل، بجهد بكعب حذائي وبعصا والدي للنزهة التي كنت قد أخذتها معي احتياطا، سحقتها، وغرست العصا التي كان لها رأس حديدي مدبب في الثقب الرمادي الداكن بين جريش الجليد. وكادت العصا تختفي حتى العكاز، وترجرجت حتى بلغت قفازي، وعندئذ اصطدم رأسها بمقدم السفينة، كلا، ليس بمقدم السفينة، فقد دفعت بها في البدء في الفراغ، وعندما مررت بها جانبيا على حافة ثقب الجليد، صادفت مقاومة في الأسفل أيضا: عندئذ تركت الحديد يسير بتواز مع الحديد: كانت تلك بالضبط هي الكوة المفتوحة

التي لا غطاء لها، المفضية إلى مقدم السفينة. مثلما يستقر طبق تحت طبق آخر حين يضع المرء طبقين أحدهما في الآخر، كانت تلك الكوة تقع أسفل ثقب الجليد - كذب، لم تكن واقعة بالضبط مثل، لا يوجد بالضبط مثل: فإما أن تكون الكوة أكبر قليلا أو أن يكون ثقب الجليد أكبر قليلا؛ على أن الكوة كانت قد انفتحت تحته تقريبا، وقد شعرت بنوع من الافتخار العذب بمالكه يشبه حلوى القشدة، وكنت على استعداد أن أهديك ساعتي اليدوية.

بقيت حوالي عشر دقائق، كنت جالسا قرب الثقب فوق غطاء من جليد، يقدر سمكه بأربعين سنتمترا. وفي الثلث الثاني الأسفل من الكتلة الجليدية كان يمر خط البول الأصفر الناعم ذاك الذي يعود إلى اليوم السابق. لقد حق لنا أن نساعد مالكه، ولكن كان في وسعه أن يحفر الثقب بمفرده. أكان ممكنا أن يكون في غنى عن الجمهور؟ أكانت هناك أشياء لم يظهرها إلا لنفسه؟ فحتى النوارس نفسها ما كانت لتظهر إعجابها بثقبك الجليدي فوق الكوة في مقدم السفينة، لو لم أجئ أنا لأبدي إعجابي بك.

لقد كان له جمهوره دائما. وإذا ما قلت الآن: كانت مريم العذراء خلفه أو أمامه على الدوام، حتى عندما كان وحده فوق الزورق المتجمد يثقب ممره الدائري، تنظر إلى بلطته الصغيرة، وكانت معجبة به، وعلى الكنيسة في واقع الأمر أن تعترف أنني في هذا على صواب؛ ولكن حتى إذا لم يكن من حق الكنيسة أن ترى في مريم العذراء تلك المشاهدة التي تتفرج على فنيات مالكه من غير كلل، فإنها كانت مع ذلك تنظر إليه بانتباه؛ فأنا أعلم هذا علم اليقين: إذ كنت مساعد القسيس في القداس، أولا في عهد صاحب الغبطة فينكه بكنيسة قلب - يسوع، ثم في عهد غوزيفسكي في كنيسة مريم. وشاركت أيضا عندما فقدت إيماني بسحر الهيكل، أي مع تقدمي في السن. كان الذهاب والإياب يشعرني بالمتعة، وكنت أبذل ما في وسعي أيضا. لم أكن كذلك أجر ساقي على الشكل المعتاد، ولم أتأكد أبدا، ولا أزال كذلك إلى اليوم ما إذا كان هناك شيء خلف ذلك أو قبله أو في بيت القربان... على أية حال كان صاحب الغبطة غوزيفسكي يشعر بالسرور على الدوام، عندما أقف إلى جانبه كأحد مساعديه في القداس، لأني لم أتبادل أبدا صور السجائر

الصغيرة بين التضحية والتحول، كما كان معتادا بين الشبان من مساعديه، ولم أترك أبدا الأجراس تدق خلفي، ولم أتاجر كذلك بنبيذ القداس. ذلك أن مساعدي القداس إنما هم أسوأ الناس: ليس فقط لأنهم ينشرون أسمالهم فوق درجات الهيكل، ويتراهنون من أجل القطع النقدية أو خراطيش الرصاص الفارغة، وإنما كانوا يتبادلون الأسئلة عن التفاصيل التقنية لسفن حربية عائمة أو غريقة أثناء الصلاة الجماعية بدل نصوص القداس أو بين اللاتينية واللاتينية: «أدخل إلى هيكل الله – في أية سنة دُشنت السفينة «إريتريا»؟ – ستة وثلاثون. مميزات خاصة؟ إلى الله الذى يبهج شبابي.– المدمرة الإيطالية الوحيدة لإفريقيا الشرقية. صد المياه؟ الله قوتي – ألفان ومائة واثنان وسبعون. كم عدد العقد التي يسير بها؟ وأدخل إلى هيكل الله – لست أدري. تسليحها؟ مثلما كان في البداية – ستة سبعة عشر سنتيمترا، ستة فاصل ستة... خطأ! من الآن وإلى الأبد – هذا صحيح. ما هي أسماء سفن المدرسة المدفعية الألمانية؟ في دهر الدهور آمين. – اسمها ذبابة كبيرة وكابح.»

لم أعد أقوم فيما بعد بدور المساعد في القداس في كنيسة مريم، ولم أعد أذهب إليها إلا عندما يرسل غوزينسكي في طلبي، لأن مساعديه كانوا قد تخلوا عنه إما بسبب السير في الميدان في أيام الآحاد أو لأنه كان عليهم أن يجمعوا له الأشياء والأمتعة في إطار معونة الشتاء.

ينبغي لي أن أقول هذا من أجل وصف موقعي أمام الهيكل الرئيسي وحسب، إذ كان في إمكاني أن أراقب منه مالكه حين يركع أمام هيكل مريم العذراء. ولكم كان يعرف كيف يؤدي صلاته! كانت نظراته أشبه ما تكون بنظرات العجل، وكانت عينه تغدو أكثر جمودا، بينما بدا على فمه الحنق وهو في حركة لا تتوقف. الأسماك الملقاة على الشاطئ تتلقف الهواء بصورة منتظمة. قد تدل هذه الصورة على الامبالاة التي كان يؤدي بها مالكه صلاته. عندما كنت أنا وصاحب الغبطة غوزينسكي في طريقنا إلى مقعد تناول القربان، ووصلنا إلى مالكه، الذى كان لا يزال راكعا في الجانب الخارجي على الجهة اليمنى منظورا إليه من الهيكل، ركع هناك شخص، ترك شاله ومشبكه

يسقطان، رغم حذره كله، وراح ينظر بعينين جامدتين ملقيا رأسه، الذى كان قد فرق شعره في وسطه إلى الوراء، وأخرج لسانه ومنح ذلك الفأر الحي، الذى كان في وسعي مسكه بيدي، حريته مما جعل هذا الحيوان الصغير يفتقد، وهو في طريقه، الحماية إلى حد كبير. ولعل يؤاخيم مالكه لاحظ أن محط نظره قد انكشف فاعترته رجّة. ومن الممكن أن يكون قد ساعد من خلال البلع المبالغ في إغراء عيني مريم العذراء الجامدتين وهي في وقفتها الجانبية. فأنا لا أستطيع ولا أريد أن أصدق أنك كنت ستفعل أقل شيء دون أن يكون لك جمهورك.

-٥-

لم أره يحمل الأهداب في كنيسة مريم أبدا. كان يأتي حاملا الكريات الصوفية على نحو يزداد ندرة باستمرار، مع أن بدعة التلاميذ كانت قد بدأت تنتشر فعلا. أحيانا، حين كنا نقف ثلاثة في فناء المدرسة في فترة الاستراحة تحت شجرة الكستناء نفسها ونتحدث بشكل متداخل عن أشياء أخرى غير الحديث المبتذل عن الصوف، كان مالكه ينزع الكريات من رقبته، ثم يصنع منها بعد إشارة فترة الاستراحة الثانية، مترددا، فراشة لانعدام معادل أفضل.

عندما عاد لأول مرة تلميذ أنهى الثانوية بمدرستنا، من الجبهة، وكان قد زار في طريقه مقر القائد، وصار يحمل الآن قطعة الحلوى (الوسام) المرغوب فيها في عنقه، رن أثناء الدرس ناقوس خاص يدعونا إلى الحضور إلى قاعة الاحتفالات. حين وقف الشاب في رأس القاعة، أمام ثلاث نوافذ عالية وأصص نباتات ذات أوراق كبيرة وأمام هيئة التدريس المجتمعة، لم يقف خلف المنصة، وإنما وقف، والحلوى في عنقه، قرب الصندوق القديم المسود وتحدث من فوق رؤوسنا بفم مدور ذي حمرة فاتحة، وقام أيضا بحركات موضحة، فرأيت كيف كشف مالكه، الذى كان يجلس في صف يقع أمامنا أنا وشيلينغ، عن أذنيه، فاعتلتهما حمرة، استند إلى الخلف في جمود، ثم راح يتلمس عنقه بيديه شمالا ويمينا ويعاني من الاختناق ويرمي أخيرا بشيء ما تحت المقعد: صوفا، وأهدابا، الكريات التي اختلط فيها اللونان الأحمر والأخضر، فيما أعتقد. أما هذا التلميذ السابق، الذى كان قد فتح فمه بصوت خافت في البداية، فقد كان ملازما ثانيا في السلاح الجوي، وأخذ يتحدث متلعثما بعجز يثير التعاطف، واحمر أكثر من مرة دون أن يكون في حديثه مبرر لذلك:

– لا تتصوروا أن ذلك يحدث كما يحدث أثناء صيد الأرانب حيث يتم الهجوم عليها وينتهي الأمر وكأن شيئا لم يحدث. هناك أسابيع كثيرة لا

يحدث فيها شيء. ولكن عندما بلغنا بحر المانش – فكرت، إن لم يحدث هنا شيء فلن يحدث في مكان آخر. وقد حدث ذلك فعلا. بعد طلعتنا في المرة الأولى جابهتنا تشكيلة من حرس القناصة، أقول لكم، كانت طائرتي الحائمة مضبوطة، تدور مرة تحت السحب ومرة فوقها: حاولت أن أصعد إلى أعلى، فقد كانت تحوم تحتي ثلاث طائرات حربية، ثم تحتجب عني، فأفكر أن الأمر سيكون مما يدعو إلى الضحك إن أنا لم أستطع الاندفاع صعدا وأعلو فوقها، وها أنا أراها الآن، وها هي قد أظهرت آثار سقوطها. واستطعت توجيه طائرتي نحو قمة الجناح الأيسر، وفي تلك اللحظة بالذات رأيت طيارة حربية ثانية في اندفاعها المضاد تدخل دائرة جهاز التسديد، فأمسك بسرة مروحة الطائرة، وأنا أردد: إما أنا أو هو، أجل، وهكذا كان الأمر كما ترون. كان عليه أن يسقط في بحر المانش، وقلت في نفسي ما دمتَ قد أسقطت اثنتين، فلماذا لا تحاول ذلك مع الثالثة، ومع غيرها، المهم أن يكون لدي مايكفي من الوقود. عندها راحت تحلق تحتي سبع طائرات في تشكيلة منفرجة، وكانت أشعة الشمس خلفي أنا على نحو مناسب، فأطلقت النار على واحدة منها، وأسقطتها، وأعدت الكرة، ونجحت في ذلك أيضا، وسحبت مقبض القيادة إلى الخلف حتى مكان التسديد، عندما أصبحت الثالثة أمام الطلقة، وإذا بها تنحدر نحو الأسفل، لا بد أن أكون قد أصبتها، بحركة آلية من الخلف، فتخلصت منها، وكانت ثمة سحب، ثم رأيتها من جديد، فضغطت الأنبوبة مرة أخرى، وعندها أخذت تدور في بحر المانش، ولكني كنت أنا أيضا على وشك الهلاك؛ ولم أعد أعرف حقا، كيف استطعت أن أصعد بالطائرة. على أية حال عندما وصلت إلى مدينتنا مترنحا – وكنا كما عرفتم بالتأكيد أو كما رأيتم في أخبار الشاشة الأسبوعية، نحرك أجنحة الطائرة للإعلان عن إسقاط طائرة معادية –، لم أستطيع إخراج العجلات، فقد استعصت علي. وهكذا كان علي أن أهبط في المطار لأول مرة على بطن الطائرة. وفيما بعد، في المطعم: كان سيكون لي ستة بلا جدال، ولم أقم طبعا بحساب ما كان في أثناء ذلك، لقد كنت طبعا مضطربا إلى حد كبير. وكانت فرحتي بطبيعة الحال كبيرة جدا، إلا أنه كان علينا أن نصعد إلى الجو مرة أخرى في حوالي الساعة

الرابعة، باختصار: لقد جرى الأمر تقريبا كما جرى في السابق حين كنا نلعب كرة اليد في فناء مدرستنا الطيب، فالملعب لم يكن موجودا يومذاك. لعل مدرس الثانوية مالنبرانت يتذكر: أنني كنت لا أسجل هدفا واحدا أو أسجل تسعة أهداف مرة واحدة؛ وكذلك كان الأمر في فترة ما بعد الظهر: فقد انضمت إلى أهداف الصباح الستة ثلاث أهداف أخرى؛ كان ذلك هدفي التاسع إلى السابع عشر؛ ولكن بعد نصف سنة على التقريب، عندما بلغت بها الأربعين، استدعاني قائدنا، وعندما نقلت بعد ذلك إلى مقر القائد كنت قد وصلت بها إلى أربع والأربعين؛ فقد كنا في بحر المانش لا نكاد نخرج من الطائرة، وبقينا كما نحن، على العكس من المستخدمين في الأرض، لم يكن كل واحد قادرا على احتمال ذلك. أريد الآن أن أتحدث تغييرا للموضوع عن شيء لا يخلو من تسلية: كان لدينا في سرب كل قاعدة جوية كلب مرافق. وعندما خرجنا ذات يوم برفقة كلبنا أليكس، لأن الطقس كان في ذلك اليوم بالذات على أجمل ما يكون...

تكلم ذلك الملازم الثاني الحائز على أرفع الأوسمة على هذا النحو تقريبا، قدم بين معركتين جويتين، بمثابة فاصل ترفيهي، قصة كلب السرب أليكس، الذى كان عليه أن يتعلم القفز بالمظلة، وقدم كذلك حكاية العريف الأول الذى كان دائما يخرج لدى الإنذار متأخرا من تحت بطانيات الصوف، فتحتم عليه أكثر من مرة أن يطير وهو يرتدي ثياب نومه.

ضحك الملازم الثاني عندما ضحك التلاميذ وحتى تلاميذ السنة الثانوية الأولى ضحكوا، وسمح بعض المعلمين لأنفسهم بالابتسام. كان قد حصل على البكالوريا في مدرستنا عام ستة وثلاثين، وأسقط عام ثلاثة وأربعين فوق منطقة الرور. كان شعره أسود، غير مفروق، ممشطا ومشدودا إلى الخلف، ولم يكن طويل القامة، بل كان أقرب إلى رشاقة نادل يعمل في ملهى ليلي. كان يضع إحدى يديه في جيبه عندما يتكلم، لكنه كان يظهر اليد المخفية في الحين، عندما يروي قصة معركة جوية أو يحاول رسم شيء عن طريق يديه. كان يحسن اللعب براحتي يديه المضمومتين وينوع في حركاتهما المختلفة، ويتخلى عن الجمل الطويلة الموضحة، عندما يقلد مبتدئا من الكتفين طيران

الطائرة في انعطافها المتربص، ويبعثر في كل الأحوال كلمات موجزة هنا وهناك، ويتبارى مع نفسه، فيقلد في قاعة المحاضرات أصوات محرك الطائرة من إقلاعها إلى هبوطها، ويتلعثم في صراخه حين يكون هناك خلل في المحرك. نستطيع أن نفترض أنه تدرب على هذه الفقرة في نادي الضباط بقاعدته الجوية، تكررت كلمة نادي الضباط، التي كان لها معنى هام في فمه:

– كنا جالسين في اطمئنان بنادي الضباط وكنا... في اللحظة التي أردت فيها الذهاب إلى نادي الضباط، لأني كنت... وقد علق عندنا في نادي الضباط...

ولكن فيما عدا هذا، وبغض النظر عن يديه الشبيهتين بيدي ممثل وعن تقليده للأصوات على صورتها الطبيعية، فقد كانت محاضرته طريفة فعلا، لأنه عرف كيف يسخر من بعض مدرسي ثانويتنا، الذين كانت لهم في ذلك الوقت نفس الألقاب الهزلية على غرار ما كان عليه الأمر في أيامنا. لكنه بقي دائما لطيفا، مكارا، صاحب مغامرات إلى حد ما، دون زهو كبير، لا يتحدث عن نجاحه أبدا، عندما يكون قد أنجز شيئا صعبا لا مثيل له، لكنه يتحدث دائما عن حظه:

– أنا شاب محظوظ، وهذا منذ أيام المدرسة، عندما أفكر في شهادات النجاح من صف إلى آخر أعلى منه...

وفي غمرة مزاحه عن تلمذته تذكر ثلاثة من زملائه في الصف في ذلك الحين، لا ينبغي لهم أن يكونوا، كما قال، قد سقطوا في الحرب عبثا، ولم ينه محاضرته بذكر أسماء زملائه، وإنما أنهاها بهذا الاعتراف:

– أقول لكم، أيها الشباب: عندما يؤدي المرء عمله في الجبهة، غالبا ما يحلو له أن يفكر في مدرسته!

لقد صفقنا طويلا، وصرخنا وزعقنا وضربنا الأرض بأقدامنا. ولم ألاحظ أن مالكه بقي متحفظا ولم يعبر عن إعجابه بما يقع على المنصة إلا عندما احترقت يداي واعتراهما الجمود.

كان مدير الثانوية كلوزه يهز في المقدمة يدي تلميذه القديم معا بشدة وبصورة لافتة للنظر كلما استمر التصفيق وامتد. ثم أمسك الملازم الثاني

من كتفيه اعترافا به، ثم تخلى فجأة عن الرجل النحيف، الذى عاد إلى مكانه في الحال، ووقف هو نفسه خلف المنصة.

طالت كلمة المدير. وامتد الملل من نباتات الأصص المتكاثرة حتى اللوحة الزيتية على الجدار الخلفي لقاعة الاحتفالات، التي تحتضن صورة مؤسس المدرسة، وهو البارون فون كونرادي. وكان الملازم الثاني، في نحافته بين المدرسين الثانويين برونيس ومالنبرانت، ينظر المرة تلو المرة إلى أظافره. وكانت أنفاس النعناع الباردة، التي تتخلل جميع دروس كلوزه الرياضية وتشي برائحة علمه، قليلة الفائدة في القاعة الكبيرة. ومن الأمام تناهت كلماته إلى وسط القاعة تقريبا:

– أولئك الذين يأتون بعدنا – وفي هذه الساعة – أتأتي رحالة – لكن هذه المرة سيكون الوطن – إذا كنا لا نريد أبدا – نكون خفيفي الحركة عنيدين صلبين – شرفاء – كما سبق أن قلت – شرفاء – ومن لا يريد ذلك ينبغي – وفي هذه الساعة – نبقى شرفاء – ولننه هذا بكلمة شيلر – إذا لم تغامروا بحياتكم لن يربحكم أحد أبدا – والآن إلى العمل!

وأطلق سراحنا فتزاحمنا عنقودين أمام مخارج القاعة الضيقة. ودخلت في الزحام خلف مالكه. كان يعرق، وقد التصق شعره المضمخ بماء السكر سفافيد حول مفرقه المحطم. لم يسبق لي أبدا، حتى في قاعة الألعاب، أن رأيت مالكه يعرق. كانت الرائحة النتنة لثلاثمائة تلميذ ثانوي تجلس بمثابة سدادة في مخارج القاعة. كان أخدعا مالكه، هذان العرقان الممتدان من فقرة عنقه السابعة في اتجاه مؤخرة الرأس البارزة، يتوهجان ويتلألأن عرقا. لم ألحق به إلا في الممر ذي الأعمدة أمام أبواب الأجنحة وسط ضجيج تلاميذ السنة الخامسة، الذين بدأوا في الحال ألعاب الملاحقة، تجاوزته وسألته مواجهة:

– ماذا تقول الآن؟

نظر مالكه أمامه، فحاولت أن أتحاشى النظر إلى عنقه. كان هناك تمثال نصفي من الجبس لليسينغ بين الأعمدة: لكن عنق مالكه هو الذي فاز. وجاء صوته بهدوء وألم وكأنه يريد أن يتحدث عن الآلام المزمنة لعمته:

– عليهم أن يسقطوا الآن أربعين طائرة، إذا هم أرادوا الفوز بذلك الشيء.

لقد كان لهم ذلك في بداية الأمر حين انتهوا من فرنسا ومن الشمال، وإذا ما أصبح لهم عشرون – ترى ماذا سيحدث لو سار الأمر على هذا المنوال؟

لم تنل كلمة الملازم الثاني إعجابك حقا. وإلا فكيف كان في إمكانك أن تمد يدك إلى بديل رخيص من هذا النوع؟ في ذلك الحين كانت هناك شارات وأقفال مشعة مستديرة أو بيضوية في واجهات محلات بيع الورق ودكاكين النسيج. كان لبعضها شكل السمك، وكان بعضها الآخر يرسم صورة نورسة طائرة بلون حليبي مخضر، بمجرد أن يلتمع في العتمة. كان يحمل هذه الشارات في الغالب الرجال الشيوخ والنساء الضعيفات، الذين يخشون الاصطدامات في الشوارع المظلمة، في ياقات معاطفهم؛ وكانت هناك عصي أيضا ذات خطوط مضيئة.

لكنك أنت لم تكن من ضحايا الحماية الجوية، ومع ذلك كنت قد غرزت خمس أو ست شارات وسربا من السمك المضيء، وحشد من النوارس المحلقة، وباقات من الزهور الفسفورية، أولا في ياقة معطفك، ثم في شالك. وطلبت من خالتك أن تخيط لك دستة من الأزرار من الكتل المضيئة من أعلى إلى أسفل، وجعلت من نفسك مهرجا. فقد رأيتك على هذا النحو، ولا أزال أراك، وسأظل أراك لفترة طويلة: بينما يستمر الشتاء، في الغسق، عبر سقوط الثلج المسائي المائل أو عبر الظلام، الذى لم يكد يغير من درجات سواده، كنت أنت تتقدم دوما إلى الأمام ما يمكن عده من فوق إلى تحت ذهابا وإيابا بواحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة أزرار للمعطف بلون العفن الأخضر تنزل طريق الدببة: شبح نحيف، يستطيع في كل الأحوال أن يفزع الأطفال والجدات ويحاول أن يلهيهم عن عاهته، التي تظل على أية حال محجوبة في ظلمة الليل؛ لكنك فكرت: ما من سواد يستطيع ابتلاع هذه الثمرة المكتملة، فكل واحد يراها يتوقعها يحسها، يود أن يلمسها، لأنها في متناول اليد؛ ليت الشتاء ينتهي قريبا – أريد أن أعاود الغطس وأكون تحت الماء.

ما أن جاء الصيف بالفراولة والأخبار الخاصة والطقس الملائم للسباحة، حتى رفض مالكه أن يسبح. في منتصف حزيران سبحنا أول مرة إلى الزورق، ولم تكن لنا كلنا رغبة كبيرة في ذلك. لقد أغضبنا تلاميذ السنة الرابعة والخامسة الثانوية، الذين سبحوا إلى الزورق قبلنا ومعنا، وجلسوا متجمهرين فوق الجسر، وغطسوا وأخرجوا آخر مفصلة يمكن فكها. أما مالكه، الذى كان عليه ذات مرة أن يتوسل إلينا:

– دعوني أسبح معكم، فإني الآن أستطيع السباحة! فقد أخذنا، أنا وشيلينغ، نضايقه:

– تعال معنا. لا شيء يحدث بدونك. في وسعنا أن نتشمس فوق الزورق أيضا. لعلنا نجد شيئا رائعا تحت.

وبعد أن أومأ مالكه بالنفي عدة مرات، دخل، على كره منه، الماء الدافئ بين الشاطئ والرصيف الرملي الأول تحت الماء، وسبح دون مفل، وبقي بيننا، على بعد ذراعين خلف هوتن زونتاغ، ثم تجاوزنا بهدوء وتمدد في الماء لأول مرة دون تشنج ولا نضح بالماء. جلس فوق الجسر في الظل خلف بيت البوصلة ولم يكن من الممكن حمله على الغطس. لم يلتفت أيضا عندما غطس طلاب السنة الرابعة والخامسة وعادوا من مقدم السفينة حاملين بأيديهم بعض التوافه. على أن مالكه كان في وسعه أن يعلم الشبان. لقد أراد بعضهم أن يشير عليهم بشيء ما – لكنه لم يكد يرد عليهم. الواقع أن مالكه كان ينظر دائما بعينين متقلصتين إلى البحر الممتد أمامه في اتجاه عوامة إرشاد السفن، لكنه لم يكن يشغل ذهنه لا بسفن الشحن القادمة إلى الميناء ولا بالزوارق الشراعية المغادرة له ولا بسفن الطربيد المبحرة أسرابا. غير أن الغواصات كانت تحمله على الحركة في كل الأحوال. في بعض الأحيان كان منظار الغواصة يرى على البعد في داخل البحر وهو يشق خطوط زبد الأمواج الواضحة. كانت الغواصات، التي تبلغ حمولتها سبعمائة وخمسين طنا،

تبنى في دفعات في ترسانة شيشاو البحرية، وتقوم بالرحلات التجريبية في الخليج أو خلف هيلا، وتغوص في الممر الملاحي، وتتجه نحو مدخل الميناء، وتبعد السأم عن نفوسنا. كان منظر خروجها من الماء جميلا: يظهر أولا منظارها، وما يكاد البرج يظهر حتى يلفظ مياه البحر مرة أو مرتين. كانت الأمواج تنساب جداول بيضاء باهتة من مقدم الغواصة، ثم من سطح مؤخرتها: يدب الملاحون من كل الكوى، فنصرخ ونلوح لهم بأيدينا – لست متأكدا مما إذا كان ثمة رد من الزورق على تلويحتنا، رغم أنني لما أزل أرى التلويح كحركة بكل تفاصيلها، وأعيشها مرة أخرى توترا في مفصل كتفي؛ لكن سواء أكان هناك رد على تلويحتنا أم لم يكن: فإن خروج غواصة من الماء يصيب القلب ولا يكف عن ذلك – مالكه وحده لم يلوح بيده أبدا.

...وذات مرة – كان ذلك في شهر حزيران، قبل العطلة الصيفية الكبيرة وقبل أن يلقي النقيب محاضرته في قاعة مدرستنا – غادر مالكه ظله، لأن تلميذا من تلاميذ السنة الرابعة الثانوية لم يستطع أن يصعد من الزورق، فنزل إلى الكوة في مقدم السفينة وسحب الشاب إلى فوق. كان قد وجده في وسطها، أمام غرفة المحرك، تحت السطح بين الأنابيب وحزم الأسلاك، وكان شيلينغ وهوتن زونتا غ قد تناوبا، حسب رواية مالكه، العمل بعده على مدى ساعتين.أخذ تلميذ السنة الرابعة الثانوية يستعيد لونه شيئا فشيئا، إلا أنه كان لا بد من سحبه أثناء العودة سباحة.

عاود مالكه الغطس بجنون في اليوم التالي، ولكنه كان يفعل ذلك دون مفل. تملكته سرعته القديمة، فسبقنا ونحن نسبح إلى هناك. وكان هو قد غطس تحت الماء عندما بلغنا نحن الجسر.

كان الشتاء بجليده وعواصفه الشديدة في شهر فبراير قد نزع صندوق المركب، والركائز البارزة، وسقف بيت البوصلة، ولم ينج من الشتاء سوى سلح النوارس المتيبس الذى كان قد تكاثر. لم يُخرج مالكه من تحت الماء شيئا، ولم يجب أيضا حين كنا نخترع أسئلة جديدة على الدوام. على أنه لم يخرج من الماء في وقت متأخر من المساء، وكان ذلك بعد أن غطس عشر مرات أو اثنتي عشرة مرة، فأتلف أعصابنا بعد أن كنا قد أرخينا أعضاءنا استعدادا للعودة.

لو قلت الآن خمس دقائق استراحة، فلن يعني ذلك شيئا على الإطلاق؛ لكن بعد حوالي خمس دقائق طويلة كسنوات، ملأناها ونحن نجرض بريقنا، حتى أصبحت ألسنتنا سميكة في مغارات جافة، صعدنا الواحد بعد الآخر إلى الزورق: لا شيء في مقدمه، سوى أسماك الرنجة. وغامرت لأول مرة خلف هوتن زونتاغ عن طريق الحاجز العازل داخل الزورق، وفتشت بشكل سطحي في قاعة الضباط القديمة، وكان علي أن أصعد فاندفعت خارجا عبر الكوة وأنا أكاد أنفجر، وغطست مرة أخرى، وتسللت مرتين أخريين داخل الحاجز العازل، ولم أكف عن الغطس إلا بعد مرور حوالي نصف الساعة. كان هناك ستة أو سبعة أفراد قد انبطحوا فوق الجسر لاهثين. وكانت النوارس تضيق من دائرتها على الدوام، فلا بد أن تكون قد لاحظت شيئا ما. ولحسن الحظ لم يكن تلاميذ السنة الرابعة الثانوية فوق الزورق. صمت الجميع أو تحدثوا معا. وكانت النوارس تلقي بنفسها جانبيا، ثم تكر عائدة. وهيأنا كلمات نقولها للقيّم على المسبح، ولأم مالكه، ولعمته، ولمدير الثانوية كلوزه، فقد كان من المتوقع أن يتم استنطاقنا في المدرسة. لقد طلبوا مني، لأني كنت تقريبا جارا لمالكه، أن أزور الجادة الشرقية، وكان على شيلينغ أن يكون المتحدث أمام القيم على المسبح وفي المدرسة.

– إذا نحن لم نعثر عليه، فإن علينا أن نسبح بإكليل إلى عرض البحر ونقيم حفل تأبينه هنالك.

– علينا أن نجمع المال. يدفع كل واحد منا خمسين بفينغا على الأقل.

– إما أن نرمي به من على ظهر السفينة أو نغرقه في مقدمها.

قال كوبكا:

– وعلينا أن نغني أيضا.

غير أن تلك القهقهات المدوية، التي أعقبت اقتراحه، لم تصدر عن أي منا: كان الضحك آتيا من داخل الجسر. وبينما كنا نتحاشى النظر إلى بعضنا، وننتظر أن تتكرر تلك القهقهات، كان ثمة ضحك عادي في مقدم الزورق لم يعد ضحكا مجوفا. لقد اندفع مالكه من الكوة والماء يقطر من مفرق شعره في وسط رأسه، ولم يكن يتنفس بصعوبة، وفرك الحروق الجديدة التي أحدثتها الشمس في رقبته وفي كتفيه أيضا، وقال في تذمر فيه من حسن النية أكثر مما

فيه من الاحتقار:

– أتراكم ألفتم خطبة وأخبرتموهم بغيابي؟

قبل أن نعود سباحة – كان فينتر قد أخذ بعد هذه القصة المزعجة بفترة قصيرة يبكي بكاء متشنجا وكان لا بد من تهدئته – صعد مالكه مرة أخرى إلى الزورق. وبعد ربع ساعة – كان فينتر لا يزال يشهق باكيا – صعد ثانية فوق الجسر وكان يحمل سماعة كانت لا تزال سليمة تماما كما تبدو من الخارج، ولم يكن يبدو عليها التلف، مثل تلك التي يحملها عمال اللاسلكي، فوق أذنيه الاثنتين؛ كان قد وجد بوسط السفينة مدخلا يفضي إلى مكان يقع داخل جسر القيادة فوق سطح الماء: قمرة اللاسلكي القديمة في زورق البحث عن الألغام. قال مالكه إن أرضيتها كانت جافة، رغم أنها كانت متجمدة قليلا. واعترف أخيرا بأنه كان قد عثر على مدخل القمرة عندما حرر تلميذ السنة الرابعة الثانوية من بين الأنابيب وحزم الأسلاك.

– لقد موهتها ثانية جيدا. لن يعثر عليها أحد. لكن عملي فيها كان كثيرا. إنها ملكي الآن، تلك الحجرة، ينبغي أن يكون هذا في علمكم الآن. إنها مريحة جدا، يمكنني أن أقيم فيها حين أكون ذات يوم في مأزق. لا تزال بها تقنيات كثيرة، إذاعة وغير ذلك. يجب أن يشغلها المرء من جديد. وسأحاول ذلك بين الحين والحين.

ولكن ذلك لم يتم لمالكه أبدا. لم يحاول ذلك أيضا. لا ريب أن ذلك لم يتم له، عندما كان يعمل تحت الماء وبصورة سرية. مع أنه كان ماهرا في ممارسة هواياته، وكان يفهم الكثير من أساليب بناء النماذج، فإن خططه لم تدل أبدا على اتجاه تقني؛ ثم إنه كان في إمكان شرطة الميناء أو البحرية العثور علينا فيما لو أن مالكه شغل الإذاعة من جديد وعمل على إرسال كلمات في الهواء.

كان بالأحرى قد جمع من القمرة كل الأدوات التقنية المستهلكة، وقدمها هدية لكوبكا وإيش وتلاميذ السنة الرابعة الثانوية، ولم يحتفظ لنفسه إلا بالسماعة، التي وضعها فوق أذنيه قرابة أسبوع ثم رمى بها من على ظهر الزورق، عندما بدأ بصورة منتظمة يجهز قمرة الإذاعة اللاسلكية تجهيزا جديدا.

كانت له كتب – لست أدرى أيها كانت، لكني أعتقد أنها كانت تحتوي على

«تسوشيما» (للكاتب الألماني فرانك تيس)، وهي رواية عن معركة بحرية، وجزء أو جزئين من مؤلفات دفينغر، وكان من بينها أيضا كتب دينية – ربطها في أغطية صوفية مهترئة، ورزمها وغلفها في مشمع، وطلى مواضع الخياطة بالزفت أو القطران أو الشمع، ووضعها على خشبة طافية، ونقلها سباحة إلى الزورق، وقد قدمنا له نحن مساعدة جزئية في ذلك. لقد زعم أنه استطاع أن يحمل الكتب والأغطية إلى القمرة من غير أن يصيبها البلل تقريبا. كان الشحنة التالية تتكون من الشموع، وموقد الكحول، والوقود، وقدر من الألومنيوم، والشاي، ومبروش الشوفان والخضراوات الجافة. كثيرا ما كان يغيب عنا أكثر من ساعة ولا يرد علينا، حين كنا نود أن نرغمه على الرجوع عن طريق ما نقوم به من دق همجي. كنا طبعا معجبين بمالكه، لكنه لم يكد يولي ذلك أي اهتمام، وتقلصت كلماته إلى مقاطع، ولم يسمح لنا بمساعدته في نقل ملابسه. عندما تناول الصورة الملونة المستنسخة لمريم السكستينية، التي كنت على علم بوجودها عنده، من غرفته في الجادة الشرقية، وأخذ يلفها أمام أعيننا، وأدخلها في انبوب مجوف من النحاس الأصفر مما يستعمل لتعليق الستائر، ودهن نهايتيه المفتوحتين بالطين الاصطناعي، ونقل فيه السيدة العذراء إلى الزورق أولا ثم أدخلها إلى القمرة، عندئذ فقط عرفت من أجل من كان يتعب كل هذا التعب، ويعاني كل هذا العناء، ولمن جهز هذه القمرة حتى تكون صالحة للسكن.

لا بد أن المستنسخة السكستينية لم تسلم من الضرر بعد الغطس – أو أن ورقها عانى بشكل واضح في ذلك المكان المتجمد ولعله صار يقطر ماء، فالهواء لا يصله إلا بشكل غير كاف، لأنه لم تكن له لا عيون جانبية ولا كان له منفذ إلى ثقوب التهوية التي كانت المياه قد غمرتها على أية حال. كان مالكه يحمل، بعد أن مرر جهاز الطباعة بالألوان إلى القمرة ببضعة أيام، شيئا في عنقه: لم يكن مفلا، وإنما كان شارة برونزية ذات نقش مسطح لما يسمى بمريم العذراء السوداء المعلقة في تشينشتوخاو – كان لها خرم تعلق منه – في شريط الحذاء الأسود تحت الترقوة مباشرة. رفعنا حواجبنا بنظرات ذات مغزى وفكرنا، سيبدأ الآن بقصص مريم العذراء من جديد، عندئذ اختفى مالكه، ونحن لم نكد نجلس فوق الجسر ونجف، في مقدم الزورق، لكنه عاد

ليظهر ثانية بعد حوالي ربع ساعة دون شريط الحذاء في عنقه ودون شارة وكان يبدو عليه الرضا خلف بيت البوصلة.

لقد صفر. لأول مرة سمعت مالكه يصفر. طبعا لم يصفر لأول مرة. وإنما كان قد خطر ببالي لأول مرة أنه يصفر، وبذلك كور شفتيه لأول مرة حقا؛ ولكني، وكنت الكاثوليكي الوحيد فوق الزورق - عداه هو -، شاركته وحدي الصفير: كان يصفر أغنيات عن مريم العذراء الواحدة بعد الأخرى، وزحف نحو بقايا سور المركب وبدأ يدق جدار الجسر المطقطق بمزاج مرح يفرض نفسه، وقدماه معلقتان في الهواء، ثم يدق بزمجرة خافتة، ولكن من غير توقف، ترنيمة «تعال، أيها الروح القدس» وبعدئذ - وكنت قد انتظرت ذلك منه - بدأ يردد ترنيمة الجمعة قبل أحد السعف. كل هذه المقاطع، من «واقفة كانت الأم (مريم العذراء) المتألمة» إلى «مجد الجنة» و«آمين»، وقد رتل ذلك من غير تعقيد؛ وكان في إمكاني أنا الذى كنت في السابق مساعدا نشيطا، ولم أعد أظهر عند صاحب الغبطة غوزيفسكي فيما بعد إلا في زيارات متقطعة، ترديد بدايات هذه المقاطع في كل الأحوال.

لكن مالكه كان يرسل لغته اللاتينية إلى النوارس في الأعالي، وكان الآخرون: شيلينغ، وكوبكا، وإيتش، وهوتن زونتاغ، وغيرهم ممن كانوا هناك، قد اعتدلوا في جلستهم، وراحوا يستمعون ويهتفون إعجابا:

- رائع!

- ها هي الدهشة تعقد ألسنتكم!

وطلبوا من مالكه أن يعيد على مسامعهم «واقفة كانت الأم»، مع أن الشباب لم يكونوا يبعدون عن أي شيء بعدهم عن اللغة اللاتينية والنصوص الكنسية.

لم يكن في نيتك، فيما أعتقد، أن تحول قمرة اللاسلكي إلى كنيسة مريم. فأغلب الأسمال التي نقلتها إلى تحت، لم تكن لها أية علاقة بها. ومع أنني لم أشاهد حجرتك أبدا - لأننا لم نتمكن من ذلك ببساطة -، فإني أتصورها نسخة مصغرة من حجرتك تحت السقف في الجادة الشرقية. نباتات الغرنوق والصبار وحدها، التي كانت عمتك تضعها فوق حافة النافذة وفوق منصة الصبار المدرّجة، وغالبا ما تم ذلك رغما عنك، لم تجد لها مكانا في قمرة

اللاسلكي السابقة بالمركب، وفيما عدا ذلك كان الانتقال إليها قد تم بشكل مرض تماما.

بعد الكتب وأدوات المطبخ كان لا بد أن تنتقل نماذج السفن، سفينة «الصرصار» المسلحة تسليحا خفيفا وسفينة الطوربيد من طراز - فولف، قياس: ١٢٥٠ إلى ما تحت سطح الزورق. وأرغم الحبر وعددا من ريش الكتابة، والمسطرة، والبرجل المدرسي، ومجموعته من الفراشات، والبومة البيضاء المحشوة على الغطس معه. وأفترض أن الأثاث الذى وضعه في الصندوق الذي تكثف على جدرانه البخار، أصبح شيئا فشيئا تافها. ولا بد أن تكون الفراشات الموضوعة في علب السجائر المزججة، التي لم تكن قد تعودت على غير الهواء الجاف في حجرته تحت السطح، قد عانت من الرطوبة بوجه خاص.

لكن لعبة الانتقال عديمة المعنى والمدمرة عن وعي، التي استغرقت أياما متتالية، هي بالذات ما أثار إعجابنا؛ وأعاد دأب يؤاخيم مالكه مكونات زورق بولوني سابق للبحث عن الألغام كان قد فكها بجهد خلال صيفين سابقين، الى الزورق شيئا فشيئا - وقد ثبت لافتة العمل الصغيرة، التي تمثل العجوز بيلزودسكي الطيب، إلى أسفل - وجعلنا بذلك، رغم وجود تلاميذ السنة الرابعة المزعجين الصبيانيين، نعيش صيفا مسليا ومشوقا فوق الزورق، الذى لم تدم الحرب بالنسبة إليه سوى أربعة أسابيع.

لكي أسوق مثلا على ذلك أذكر ما يلي: لقد وفر لنا مالكه الموسيقى. ذلك الحاكي، الذى كان في صيف أربعين، بعد أن قطعنا معه الطريق إلى الزورق ربما ست أو سبع مرات، قد أخرجه من مقدمه أو من غرفة طعام الضباط بعد أعمال دقيقة مرهقة، وقام بتصليحه في حجرته، وجهزه من جديد بقرص أسطوانة مغطى باللباد، ووضعه مع دستة من الأسطوانات بوصفه آخر بضاعة تنقل إلى ما تحت سطح الزورق، ولم يستطع أثناء العمل، الذى دام يومين، الامتناع عن حمل ذراع إدارة الصندوق في شريط الحذاء المعهود حول عنقه.

لا بد أن يكون الحاكي والأسطوانات قد خرجت سالمة من رحلتها عبر

مقدم الزورق وعبر الحاجز العازل والوصول إلى وسطه ثم صعودها إلى قمرة اللاسلكي في الأعلى. في فترة ما بعد الظهر نفسها، التي أنهى فيها مالكه نقل أغراضه على مراحل، فاجأنا بموسيقى جوفاء دائمة الخشخشة آتية من هنا وهناك، ولكنها كانت تأتي دوما من داخل الزورق. كان في وسع هذه الموسيقى لصخبها وشدتها أن تخفف من ضغوط المسامير والأغطية الخشبية. لقد انكمشت جلودنا رغم أن الشمس كانت لا تزال فوق الجسر، وإن كانت منحرفة. صرخنا طبعا:

– كفى!

– عليه أن يواصل!

– ضع أسطوانة أخرى!

وكان لنا أن نسمع سلاما شهيرا على مريم بطول اللبان، جعل البحر المتموّج أملس؛ ما كان ليفعل ذلك دون مريم العذراء.

ثم سمعنا أغنيات وافتتاحيات موسيقية – هل سبق لي أن قلت أن مالكه كان يحب الموسيقى الجادة حبا كبيرا؟ –، وعلى أية حال فقد استمعنا إلى موسيقى مثيرة مستمدة من «توسكا»، إلى شيء خيالي للموسيقار هومبردينك وقطعة سيمفونية تصاحبها دادادا داااه، التي كانت مألوفة لدينا مما يطلبه المستمعون، آتية من الداخل إلى الخارج.

كان شيلينغ وكوبكا يطالبان بسماع شيء غير عادي، لكنه لم يكن يملك ذلك. ولم يحدث فينا أروع الأثر إلا عندما وضع تحت أسطوانة المغنية زاره لياندر. لقد ألقى بنا صوتها الصاعد من تحت الماء مسطحين فوق المشبك وسلح النوارس المحدودب. لم أعد أدري ماذا غنت. كانت الأغاني كلها متشابهة. لكنها غنت أيضا شيئا من مسرحية غنائية كنا قد عرفناها من فيلم «الوطن.» وغنت «آه، لقد أضعتها.» وبغمت «الريح روت لي أغنية.» وتنبأت: «أعرف أن معجزة قد تحدث ذات يوم.» كان في قدرتها أن تصرخ وتستحضر العناصر، وقدمت لنا كل الساعات اللينة الممكنة: وبلع فينتر ريقه، وانتحب باكيا بشكل علني تقريبا، لكن كان على الآخرين أيضا أن يشغلوا أنفسهم برموشهم الدامعة.

كانت هناك إضافة إلى ذلك النوارس. إنها مصابة على الدوام بلوثة من أجل لا شيء على الإطلاق، وهي الآن قد أصيبت بالجنون في اللحظة التي كانت فيها زاره موضوعة في الأسفل فوق قرص الأسطوانة. كان لها صوت نفاذ، ينطلق من أرواح الموتى، من أصحاب الأصوات الصادحة، هناك في الأعالي فوق ذلك الدوي العميق الفريد من نوعه، الذى لا يمكن تقليده، والذى كان محبوبا في سنوات الحرب، على كل الجبهات وفي الوطن، صوت تلك الممثلة السينمائية المباركة المبكية بصوتها.

قدم لنا مالكه هذه الحفلة الموسيقية عدة مرات، إلى أن أصاب تلك الأسطوانات خلل، ولم يعد يخرج من الحاكي سوى غرغرة وخدش موجعين. حتى اليوم لم تستطع الموسيقى أن تمتعني متعة كبيرة، رغم أنني لا أكاد أتخلى عن حضور أية حفلة موسيقية في قاعة روبيرت شومان وعن شراء الأسطوانات الطويلة كلما كان لدي مال، ابتداء من مونتيفردي إلى برتوك. كنا نجلس حول الحاكي في صمت ومن غير شبع، وكنا نسميه: المقماق (المتكلم من بطنه.) لم يعد يخطر بأذهاننا مزيد من كلمات الثناء. كنا معجبين بمالكه حقا، ولكن الإعجاب به انقلب في غمرة الدوي المنبعث: فوجدناه منفرا يستحق أن يشيح المرء بنظره بعيدا عنه. ثم أشفقنا عليه على نحو معتدل حين هبطت طائرة شحن على ارتفاع منخفض. كنا أيضا نخاف مالكه، لأنه كان يقوم بدور الوصي علينا. وكان يخجلني أن يراني الناس في الطريق وأنا أسير معه. وكنت أشعر بالفخر عندما كانت أخت هوتن زونتاغ أو الصغيرة بوكريفكه تلتقيان بي أمام السينما أو في مرعى الجيش وأنا أسير إلى جانبك. لقد كنت موضوع حديثنا. وتراهنا:

– ماذا سيفعل الآن؟ فلنتراهن، إنه يعاني ثانية من آلام في حنجرته! أراهن على أي رهان كان: سيشنق نفسه ذات مرة أو يبرز على نحو عظيم تماما أو يخترع شيئا رائعا.

وقال شيلينغ لهوتن زونتاغ:

– قل لي بصدق، لو صاحبت أختك مالكه، إلى السينما وما أشبه ذلك، فماذا أنا فاعل – قل لي بصدق.

كان ظهور عريف البحرية وقائد الغواصة صاحب النياشين الكثيرة في قاعة مدرستنا الثانوية قد أنهى الحفلات الموسيقية في داخل «روبيتفا» الزورق البولوني السابق للبحث عن الألغام. ولو لم يأت لاستأنفت الأسطوانات والحاكي الضجيج أربعة أيام أخرى في كل الأحوال؛ لكنه جاء، وأوقف الموسيقى الآتية من تحت الماء دون أن يكون عليه زيارة زورقنا، وأعطى لكل الأحاديث عن مالكه اتجاها جديدا وإن لم يكن جذريا.

ربما يكون العريف قد حصل على البكالوريا حوالي سنة أربع وثلاثين. قيل إنه درس شيئا من علم اللاهوت والآداب الألمانية، قبل أن يتطوع في البحرية. لا مناص لي من القول أن نظرته كانت نارية. شعره كثيف مجعدا خشن، رأس شبيه برأس رومي. لم تكن له لحية غواصين، لكن حاجبيه كانا بارزين شبيهين بالسقف. وكان له جبين وسط بين الجبين المفكر والجبين المنقب، لذلك لم تكن له غضون أفقية، ولكن كان له خطان صاعدان من جذر أنفه يتطلعان باحثين عن الله. ينعكس الضوء في نقطة متطرفة من نتوئه البارز. أنفه دقيق حاد. وكان فمه، الذى كان يفتحه من أجلنا، فما متكلّما انسيابيا إلى حد ما. لقد امتلأت القاعة، بالشمس أيضا. كنا جالسين في أركان النوافذ. بناء على رغبة من يا ترى دُعي القسمان الثانويان في مدرسة غودرون لحضور محاضرة الفم المتكلم؟ كانت الفتيات جالسات في مقاعد الصف الأول، وكان عليهن أن يرتدين حمالات الثدي، ولكنهن لم يكن يرتدينها. في البداية لم يرد مالكه الذهاب معنا عندما أعلن البواب عن إلقاء المحاضرة. بحثت عن أوبرفاسر وتأبطت ذراعه، وإلى جانبي في الركن - وكانت أشجار الكستناء خلفنا وخلف الزجاج في ساحة المدرسة ساكنة - كان مالكه قد أخذ يرتعد قبل أن يفتح قبطان الحرّاقة فمه المتكلم. وكان باطنا ركبتي مالكه يضمان يديه بقوة: لكن الرعدة لم تزايله. وكانت الهيئة التدريسية، وكذلك مدرّستان من مدرسة غودرون، قد ملأت نصف دائرة من الكراسي

المصنوعة من الزان ذات المساند العالية والمخدات، كان البواب قد صفها بشكل منظم. جعل تصفيق مدير الثانوية مولر مدير الثانوية كلوزه يهدأ شيئا فشيئا. جلس خلف الجدائل المضاعفة وجدائل موتسارت لطالبات المدرسة الثانوية تلاميذ السنة الثالثة الثانوية والأمواس في حوزتهم: كانت فتيات عديدات قد أرسلن جدائلهن إلى الأمام، فلم يبق لتلميذات السنة الثالثة غير ضفائر موتسارت. كانت هناك في هذه المرة افتتاحية. فقد تحدث كلوزه عن كل الذين يقفون في الخارج، عن الكل في البر وفي البحر وفي الهواء، وتحدث طويلا بإسراف قليل عن نفسه وعن الطلاب في لانغمارك، وجاء على ذكر سقوط فالتر فليكس في جزيرة أوزل، وأورد هذا القول المأثور: «أدرك سن الرشد وابق نزيها: تلك فضيلة الرجل.» استشهد بعد ذلك مباشرة بفيشته أو آرنت: «لا حديث إلا عنك وعن عملك.» أتراه تذكر موضوع إنشاء نموذجي كان العريف قد كتبه وهو تلميذ في الثانوية عن آرنت أو فيشته؟

– واحد منا، من بيننا، تخرج من روح مدرستنا الثانوية، وبهذا المعنى نريد...

هل يتحتم علي أن أقول كم مرة تنقلت قصاصات الورق بيننا نحن الذين كنا نجلس في أركان النوافذ وبين طالبات الثانوية ذهابا وإيابا بطريقة معقدة أثناء كلمة كلوزه؟ طبعا كان تلاميذ السنة الثالثة يكتبون في أثناء ذلك كلماتهم القذرة.

كنت أرسل قصاصة لا أدرى ما كتب فيها إما إلى فيرا بلوتس أو إلى هيلدشن متول، لكني لم أتلق جوابا ولا غيره. وكان باطنا ركبتي مالكه لا يزالان يحاصران يديه. وكانت رعدته قد قطعت أشواطا أخرى. كان العريف جالسا فوق المنصة في شيء من الضيق بين المدرس العجوز برونيس، الذى كان يمص الحلوى دون حرج، وبين شتاخنيتس، مدرس اللغة اللاتينية. بينما كانت الافتتاحية تتقلص، وقصاصاتنا تتنقل، وتلاميذ السنة الرابعة يعبثون بأمواسهم، ونظرة صورة القائد تلتقي بنظرة البارون فون كونرادي في اللوحة الزيتية، وشمس الصباح تنزلق عن القاعة، راح العريف يبلل دون كلل فمه المتكلم الانسيابي قليلا، ويحدق متذمرا في الجمهور مستثنيا

تلميذات المدرسة الثانوية من ذلك في جهد. كانت قبعة قبطان الحرّاقة موضوعة كما ينبغي فوق ركبتيه المتوازيتين. وكان قفازه تحت القبعة. كان في بزة الخروج الرسمية. الوسام واضح في عنقه فوق قميص ناصع البياض على نحو فريد. كانت هناك حركات رأس مفاجئة بوسام ينقاد له نصف انقياد صوبَ نوافذ القاعة الجانبية: اختلج مالكه، إذ أحس أنه قد تم التعرف عليه، ولكن الأمر لم يكن كذلك. كان قائد الغواصة ينظر عبر تلك النافذة، التي كنا نجلس نحن في ركنها، إلى أشجار الكستناء المغبرة الساكنة؛ ترى فيم كان يفكر، فيم كان مالكه يفكر، فيم كان كلوزه يفكر، وهو يتحدث، فيم كان المدرس برونيس يفكر وهو يمص الحلوى، فيم كانت فيرا بلوتس تفكر، حين تنتقل قصاصتك إليها، فيم كانت هيلدشن متول تفكر، فيم كان يفكر هو هو هو، مالكه أو هو صاحب الفم المتكلم، هذا ما فكرت فيه في ذلك الحين أو أفكر فيه اليوم؛ كان من المفيد جدا أن نعرف فيم يفكر قائد غواصة، عندما يكون عليه أن يستمع ويجول بنظره دون خطين متصالبين يحددان الهدف وأفق متراقص، إلى أن يشعر التلميذ الثانوي مالكه بأن الأمر يمسه. لكنه كان يحدق فوق رؤوس تلاميذ الثانوية عبر زجاج النافذة المزدوج إلى الخضرة الجافة لأشجار ساحة المدرسة، ويبلل بلسان ذي حمرة فاتحة فمه المتكلم السابق الذكر، ذلك أن كلوزه حاول بكلمات مختصرة وبنفَس نعناعي، أن يرسل جملة أخيرة إلى ما بعد وسط القاعة:

– نريد الآن أن نستمع في الوطن بانتباه، إلى ما ستحدثوننا به، أنتم يا أبناء شعبنا، عن الجبهة، عن الجبهات.

لقد خيب صاحب الفم المتكلم ظننا. قدم النقيب أولا نظرة شاملة لا طابع لها كما يقدمها أي تقويم للأسطول: مهمة الغواصات. الغواصات الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى: فيدغن، الغواصة رقم ٩، غواصة تقرر مصير حملة الدردنيل، إجمالا ثلاثة عشر مليون طن، وبعد ذلك زوارقنا الأولى من ذوات الحمولة المقدرة بمائتين وخمسين طنا، والمحركات الكهربية المستعملة تحت الماء، وديزل المستعمل فوق سطح الماء، والاسم بريين، ثم جاء بريين بغواصة ٤٧، وحفر النقيب بريين «الفلين الملكي» في العمق – عرفنا كل

شيء، عرفنا كل شيء -، حتى «الرفض»، وشوآرت «الشجاع» إلى آخره إلى آخرهْ. لكنه راح يحدثنا عن الأشياء القديمة:

-... الطاقم جماعة أقسمت اليمين، إرهاق الأعصاب كبير بعيدا عن الوطن، وغواصتنا في عرض المحيط الأطلسي في البحر المتجمد، عبارة عن علبة من سمك السردين، كثيرا ما تكون ضيقة رطبة حارة، وعلى البحارة أن يناموا فوق الطربيدات الاحتياطية، لا يطفو شيء على سطح البحر لعدة أيام، أفق فارغ، ثم في النهاية قافلة بحرية، في حراسة مشددة، يجب أن يتم كل شيء من غير تعقيد، لا تزيد كلمة واحدة عما هو ضروري؛ عندما وصلت باخرتنا الأولى الناقلة للبترول «الأرنداله»، وحمولتها عشرة آلاف ومائتا طن، وكانت قد أنجزت عام سبع وثلاثين، لها جهازان في الوسط، عندها فكرت فيك، سواء أصدقت ذلك أم لم تصدقه، أيها الدكتور العزيز شتاخنيتس، وبدأت بصوت عال، من غير أن أغلق جهاز الصوت، من الذى من الذى من الذى، لمن لمن لمن... إلى أن دعاني قائدنا عن طريق جهاز الصوت: حسن جدا، أيها السيد قبطان الحرّاقة، لديك اليوم إجازة من المدرسة! لكن سفرة العدو لا تحتوي فقط على الهجمات، والماسورة الأولى والماسورة الثانية وهيا.. هيا، والبحر المعتدل طيلة أيام، وتدحرج الزورق وطقطقاته، وفوق ذلك سماء، سماء تسبب الدوار، أقول لكم، وهناك مغيبات الشمس...

لقد ملأ ذلك النقيب بالوسام المرتفع في عنقه محاضرته، مع أنه قد دمر مائتين وخمسين ألف طن إجمالي، وطرادا خفيفة من نوع - ديسباتش، ومدمرة من نوع - تريبال، وقدم من الأوصاف الطبيعية المعبرة أكثر مما قدم من أخبار الانتصارات التفصيلية، وأجهد نفسه أيضا في إيراد تشبيهات جسورة، فقال:

-... كان الزبد يتعالى فوق البحر خلف المؤخرة أبيض بشكل باهر، وكان يتبع القارب ذيل متموج ثمين يشبه عروسا مزينة بشكل احتفالي، تفيض فوقها أوشحة، تمضي إلى عرس يحمل الموت.

لم يخنق الفتيات من أصحاب الجدائل وحدهن الضحك؛ ولكن تشبيها تاليا محا صورة العروس من جديد:

– غواصة من هذا النوع تشبه حوتا أحدب، مقدمتها شبيهة بلحية فارس هوزاري مبرومة عدة مرات.

كان قبطان الحرّاقة يحسن إلى ذلك استعمال كلمات تقنية واقعية مثلما يحسن استعمال الكلمات الخرافية القاتمة. ولعله كان يلقي محاضرته على مسمع أستاذه السابق معلم اللغة الألمانية بابا برونيس، الذى كان مولعا بالشاعر أيشندورف، أكثر ما كان يلقيها علينا؛ وكان كلوزه قد ذكر موضوعاته الإنشائية أكثر من مرة. وهكذا سمعناه يغمغم «مضخة الربيع» و«راجل المجذاف.» وكان يعتقد أنه عندما يقول «البوصلة الأم» و«بنت البوصلة الدوارة» يقدم لنا أشياء جديدة. بينما كنا نحن نعرف مثل هذه الترهات البحرية منذ سنوات حق المعرفة. أما هو فقد تحدث على طريقة العمات اللائي يروين الحكايات الخرافية، ونطق بكلمتي «نوبة الحراسة»، وكلمتي «الحاجز العازل» أو التعبير المفهوم بشكل عام «البحر المزبد» همسا كما كان سيفعل أندرسن الطيب أو الإخوة غريم عن جهاز «كاشف ذبذبات الأعماق البحرية.»

غدا الامر مخجلا، حين بدأ برسم غروب الشمس:

– وقبل أن يمتد الليل الأطلسي فوقنا مثل إزار مسحور من الغربان، تتدرج ألوان، لم نرها في موطننا أبدا، تظهر برتقالة، مكتنزة ومضادة للطبيعة، ثم معطرة وعديمة الوزن، حواشيها ثمينة، مثلما نجدها في لوحات الرسامين القدامى، وبين ذلك سحب ذات رياش ناعمة؛ فيا له من ضوء غريب فوق البحر المتدحرج الدامي!

إذن لقد جعل من ذلك الوسام المتجمد في عنقه أرغنا من الألوان يدوي ويحف، قادما من لون الزرقة المائية مرورا باللون الأصفر الليموني المزجج إلى اللون الأرجواني المسود. كان الخشخاش عنده يتفتح في السماء. وبين ذلك غيوم صغيرة، فضية أولا، ثم يتغير لونها:

– ولتنزف الطيور والملائكة!

هكذا ما نطق به حرفيا فمه المتكلم، وجعل فجأة من الظاهرة الطبيعية الموصوفة وصفا جريئا ومن الغييمات الرعوية زورقا طائرا، من طراز

«سوندرلاند» يزمجر متجها إلى القارب، وافتتح، بعد أن تعذر على الزورق الطائر أن ينجز شيئا، بنفس الفم المتكلم، ولكن من غير تشبيه، القسم الثاني من المحاضرة، بشكل مقتصر جاف وقليل الأهمية:

– جلست فوق سرج منظار الغواصة. كنا نمضي نحو الهجوم. من المحتمل أن تكون باخرة ثلاجة: تغرق من مؤخرها. ونزلنا بالغواصة إلى عمق مائة وعشرة. وظهرت مدمرة على مائة وخمسين حسب تحديد الغواصة، عشرة على يسار الغواصة، ونأخذ خط السير الجديد مائة وعشرين، ويتم الرسو على درجة مائة وعشرين، فيتوقف صرير المسامير عن الحركة، ينطلق مرة أخرى، يتم قطع درجة مائة وعشرين، قنابل غائصة تحت الماء: ستة سبعة ثمانية أحد عشر: الضوء مطفأ، وأخيرا يشتعل ضوء الطوارئ وتتتابع أخبار واضحة من محطاتنا. أوقفت المدمرة. تحديد الاتجاه الأخير مائة وستون، عشرة على يسار السفينة. خط السير الجديد خمسة وأربعون درجة.

من المؤسف أن تكون قد أعقبت هذه الفقرة المثيرة حقا أوصاف أخرى للطبيعة مثل: «الشتاء الأطلسي» أو «أنوار بحرية في البحر الأبيض المتوسط»، وكذلك صورة حالة مزاجية «عيد الميلاد في الغواصة» إضافة إلى المكنسة التي تحولت بما هو ضروري إلى شجرة عيد الميلاد. وأخيرا ألف قصة الرجوع الصوفي بعد سفرة عدائية ناجحة مع أديسيوس وكل ما يتبع ذلك:

– النوارس الأولى تشير إلى قرب الميناء.

لست أدرى هل كان مدير الثانوية كلوزه قد أنهى محاضرته بالكلمات النهائية المعهودة لدينا:

– والآن إلى العمل!

أم قدمت أغنية:

– نحن نحب العواصف.

لكني أتذكر بشكل أفضل تصفيقا غير متحمس، ولكنه مليء بالاحترام، ووقوفا غير منتظم، بدأته الفتيات والجدائل. حين التفت إلى مالكه، كان قد

ذهب، ولم أر منه سوى مفرق شعره وهو يظهر أكثر من مرة أمام المخرج على اليمين، غير أنني لم أستطع الخروج من ركن النافذة في الحال والاتجاه إلى الألواح الخشبية الملمعة، لأن إحدى قدمي كانت قد تخدرت أثناء المحاضرة.

لم ألتق بمالكه ثانية إلا في حجرة حفظ الملابس قرب قاعة الألعاب الرياضية، غير أنني لم أجد الكلمة الأولى التي أبدأ بها حديثي معه. عند تبديل الملابس انتشرت إشاعات، لم تلبث أن تأكدت: لقد حظينا بالشرف، لأن النقيب طلب من أستاذه السابق في مادة الرياضة مالنبرانت، مع أنه لم يكن يمارس الرياضة تقريبا، أن يسمح له مرة أخرى بالمشاركة في الألعاب الرياضية في قاعة الرياضة القديمة الطيبة. في أثناء الساعة المضاعفة، التي ينتهي بها الدرس في يوم السبت دائما، وقد أرانا نحن أولا، ثم تلاميذ الصف الأول الثانوي، الذين كانوا يشتركون معنا في قاعة الرياضة ابتداء من الدرس الثاني، ما كان في مقدوره أن يفعله.

كان متين العود، له شعر طويل أسود، وجسم مكتنز. استعار من مالنبرانت سراويل التمارين الحمراء التقليدية والقميص الرياضي الأبيض ذا الخطوط الحمراء عند الصدر، التي رسم فوقها حرف ج أسود. عند تغيير الملابس التف حوله جمع من التلاميذ. أسئلة كثيرة:

–... هل تسمح لي برؤيته عن قرب؟ كم يستغرق الأمر؟ وإذا ما...؟ لكن صديقا لأخي، يعمل في الزوارق السريعة، قال...

كانت أجوبته تأتي في أناة. وكان أحيانا يضحك دونما سبب، ولكن بشكل معد. كانت حجرة حفظ الملابس تصهل ضحكا؛ لذلك خطر مالكه ببالي: لم يشارك في الضحك، كان مشغولا بطي قطع ملابسه وتعليقها.

ونادتنا صفارة مالنبرانت إلى القاعة الرياضية تحت أرجوحة التمرين. وأشرف قبطان الحرّاقة بمساعدة مالنبرانت على حصة الألعاب الرياضية، هذا يعني أنه لم يكن علينا أن نجهد أنفسنا، لأنه كان حريصا على أن يرينا أشياء، من بينها الموجة الكبيرة في الأرجوحة بالخروج المفرشح. ولم يصمد عدا هوتن زونتاغ سوى مالكه، إلا أنه لم يكن ثمة من يود النظر إليه، فقد أدى بشكل متشنج كريه وبركبتين ملتويتين الموجة والفرشحة. وعندما بدأ

قبطان الحرّاقة معنا تمارين أرضية خفيفة ومهيأة بعناية، كانت تفاحة آدم في عنق مالكه لا تزال ترقص في جنون كما لو كانت قد طعنت. وعند القفز إلى الماء بالرأس، الذى كان من الفروض أن يبدأه بدحرجة إلى الأمام، هبط بشكل مائل فوق الحصيرة، وفك رجله، وجلس بغضروفه النشيط جانبا فوق عارضة التسلق، ولا بد أن يكون قد انسل من بيننا، حين انضم إلينا تلاميذ السنة الأولى الثانوية عند بداية الحصة الثانية، ولم يشارك معنا ثانية إلا في لعبة كرة السلة ضد السنة الأولى الثانوية، وسجل في السلة ثلاثة أو أربعة أهداف؛ لكننا خسرنا رغم ذلك.

كانت قاعتنا الرياضية، وهي من الطراز القوطي الجديد تتخذ مظهرا احتفاليا على نحو مماثل تماما لكنيسة مريم في اسكوتلاندة الجديدة، التي احتفظت بطابع رياضي لقاعة رياضية سابقة مصممة تصميما حديثا. كل هذه الكمية من الجبس المزركش، والأبهة الكنسية المتبرع بها أراد صاحب الغبطة غوزينسكي وضعها في تلك الإضاءة الرياضية التي تدخل عبر جبهات النوافذ العريضة. عندما كان الوضوح يسود كل الأسرار هناك، كنا نحن نلعب في الغلس المبهم: كان لقاعاتنا الرياضية نوافذ ذات أقواس مدببة، تتقاسم زخارف آجرها المزجج الزهيرات والأسماك. بينما بقيت الطقوس المتبعة في كنيسة مريم من تضحية، واستحالة القربان، وتناول القربان تقام بشكل تام الوضوح ومن غير سحر ولا كلفة – كان من الممكن أيضا أن توزع بدل خبز الذبيحة أدوات تزيين الأبواب، والآلات أو الأجهزة الرياضية كما كان الأمر في السابق، مثل المضارب وعصي سباق التتابع –، نتج عنه في غمرة الضوء الصوفي في قاعتنا الرياضية الاقتراع البسيط على فريقي كرة السلة، اللذين أنهيا بلعبة استغرقت عشر دقائق حصة الألعاب باحتفال مؤثر أشبه ما يكون بتدشين القساوسة أو بعملية التثبيت الكنسية؛ وتم انصراف المقترعين إلى الخلفية المعتمة بخشوع كما لو أنهم كانوا يقومون بعمل مقدس. خصوصا عندما كانت الشمس تشرق في الخارج، فتجد بعض أشعتها الصباحية طريقها عبر أوراق أشجار الكستناء بفناء المدرسة، وعبر النوافذ ذات الأقواس المدببة، نشأ بفضل الضوء الجانبي المائل جو مؤثر

مريح حالما مورست ألعاب داخل الحلبات أو على الأرجوحة. حين أبذل جهدي، أرى حتى اليوم النقيب المتين البنيان في السراويل الرياضية الحمراء الخاصة بثانويتنا، وهو يتأرجح في العقلة بخفة وانسياب، أرى رجليه – وكان يقوم بالتمارين الرياضية حافي القدمين – ممتدتين بشكل سليم، تغرقان في شعاع شمس ذهبي، أرى يديه – فقد تعلق فجأة في العقلة بباطن ركبتيه – تمتدان نحو خط ضوئي عسجدي؛ إلى هذا الحد من الروعة القديمة كانت قاعتنا الرياضية، وحتى حجرات حفظ الملابس كانت تتلقى ضوءها عن طريق النوافذ ذات الأقواس المدببة. لذلك أطلقنا عليها اسم: الموهف (حجرة الملابس والمقدسات في الكنيسة.)

صفر مالنبرانت، فكان على تلاميذ السنة الأولى وتلاميذ السنة السادسة الثانوية أن يصطفوا بعد لعب كرة السلة وأن يغنوا لقبطان الحرّاقة: «في ندى الصباح نرحل إلى جبال فَالَّرا.» وتُركوا في حجرة حفظ الملابس، فتعلقوا في الحال بالنقيب، باستثناء تلاميذ السنة الأولى، الذين كانوا أقل إلحاحا. وبعد أن ارتدى قبطان الحرّاقة ملابسه الداخلية بحركات سريعة بعد أن غسل يديه وإبطيه بعناية في حوض الاغتسال الوحيد – إذ لم يكن لنا حمام ذو رشاش –، نزع عنه ألبسة التمارين الرياضية المستعارة دون أن نرى منه شيئا، وكان عليه أن يجيب من جديد عن أسئلة التلاميذ، وقد فعل ذلك ضاحكا، وبطيبة قلب، محتملا ذلك بشيء من التعالي، ثم يصمت بين سؤالين: يداه تتلمسان في ارتباك، وتبحثان، بشكل خفي أولا ثم علني، حتى تحت المقعد.

– لحظة أيها الشباب، سأعود إليكم فوق السطح حالا.

وفي سروال بحري أزرق، وقميص أبيض، دون حذاء، ولكن بالجوارب، دفع قبطان الحراقة نفسه عبر التلاميذ وصفوف المقاعد، عبر رائحة حديقة الحيوانات: بيت صغير للحيوانات المفترسة. كانت ياقته مفتوحة واقفة على استعداد لربطة العنق ورباط ذلك الوسام الذي لا أستطيع التعبير عنه. كان جدول التمارين الأسبوعية معلقا بباب غرفة المعلمين. دق الباب ودخل في الوقت نفسه.

هل هناك من لم يخمن مثلي أنه مالكه؟ لست على يقين مما كنت قد صحت في الحين، أو كان علي أن أصيح في الحين، لكني لم أصح بصوت عال على أية حال:

– أين مالكه؟

ولم يصح شيلينغ أيضا، وكذلك هوتن زونتاغ، فينتر، كوبكا، إيش، لم يصح أي واحد منهم؛ بل اتفقنا جميعا على بوشمان النحيف، وهو فتى لم يكن يستطيع التخلي عن ابتسامته الطبيعية الدائمة الشامتة حتى بعد أن يتلقى دستة من الصفعات.

عندما وقف مالنبرانت مرتديا معطف السباحة المخملي بيننا مع النقيب الذى كان قد ارتدى نصف ثيابه، وراح يصرخ:

– من فعل هذا؟ عليه أن يمثل أمامنا!

دفعنا بوشمان نحوه. وصحت أنا أيضا بوشمان، وقد كنت في وضع يسمح لي بأن أفكر في نفسي من غير كلفة: صحيح، لا يمكن أن يكون إلا بوشمان، ومن يمكن أن يكون غير بوشمان.

فقط في الطرف تماما، في خلفية رأسي، حين كان بوشمان يستجوب من عدة جهات، بينها قبطان الحرّاقة والمتحدث باسم السنة الأولى الثانوية، بدأ الدبيب. وترسخ عندما تلقى بوشمان الصفعة الأولى، لأن البسمة الشامتة أبت أن تتخلى عن وجهه حتى خلال الاستجواب. وبينما كنت أنتظر بعيني وسمعي اعترافا جليا واضحا من بوشمان، نما اليقين صعدا من رقبتي: ألا يمكن أن يكون هذا فلانا!

فقدت ترقبي لكلمة موضحة من بوشمان المبتسم في شماتة، سيما وأن كمية الصفعات التي تلقاها نمت عن حيرة مالنبرانت الذي لم يتحدث أيضا عن الشيء المفقود، وإنما كان يزعق بين الضربة والضربة:

– عليك أن تتخلى عن ابتسامتك الشامتة! لا تبتسم هكذا بشماتة! سأطرد عنك هذه البسمة الشامتة!

ولأذكر عرضا أن مالنبرانت لم يستطع أن يطرد عن بوشمان ابتسامته الشامتة هذه. لست أدري ما إذا كان بوشمان لا يزال موجودا اليوم، على أنه

إذا كان هناك طبيب أسنان أو بيطري أو طبيب مساعد يدعى بوشمان - كان هايني بوشمان يرغب في دراسة الطب - فسيكون الدكتور بوشمان المبتسم في شماتة؛ هذه البسمة الشامتة لا يمكن أن تضيع بسرعة، فهي دائمة، تعيش بعد الحروب والإصلاحات النقدية. كانت يومذاك، حين انتظر النقيب بياقة فارغة نجاح الاستجواب قد تفوقت على صفعات مدير الثانوية مالنبرانت.

رغم أن بوشمان كان قد استأثر بالأنظار كلها، التفت خفية إلى مالكه، ولم تكن بي حاجة إلى البحث عنه، لأني كنت أعرف من رقبته أين تختفي في رأسه تراتيل مريم. عندما انتهى من ارتداء ملابسه، لم يكن بعيدا، لكنه كان خارج الزحمة كلها، غلق أعلى زر في قميصه، الذى كان يبدو من حيث تفصيله وأشرطته أنه من مخلفات أبيه. كان يجد عند غلق الزر بعض العنت في حبس علامته خلفه.

كان مالكه، بغض النظر عن عبثه بعنقه وعضلات المضغ المساعدة على ذلك، يخلف في النفس انطباعا هادئا. وحين أدرك أن الزر لا يمكن أن يغلق فوق تفاحة آدم، أخرج من سترته، التي كانت لا تزال معلقة، ربطة عنق منكمشة. لم يكن ثمة من يرتدي ربطة عنق في صفنا. كان بعض المتعجرفين في السنة السابعة وفي السنة الأولى يضعون في أعناقهم فراشات مضحكة. قبل ذلك بساعتين، عندما كان قبطان الحرّاقة لا يزال يلقى من فوق المنصة محاضرته المولعة بالطبيعة، كان مالكه لا يزال يترك ياقة قميصه مفتوحة، إلا أن ربطة العنق كانت مكومة في جيب سترته العلوي تتربص بالفرصة الكبيرة.

الحفلة الافتتاحية الأولى لربطة عنق مالكه! أمام المرآة الوحيدة، الوسخة فوق ذلك، في حجرة الملابس، كان يخنق عنقه دون أن يقترب، بل عن بعد وبصورة شكلية، من الخرقة المزركشة الخالية من الذوق، على الصورة التي أراها بها اليوم، حول ياقة القميص القائمة، فقلّب الياقة، وراح ينتف مرة أخرى عقدة ربطة العنق الكبيرة جدا، ثم تكلم بصوت خفيض، ولكنه مؤكد فتميزت كلمته عن الاستجواب الذى كان لا يزال مستمرا، وعن أصوات تلك الصفعات التي كان مالنبرانت، رغم احتجاج النقيب، يكيلها دون كلل

وبجفاف لبسمة بوشمان الشامتة بشكل واضح:

– أراهن على أنه لم يكن بوشمان. ولكن هل فتش أحد ملابس بوشمان؟

كان لمالكه مستمعيه في الحال. على أنه كان يتكلم مع المرآة؛ لم تجلب ربطة عنقه، وهي حيلته الجديدة، الأنظار إليها إلا في فترة متأخرة، ولكن لم تكن ذات خصوصية معينة. فتش مالنبرانت بيديه ثياب بوشمان، وما أسرع ما وجد مسببا لضربه في بسمته الشامتة، فقد وجد في جيب سترته عددا من علب الكبابيد المفتوحة، كان بوشمان يتعاطى بها تجارة التجزئة في أقسام المدرسة الثانوية، لأن أباه كان عطارا. فيما عدا ذلك لم يجد مالنبرانت شيئا، وقد استسلم النقيب للأمر الواقع بسهولة، وغلق أربطته المميزة له بوصفه ضباطا، وارتدى الياقة، ونقر بإصبعه في الموضع الذى كان قد فرغ قبل ذلك من وسامه الرفيع، واقترح على مالنبرانت ألا تُؤخذ القصة مأخذ الجد إلى درجة كبيرة:

– من الممكن تعويض ذلك. إن ذلك ليس العالَم، أيها السيد المدير. ما هذا إلا مقلب من مقالب الشباب!

لكن مالنبرانت أمر بغلق القاعة الرياضية وحجرة حفظ الملابس، وفتش بمساعدة تلميذين من السنة الأولى الثانوية جيوبنا، كذلك كل زاوية في المكان، يمكن أن تكون مخبأ. كان النقيب قد ساعده في البداية بمرح، ثم نفد صبره، وفعل شيئا لم يجرؤ أحد على فعله في غرفة الملابس: دخن السجائر، الواحدة بعد الأخرى، وسحق أعقابها فوق الأرضية المشمعة، وبدا عليه الانزعاج، عندما دفع مالنبرانت نحوه في صمت مبصقة، كانت متروكة منذ سنوات قرب حوض الاغتسال وقد اغبرت وجرى تفتيشها باعتبارها مخبأ للحاجات المسروقة.

احمر وجه النقيب كما يحمر وجه التلميذ، ونزع السيجارة، التي لم يكد يبدؤها، من فمه المتكلم، ولم يعد يدخن، وإنما شبك ذراعيه، وراح بعدئذ يقرأ الوقت قراءة عصبية عندما أخرج بحركة جافة أشبه ما تكون بحركة ملاكم ساعة يده من كمه، وأظهر بذلك ما هو عليه من عجلة.

واستأذن في الانصراف وقفازه فوق أصابعه، وهو على مقربة من الباب،

وأوضح أن طريقة التحقيق هذه لا يمكن أن تنال إعجابه، وأنه سيحيل القصة المحنقة إلى مدير المدرسة، إذ ليس في نيته أن يترك الأوغاد يفسدون عليه عطلته.

رمى مالنبرانت بالمفتاح لأحد تلاميذ السنة الأولى الثانوية، ولكن التلميذ كان يفتقر إلى المهارة فتسبب في استراحة مزعجة عندما فتح باب حجرة حفظ الملابس.

أربكت التفتيشات التالية عصر يوم الأحد، ولم تؤد إلى نتيجة، ولم يعلق بذاكرتي من ذلك سوى بعض التفاصيل، التي لا تكاد تكون جديرة بالرواية، إذ كان علي أن أراقب مالكه، وكذلك ربطة عنقه المذكورة، التي كان يحاول من حين لآخر دفعها إلى أعلى، ولكن كان المرء في حاجة إلى مسمار ليسعد مالكه، لم يكن من الممكن مساعدتك.

وماذا عن النقيب؟ إذا كان لهذا السؤال ما يبرره، فإنه لن يجاب عنه إلا بكلمات جافة: لم يكن موجودا أثناء تفتيشات ما بعد الظهر، ومن الجائز أن تكون الظنون التي لم يتم تأكيدها أبدا صحيحة. يقال إنه دار على المحلات الثلاثة أو الأربعة الخاصة بتجارة الأوسمة في المدينة بمرافقة خطيبته. وقد زعم شخص من صفنا أنه رآه يوم الأحد التالي في «مقهى الفصول الأربعة»: لم يكن محاطا بخطيبته ووالديها فقط، ولم يكن ينقصه شيء في ياقته أيضا. لعل زوار المقهى قد لا حظوا في رهبة من كان يجلس بينهم ويحاول أن ينقص بالشوكة على نحو مؤدب الكعكة الصلبة للسنة الثالثة بعد الحرب.

لم يقدني يوم الأحد إلى المقهى. كنت قد وعدت صاحب الغبطة غوزينسكي بأن أكون صبي الهيكل خلال قداس الصباح. كان مالكه، بربطة عنقه المتعددة الألوان، قد وصل بعد السابعة بقليل ولم يستطع مع وجود العجائز الخمس المعتاد إخفاء فراغ القاعة الرياضية السابقة. كان يأخذ القربان دائما في أقصى الناحية اليسرى. لا بد أن يكون قد زار في المساء السابق، مباشرة بعد التفتيشات التي تمت في المدرسة، كنيسة مريم واعترف بخطاياه؛ أم تراك كنت في كنيسة قلب يسوع – قد همست لهذا السبب أو ذاك في أذن صاحب الغبطة فينكه؟

لقد أخرني غوزينسكي، وسألني عن أخي، الذى كان في روسيا، ولعله لم يعد هناك، إذ لم يصلنا منذ أسابيع أي خبر عنه. من الممكن أن يكون قد أهداني لفافتين من حلويات التوت الشوكي لأني كنت في هذه المرة قد كويت

كل معاطف صلاة الغروب والرداء الأبيض ونشيتها، والمؤكد هو: أن مالكه كان قد ذهب عندما تركت موهف الكنيسة. ولعله كان قد ركب الترام السابق. لقد ركبت أنا في ميدان ماكس هالبه في مقطورة التاسعة. ووثب شيلينغ ليركب في شارع ماغدبورغ عندما بدأ الترام يتحرك تقريبا. لقد كنا نتحدث عن شيء آخر تماما. ربما أكون قد قدمت له شيئا من حلويات التوت الشوكي التي أعطانيها صاحب الغبطة غوزينسكي. ولحقنا بهوتن زونتاغ بين ضيعة ساسبه ومقبرة ساسبه. كان يجلس فوق دراجة نسوية، وكانت الصغيرة بوكريفكه خلفه فوق مسند العفش. كانت الفتاة لا تزال تظهر فخذين ملساوين شبيهتين بفخذي الضفدعة، لكنهما لم تعودا مسطحتين في كل مكان. وقد أظهرت ريح السير مدى طول شعرها.

ولما كان علينا أن ننتظر الترام المعاكس عند تحويلة ساسبه، فقد سبقنا هوتن زونتاغ برفقة تولا على دراجته. وانتظرانا معا في محطة برونزن. كانت الدراجة مسندة إلى سلة المهملات التابعة لإدارة المسبح. كانا يلعبان دور الأخ والأخت، وقد شبك أحدهما ذراع الآخر: الخنصر بالخنصر. كان ثوب تولا أزرق أزرق كحليا، شديد القصر في كل مكان، شديد الضيق وشديد الزرقة. وكان هوتن زونتاغ هو الذى يحمل لفة معاطف الحمام وما أشبه ذلك. لقد عرفنا كيف ننظر إلى بعضنا البعض في صمت، وكيف نعرف الأمر على حقيقته ونستخرج من الصمت المشحون هذه الجملة:

– الأمر واضح، إنه مالكه لا غيره. وإلا فمن يكون إذن؟ هو الولد الرائع!

أرادت تولا أن تعرف شيئا أكثر دقة، فألحت ونقرت بإصبعها المدبب. ولكن أيا منا لم يتجرأ على أن يذكر ذلك الشيء باسمه، وبقي الأمر عند الجملة المقتضبة:

– وإلا فمن يكون غير مالكه؟

وكذلك جملة:

– الأمر واضح.

شيلينغ وحده، كلا، بل أنا الذي استعمل مصطلحا جديدا، قلت في الفجوة بين رأس هوتن زونتاغ ورأس تولا الصغير:

– مالكه العظيم. هو الذى فعل هذا. لا يمكن أن يكون إلا هو، مالكه العظيم.
وثبتنا على هذا اللقب. كانت قد فشلت بعد فترة قصيرة كل المحاولات السابقة، التي قمنا بها من أجل إلصاق كلمة مالكه بألقاب هزلية. لا أزال أتذكر منها «الدجاجة»؛ وقد أطلقنا عليه أيضا حين وقف بعيدا اسم «غلبان» أو«الغلبان» على أنه اتضح أن هتافي العفوي: «فعل هذا مالكه العظيم!» كان قادرا على الحياة. ومن هنا ينبغي أن يقال فوق هذا الورق بين الحين والحين «مالكه العظيم»، عندما يكون المقصود يؤاخيم مالكه.

وتخلصنا من تولا عند صندوق النقد. فقد ذهبت إلى مسبح السيدات، وقد شدت فوق كتفيها قماش الثوب. وظهر البحر من خلف البناية الأمامية لمسبح الرجال الشبيه بالشرفة شاحبا تظلله سحب خفيفة من النوع الذي يشي بطقس جميل، تسير متراخية. كانت حرارة الماء: تسع عشرة درجة. رأينا ثلاثتنا خلف الرصيف الرملي الثاني، من غير أن يتوجب علينا أن نبحث عنه، شخصا يسبح على ظهره ويقوم بحركات هوجاء مثيرا الكثير من الزبد في اتجاه البنايات العلوية لزورق البحث عن الألغام. لقد اتفقنا على أن يقوم واحد منا فقط باللحاق به. واقترحنا أنا وشيلينغ أن يكون هوتن زونتاغ، وكان هو يفضل أن يضطجع مع تولا بوكريفكه خلف واقية الشمس بالمسبح العائلي، وينثر رمل البحر فوق فخذيها الشبيهتين بفخذي الضفدعة، فادعى أنه أكل كثيرا عند الفطور:

– بيضا وأشياء أخرى. لجدتي في كرامبيتس دجاج، وهي تحضر عشية يوم الأحد في بعض الأحيان ما يقارب دستة من البيض.

لم يخطر على بالي شيء. كنت قد تناولت فطوري قبل القداس، وكان من النادر أن أمتثل لأمر الاعتدال وسلامة التقدير. ثم إنه لم يقل أحد لا شيلينغ ولا هوتن زونتاغ «مالكه العظيم»، أنا الذي قال ذلك، وسبحت خلفه ولم أسرع بشكل خاص.

وكاد أن يحدث نزاع فوق الممر بين مسبح السيدات والمسبح العائلي، لأن تولا بوكريفكه أرادت أن تسبح معنا، فجلست فوق السور رزمة من أعضاء. كان لا يزال يلتصق بها منذ الصيف تبان الأطفال الرمادي اللون المرقع

بخشونة في كل مكان منه: صدرها الصغير ممعوس، وفخذاها مشدودتان، وقد تشكلت بين ساقيها ثنية ظاهرة أعاد القماش رسمها. شفتاها وأصابع قدميها المنفرجة تشتم مستنكرة. تخلت تولا عن السباحة معنا مقابل هدية ما – كان هوتن زونتاغ قد همس في أذنها –، وثب أربعة أو خمسة تلاميذ من السنة الثالثة الثانوية، وكانوا سباحين ماهرين، كثيرا ما سبق لي أن رأيتهم فوق الزورق، إلى أعلى السور، وكان من المؤكد أنهم كانوا قد تشمموا شيئا ما، لأنهم كانوا يريدون الذهاب إلى الزورق، رغم أنهم لم يذكروا أن الزورق كان هدفهم، وقالوا:

– نحن نريد الذهاب إلى مكان آخر تماما. إلى مرطم الأمواج أو نقرر فيما بعد.

أبدى هوتن زونتاغ اهتماما بأمري:

– من سبح خلفه، صقلت بيضتيه صقلا!

انطلقت من الممر بقفزة رأسية مسطحة، ورحت أسبح مغيرا من وضعي في أغلب الأحيان، حين كنت أسبح وحين أكتب الآن حاولت وأحاول أن أفكر في تولا بوكريفكه، لأني لم أرد ولا أريد أن أفكر دائما في مالكه، لذلك سبحت مستلقيا على ظهري، ولذلك أكتب: سبحت على ظهري. فهكذا فقط استطعت وأستطيع أن أرى تولا بوكريفكه وقد برزت عظامها في صوف رمادي اللون وهي تقرفص فوق السور: ستغدو أصغر وأكثر جنونا وألما. ذلك أن تولا استقرت شظايا في لحومنا جميعا – لكنها كانت، عندما تجاوزت أنا الرصيف الرملي الثاني تحت الماء، قد انمحت، لم تعد هناك نقطة، ثقب، شظية ما، لم أعد أسبح بعيدا عن تولا، كنت أسبح في اتجاه مالكه، أكتب في اتجاهك أنت: سبحت على صدري ولم أكن على عجل.

وبين دفعتين سجلت – الماء يحمل حقا: كان يوم الأحد الأخير قبل العطلة الكبيرة. ماذا حدث يومذاك؟ كانوا قد أخذوا بلاد القرم، وعاد رومل إلى الظهور ثانية في شمال إفريقيا. كنا منذ عيد الفصح في السنة السادسة الثانوية. كان رش وهوتن زونتاغ قد تطوعا، والتحق كلاهما بالسلاح الجوي، ولكنهما التحقا فيما بعد بجنود الدبابات، وهم صنف أفضل من

المشاة، مثلي، أنا الذى ترددت وترددت، مرة أريد الالتحاق بالبحرية، ومرة أخرى لا أريد الالتحاق بها، ولم يلتحق مالكه بالجيش، فقد كان دائما يريد أن يكون استثناء. قال:

– إنكم مجانين!

وقد كانت لديه – كان يكبرنا بسنة – أحسن الفرص في أن يخرج قبلنا، لكن من يكتب لا يحق له أن يستبق الأحداث.

كنت أكثر ترددا وأنا أسبح المائتي متر الأخيرتين مترددا من غير أن أغير من سباحتي على الصدر، حتى أحافظ على قواي. كان مالكه العظيم جالسا كعادته في ظل بيت البوصلة، وكانت ركبتاه وحدهما في الشمس. لا بد أن يكون قد نزل مرة واحدة تحت الماء. كانت غرغرة بقايا افتتاحية موسيقية لا تنفك تترنح في الريح المتغيرة الاتجاه، وجاءت تستقبلني مع ما تحمله الأمواج من مستهلكات صغيرة. كانت هذه مؤثراته: كان يغوص إلى غرفته، ويدير ذراع الحاكي، ويضع الأسطوانة، ثم يطفو مرة أخرى والماء يقطر من وسط مفرقه، ويجلس في الظل يسمع الموسيقى، بينما كانت النوارس فوق الزورق تثبت بصراخها الإيمان بتناسخ الأرواح.

كلا، أريد الآن أن ألقي بنفسي مرة أخرى على ظهري قبل أن يفوت الأوان، وأتأمل سحبا شبيهة بأكياس البطاطس، كانت تسير دائما بشكل منتظم منطلقة من خليج بوتسينغ فوق زورقنا باتجاه الجنوب الشرقي وقد حرصت على أن توفر لنا ضوءا متبدلا وبرودة تتفق مع ما هي عليه من طول. لم أر بعد ذلك أبدا سحبا بهذا الجمال، بهذا البياض، بهذا الشبه بأكياس البطاطس – أو رأيتها فقط في ذلك المعرض الذى كان الأب ألبان قد أرانا إياه بمساعدتي قبل حوالي سنتين في بيتنا بكولبينغ: «أطفال خوريتنا يرسمون الصيف!»

لذلك أتساءل مرة أخرى قبل أن يصبح من الممكن مسك المشبك المعوج في زورقنا: لماذا أنا؟ لماذا لا يكون هوتن زونتاغ أو شيلينغ؟ كان من الممكن إرسال تلاميذ السنة الرابعة الثانوية إلى الزورق أو إرسال تولا مع هوتن زونتاغ. وكان من الممكن أيضا إرسال الجميع وبينهم تولا، تلاميذ السنة

الرابعة الثانوية بالدرجة الأولى، خصوصا واحد منهم، كان من أقارب تولا – فقد كان الجميع يسمونه ابن عم تولا – هم الذين كانوا يلاحقون الفتاة الضئيلة. لكنني سبحت بمفردي، وتركت شيلينغ يراقب، حتى لا يسبح خلفي أحد، ولم أكن على عجل.

أنا، بيلينتس – ترى ما علاقة اسمي بالمسألة؟ – كنت مرة صبي الهيكل في قداس الصلاة، أردت أن أكون كل ما لا أدري، وأنا الآن سكرتير في دار كولبينغ، لا أستطيع أن أتخلى عن هذا السحر، أقرأ ليون بلوي، والغنوصيين، وهاينريش بول، وفريدريش هير، وكثيرا ما أجد نفسي حائرا إزاء اعترافات القديس القديم الطيب أغوستينوس، وأتناقش ليالي طويلة مع الأب ألبان، وهو فرانسيسكاني متفتح، نصف مؤمن، أثناء تناول شاي شديد السواد، حول دم المسيح، والتثليث، وقداسة المعرفة، وأحدثه عن مالكه، عن مريمه العذراء، عن مفرق شعره، عن الماء المسكر، عن الحاكي، عن البومة البيضاء، عن المفل، عن كرات الصوف، عن الأزرار المضيئة، عن القط والفأر، وعن ذنبي أنا، وكذلك عن مالكه العظيم الذي يجلس فوق الزورق، وأنا أسبح دون عجالة على صدري وعلى ظهري للوصول إليه، فقد كنت الوحيد الذي صادقه تقريبا، إن أمكن أن يكون المرء صديقا لمالكه. لقد بذلت ما في وسعي على أية حال. لم أبذل ما في وسعي! كنت أجري من تلقاء نفسي إلى جانبه وإلى جانب أوصافه المتبدلة. لو أن مالكه قال: «افعل هذا وهذا!» لفعلت ذلك وأكثر منه. لكن مالكه لم يكن يقول شيئا، وكان يرضى مني بكل شيء دون كلمة ولا إشارة، عندما كنت أركض وراءه وأذهب لمرافقته من الجادة الشرقية، مع أن ذلك كان يشكل دورة كبيرة بالنسبة إلي، من أجل أن أذهب إلى المدرسة إلى جانبه. وعندما أدخل بدعة كرات الصوف كنت أنا أول من شارك فيها وحمل الكرات في عنقه. وحملت أيضا في عنقي مدة من الزمن، ولكن في البيت فقط، مفلا معلقا بشريط حذاء. وحين لم أكن أحرص على أن أبقى محبوبا لدى صاحب الغبطة غوزينسكي بصفتي صبي الهيكل في قداس الصلاة، رغم أن عقيدتي وكل الشروط الضرورية كانت قد فسدت منذ السنة الثانوية الرابعة، فما كنت أفعل ذلك إلا من أجل التحديق في حلقوم مالكه

أثناء تناوله القربان. لهذا، عندما حلق مالكه ذقنه لأول مرة بعد عطلة عيد الفصح عام اثنين وأربعين – كانت ثمة معارك بين حاملات الطائرات في بحر كورال –، حككت أنا أيضا ذقني بعده بيومين، مع أنه لم تكن قد نبتت لي لحية بعد، ولو كان مالكه قد قال لي بعد حديث قائد الغواصة: «اسرق منه ذلك الشيء المعلق بشريط، يا بيلينس!» لكنت تناولت ذلك الشيء بشريطه الأحمر الأبيض الأسود من المشجب واحتفظت لك به.

ولكن مالكه كان يهتم بشؤونه بنفسه، فيجلس فوق الجسر في الظل، ويستمع إلى بقايا موسيقاه المعذّبة تحت الماء: الخيالة الريفية – النوارس في الأعالي – والبحر أملس مرة، متموج مرة، وذو مويجات قصيرة مرة أخرى – سفينتان كبيرتان في الميناء – ظلال سحب مسرعة – في اتجاه بوتسين تسير مجموعة من القوارب السريعة: ست أمواج في مقدم السفينة، وبينه زوارق شراعية ذات صارية واحدة لصيد الأسماك – وبدأ الزورق ينق فسبحت على صدري ببطء، أنظر بعيدا بين بقايا ثقوب التهوية – كم كان عددها في الواقع؟ – وأراك أنت، قبل أن تلمس يداي المشبك، منذ ما يزيد على خمس عشرة سنة، أراك: أنت! أسبح، ألمس المشبك، وأراك أنت: مالك العظيم جالس في الظل دون حركة، والأسطوانة عالقة في القبو وهي دوم عاشقة لنفس المقطع، موشكة على الاستهلاك من كثرة الاستعمال، النوارس تطير، وأنت تحمل الشيء بالشريط في عنقك.

بدا مضحكا، لأنه لم يكن يرتدي شيئا أخر. لقد قعد في الظل عاريا، وقد برزت عظامه، واحترق جلده بفعل حرارة الشمس. كانت ركبته وحده وهاجة. وقد تسطح قضيبه الطويل نصف المنتصب وبيضتاه فوق المشبك وكان باطنا ركبتيه يضغطان على يديه. شعره خصل فوق أذنيه لكنه لا يزال مفروقا في الوسط، وإن كان سبب ذلك يعود إلى الغطس. كان وجهه يود أن يعلن: أن له سحنة المخلص – وفي الأسفل منه كقطعة لباس وحيدة، قطع الحلوى الجامدة، الكبيرة، الكبيرة جدا بمقدار عرض اليد تحت عظ الترقوة.

لا أزال أظن أن تفاحة آدم كانت بالنسبة إلى مالكه – على كثرة ما كان لدي

من محركات احتياطية – هي المحرك والكابح، فقد وجدت لأول مرة الوزن المعاكس لها بصورة دقيقة. كانت تنام هادئة تحت الجلد وكان عليها ألا تتحرك فترة من الزمن، لأن ما كان يريحه ويتقاطع على شكل متوازن كانت له قصة سابقة، إذ صممه (المهندس والرسام) شينكل الطبيب سنة ألف وثمانمائة وثلاث عشرة، حين كان المرء يدفع الذهب من أجل الحديد، محط النظر على الشكل التقليدي: تغييرات صغيرة عام سبعين وواحد وسبعين، تغييرات صغيرة بين عامي أربعة عشر وثمانية عشر وفي هذه المرة أيضا. ولكن لا علاقة لهذا بوسام الاستحقاق الذي طور من الصليب المالطي، مع أن رسم شينكل الخيالي كان في المرة الأولى يمتد من الصدر إلى الرقبة ويقدم التناظر كعقيدة.

– ما قولك يا بيلينتس! إنه لشيء جميل جدا، أليس كذلك؟

– رائع، دعني ألمسه!

– هل اكتسبته بجدارة – أو؟

– لقد فكرت رأسا أنك اختلسته.

– لم أختلسه! لقد منح لي يوم أمس، لأنني أصبت من القطار المرافق على خط مورمنسك خمسة سفن شاحنة إضافة إلى طرادة من نوع سوتهامبتون...

وانخرطنا في الحماقة، أردنا أن تكون أمزجتنا صافية، ورحنا نعوي بكل مقاطع أغنية إنجلتره، وألفنا مقاطع أخرى، ولكن نصوصها لم تحفر طبقا لكلماتها في خزانات ولا ناقلات، وإنما في فتيات ومعلمات بمدرسة غودرون الثانوية وسط السفينة، جعلت أرقام عمليات النسف، التي كان بعضها مخلا بالحياء وبعضها الآخر طنانا، تصر عبر الأيدي الجوفاء، فأخذن يضربن ظهر الجسر بقبضات الأيدي والمعازق: كان الزورق يدوي، ويخشخش، والسلح الجاف يتطاير، وأقبلت النوارس ثانية، ودخلت الزوارق السريعة الميناء، وكانت سحب بيضاء جميلة تسير فوقنا، في الأفق، في خفة مطارف الدخان، مجيء وذهاب، هناء، وميض، وما من سمك يثب، وبقي الجو لطيفا، وثب الشيء حقا، ولكن ليس بسبب البلعوم، وإنما لأنه كان يظهر

الحيوية في كل مكان وكان قد أصبح لأول مرة نزقا قليلا، ولم يكن له وجه المخلص، بل أقرب إلى من أصابته لوثة، فنزع الشيء من عنقه، وأمسك بحركات رشيقة نهايات الأربطة فوق عظام كفله، وترك قطعة الحلوى المعدنية الكبيرة تتأرجح أمام بيضتيه وقضيبه وهو يقلد بساقيه وكتفيه ورأسه المائل على نحو مضحك، فتاة، ولكن ليس فتاة معينة. لكن الوسام لم يستطع أن يحجب إلا أقل من ثلث أعضائه الجنسية.

وخلال ذلك – في الوقت الذى كانت فقرتك في السيرك قد بدأت تثيرني شيئا فشيئا – سألته عما إذا كان ينوي الاحتفاظ بذلك الشيء، فقال إنه من الأفضل له أن يحشر الجهاز في غرفته المظلمة تحت سطح الجسر بين البومة البيضاء والحاكي وبيلزودسكي.

كانت لمالكه العظيم خطط أخرى وقد نفذها. كان في إمكانه بعدئذ أن يحشر الوسام تحت سطح الزورق؛ أفضل من ذلك لو أنني لم أكن صديقا لمالكه أبدا؛ أو أفضل من هذا أيضا أن يكون الاثنان معا: يوضع الوسام في قمرة الاتصالات اللاسلكية، وأكون مرتبطا به بشكل مرتخ لا غير، بدافع الفضول ولأننا كنا في صف دراسي واحد، بمالكه – عندئذ ما كان علي الآن أن أكتب، ما كان علي أن أقول للأب ألبان:

– أكان الذنب ذنبي أنا، إذا كان مالكه فيما بعد قد...

لكني أكتب، فلا مناص لي من أن أتخلص من هذا. من المريح حقا أن يمارس الإنسان الفن البهلواني فوق الورق – ولكن فيم تساعدني السحب البيضاء، والنسائم، والزوارق السريعة الداخلة بصورة دقيقة، وحشد النوارس التي تعمل مثل جوقة يونانية؛ ما فائدة العمليات السحرية التي تتم عن طريق النحو؛ حتى ولو كتبت كل شيء بالحرف الصغير ومن غير وضع علامات الوقف، فإن علي مع ذلك أن أقول: لم يضع مالكه آنئذ ذلك الوسام في قمرة الاتصالات اللاسلكية السابقة بزورق البحث عن الألغام البولوني «روبيتفا»، ولم يعلقه بين المارشال بيلزودسكي وتمثال مريم العذراء السوداء، لم يعلقه فوق الحاكي المحتضر والبومة البيضاء المتفسخة، كان فقط يقوم لفترة قصيرة وقطعة الحلوى في عنقه، بينما كنت أنا أعد النوارس،

بزيارة تحت الماء، تستغرق نصف ساعة، ويتباهى - أنا متأكد من ذلك تماما- أمام مريمه العذراء بوسامه الأنيق. وأعاده عبر الكوة في مقدم الزورق إلى النور، وارتدى بمعلَّقه لباس السباحة، وعاد سابحا معي بسرعة متوازنة إلى المسبح، وهرَّب قطعة الحديد بيد مغلقة إلى شيلينغ، إلى هوتن زونتاغ، إلى تولا بوكريفكه،إلى تلاميذ السنة الثالثة الثانوية، لتصل إلى غرفته في مسبح الرجال.

وأوصلت إلى علم تولا وأتباعها من خلال كلمات بخيلة نصف الخبر، واختفيت بدوري في خلوتي، وغيرت ثيابي بسرعة، ولحقت بمالكه في موقف الخط رقم تسعة. حاولت أن أقنعه أثناء مدة سير الترام أن يسلم الوسام، إن كان لا بد من ذلك، شخصيا إلى النقيب، الذى كان من السهل معرفة عنوانه.

أعتقد أنه لم يكن يصغي إلي. وقفنا معا محصورين فوق فسحة المدخل. كانت هناك زحمة حولنا في وقت متأخر قبل ظهر يوم من أيام الآحاد. بين الموقف والموقف كان يفتح يده بين قميصي وقميصه، وكان كلانا ينظر بشكل مائل إلى الأسفل، إلى المعدن الأسود القوي ذي الشريط الذى كان لا يزال بعد مبللا ومدعوكا. وعلى مرتفع ضيعة ساسبة أمسك مالكه الوسام بصورة مؤقتة أمام عقدة ربطة عنقه، من غير أن يربط الشريط، وحاول أن يستعمل زجاج فسحة المدخل بمثابة مرآة. وووجهت نظرتي، طيلة توقف الترام في انتظار مرور ترام الاتجاه المعاكس، إلى إحدى أذنيه، وإلى مقبرة ساسبة المنهارة، مرورا بصنوبرات الساحل المنحنية في اتجاه المطار، وكنت محظوظا: لقد هبطت طائرة ضخمة ذات محركات ثلاثة من نوع يو ٥٢ بصعوبة وساعدتني.

ولكن كان لأناس يوم الأحد المسافرين في الترام ما يشغلهم عن النظر إلى عروض مالكه العظيم. كان لا بد من الصراع بصوت عال من فوق حافات المقاعد مع الأطفال الصغار، ومعاطف الحمام المكورة ومتاعب الشاطئ. وكانت مشاكسة الأطفال وبكاؤهم المبتدئ المتراجع المتصاعد المقهور المتحول إلى نوم مترجرج من فسحة المدخل الأول إلى فسحة المدخل الأخير

ذهابا وإيابا – وكذلك الروائح التي كان في مقدورها أن تزرع الحموضة في كل نوع من أنواع الحليب!

ونزلنا في محطة طريق برونسهوفر، وقال مالكه في احتقار إنه ينوي أن يزعج قيلولة المدرس فالدمار كلوزه؛ إنه ينوي أن يذهب بمفرده – وأنه لا جدوى من انتظاره أيضا.

كان كلوزه يسكن – وقد كان هذا معروفا – في جادة باومباخ. صاحبته عبر النفق المبلط تحت جسر سكة الحديد، ثم تركت مالكه العظيم ينصرف: لم يكن يسير بسرعة، بل كان يسير في خط متعرج تعرجا خفيفا. وكان قد أمسك في يسراه نهايتي الشريط بين الإبهام والسبابة، وأدار الوسام واستعمله كرفاس وقوة دافعة في اتجاه جادة باومباخ.

يا لها من خطة ملعونة وتنفيذ ملعون! ليتك رميت بذلك الوسام في أشجار الزيزفون: كان في ذلك الحي الذي تظلله الأشجار المورقة ما يكفي من طيور العقعق التي كانت ستستولي على الشيء وتحمله إلى ذخيرتها السرية، إلى ملعقة الشاي الفضية، إلى الخاتم وإلى المشبك، وإلى التوافه الكبيرة.

تغيب مالكه يوم الاثنين. دارت الإشاعات في الصف. قدم المدرس برونيس درس اللغة الألمانية. لقد عاد يمص من جديد أقراص فيتامينات السيبيون التي كان عليه أن يوزعها على التلاميذ. كان ديوان آيشندورف مفتوحا أمامه. جاء كلامه غير الواضح، كلام رجل عجوز، حلوا دبقا: بضع صفحات من حياة شخص لا يصلح لشيء لآيشندورف، ثم قصائد عجلة الطاحونة، والخاتم الصغير، والمنشد الجوال – قد سافر رفيقان قويان – هل تفضل غزالة على أخرى – تنام أغنية في الأشياء كلها – الهواء الدافئ يسيل أزرق. لا كلمة واحدة عن مالكه.

لم يحضر مدير الثانوية كلوزه غطاء الملفات الرمادي إلا يوم الثلاثاء، وقف إلى جانب المدرس إردمان – فرك هذا يديه في حيرة – وارتفع فوق رؤوسنا صوت كلوزه بنفس بارد: حدث عندنا ما لا مثيل له، وهذا في أوقات مصيرية يجب على الجميع أن يكونوا فيها متضامنين. وقد أبعد المعني – لم يذكر كلوزه أي اسم – من المدرسة، ولكن المرء قد غض الطرف عن إخبار جهات

أخرى بما حدث، قيادة المنطقة مثلا. مطلوب من التلاميذ كلهم أن يلتزموا صمتا رجوليا وأن يعوضوه بما يليق بكرامة المدرسة. فهذه رغبة أحد التلاميذ السابقين، النقيب البحري، قائد الغواصة وحامل كذا الى آخره...

لقد طرد مالكه حقا، ولكنه نقل – لم يطرد أثناء الحرب أي شخص من الثانوية بصفة نهائية تقريبا – إلى ثانوية – هورست – فيسل. وهناك أيضا لن تنشر قصته على الملأ.

كانت ثانوية هورست – فيسل تدعى قبل الحرب ثانوية ولي العهد فيلهلم، ورائحتها متربة مثل مدرستنا. كانت البناية في رأيي، وقد بنيت سنة ألف وتسعمائة واثنتي عشرة، تبدو من الخارج فقط أكثر ألفة من صندوقنا المصنوع من الآجر، وتقع في جنوب الضاحية، في سفح غابة وهدة بيشكل؛ تبعا لذلك لم يتقاطع طريق مالكه إلى المدرسة مع طريقي في أي مكان، عندما ابتدأت المدرسة من جديد في فصل الخريف.

ولكن لم يظهر له أثر في أثناء العطلة الكبيرة أيضا – صيف من غير مالكه –، فقد قيل، إنه التحق بمعسكر للإعداد الدفاعي مع إمكانية تأهيله في المواصلات اللاسلكية ما قبل العسكرية. لم يُظهر لأحد أثر الشمس في جسمه في بروزنولا ولا في مسبح غليتكاو. ولأنه كان من غير المعقول البحث عنه في كنيسة مريم العذراء، لم يعد في وسع صاحب الغبطة غوزينسكي ما دامت العطلة مستمرة، انتظار صبي الهيكل الذى يمكن الاعتماد عليه: قال صبي الهيكل بيلنتس لنفسه: لا قداس بدون مالكه.

مع ذلك كنا نحن الباقين نجلس بين حين وآخر فوق الزورق دون أن تكون لنا رغبة حقيقية في ذلك. لقد حاول هوتن زونتا غ عبثا العثور على باب الدخول إلى القمرة. وكانت هناك أيضا وشوشات تدور على الدوام بين تلاميذ السنة الرابعة الثانوية عن غرفة رائعة مؤثثة بشكل جنوني داخل البنايات العلوية للجسر. كان هناك وغد، تقاربت عيناه، أطلق عليه الأغبياء من أتباعه اسم شتورتَبيكر، يغطس دون كلل. صعد ابن عم تولا بوكريفكه، وهو شخص أقرب إلى الضعف، مرة أو مرتين فوق الزورق، ولكنه لم يغطس أبدا. حاولت في أفكاري أو فعلا أن أبدأ معه حديثا عن تولا، لأن أمرها كان يهمني. ولكنها كانت قد لوثتني مثلما لوثت ابن عمها – بأي شيء يا ترى؟ – بصوفها الملبد وبرائحتها التي تشبه رائحة غراء النجار. قال لي ابن عمها – أو كان من الممكن أن يقول لي:

- أمرها لا يعنيك!

لقد افتقدت تولا في الزورق، كانت قد بقيت في المسبح، ولكنها كانت قد أنهت علاقتها مع هوتن زونتا غ. لقد ذهبت مرة معها إلى السينما حقا، ولكني لم أكن محظوظا: كانت تذهب إلى السينما مع كل شخص. لقد قيل إنها أغرمت بشتورتَبيكر، عشقته عشقا تعيسا، ذلك أنه كان قد أظهر في البداية أنه يعشق زورقنا وبحث عن المدخل إلى غرفة مالكه. وفي نهاية العطلة الكبيرة كثرت الوشوشة حول نجاحه المزعوم في عمليات الغطس. ولم تكن هناك أدلة على ذلك: لم يحضر معه لا أسطوانة منتفخة ولا ريش بومة بيضاء متعفنة. مع ذلك استمرت هذه الإشاعات؛ وعندما انفصمت بعد سنة ونصف عُرى تلك العصابة الشبانية الغامضة نوعا ما، التي ذكر شتورتبيكر بوصفه قائدها، دار الحديث فيما يقال أكثر من مرة عن زورقنا وعن المخبأ داخل البنايات العلوية للجسر. لكني كنت في ذلك الحين في الخدمة العسكرية، ولم أسمع عن ذلك سوى بعض الجمل، لأن صاحب الغبطة غوزيفسكي كان حتى النهاية وطيلة قيام البريد بوظيفته يكتب رسائل وعظية وودية. وقد تحدث في رسالة من رسائله الأخيرة خلال شهر يناير من عام خمسة وأربعين - حين وصلت الجيوش الروسية إلى مدينة إلبينغ - عن غارة شنيعة، شنتها العصابة المسماة بشتورتبيكر على كنيسة قلب ياسوع، التي يشرف عليها صاحب الغبطة فينكه. وقد ذكر الولد شتورتبيكر بلقبه العائلي في الرسالة؛ وأعتقد أنني قرأت فيها أيضا شيئا عن طفل في الثالثة من عمره، احتفظت به العصابة تبجيلا له كطلسم، كتميمة. أكون أحيانا على يقين، وأشك في أحيان أخرى فيما إذا كان غوزيفسكي قد ذكر أيضا في الرسالة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة - لقد فقدت الرزمة مع اليوميات الموضوعة في كيس الخبز عند مدينة كوتبوس - ذلك الزورق، الذى احتفل بيومه المشهود قبل بداية العطلة الكبيرة في صيف اثنين وأربعين، لكنه فقد بريقه أثناء العطلة؛ ذلك أن مذاق ذلك الصيف لا يزال إلى اليوم فاترا، لأن مالكه لم يكن موجودا - لاصيف بدون مالكه!

لم نشعر باليأس، لأنه لم يعد له وجود بيننا. وكنت أنا على الخصوص

فرحا بتخلصي منه، وبتخلصي من أن أكون وراءه دائما؛ ولكن ترى لماذا اتصلت مباشرة بعد بدء الدراسة بصاحب الغبطة غوزيفسكي وعرضت عليه أن أكون صبي الهيكل في القداس؟ كان صاحب الغبطة خلف نظارته عديمة الإطار مبتهجا ألف مرة، وأتخذ خلف النظارة نفسها مظهرا جادا، عندما سألته عرضا، أثناء تنظيف جُبّته – كنا جالسين في موهف الكنيسة – عن مالكه. قال وهو يضع إحدى يديه على نظارته:

– من المؤكد أنه كان أحد النشيطين، فلم يكن يفوته قداس يوم الأحد أبدا، على أنه كان خلال أربعة أسابيع في ما يسمى بمعسكر الإعداد الدفاعي؛ مع ذلك فإني لا أصدق أنك تريد أن تؤدي الخدمة ثانية في الهيكل بسبب مالكه. تكلم، يا بيلنتس!

قبل حوالي أسبوعين كانت قد وصلتنا أخبار تفيد أن أخي كلاوس قد سقط في ميدان المعركة، وهو ضابط صف، عند نهر كوبان، فذكرت له أن موته هو السبب في عودتي إلى الخدمة في الهيكل. وقد بدا على صاحب الغبطة غوفنسكي أنه صدقني أو كان يبذل جهده في تصديق هذا الورع، الذى أضفيت عليه قيمة جديدة.

وعلى قلة ما أتذكر من التفاصيل، التي كان يتكون منها وجه هوتن زونتاغ أو فينتر، فإني أتذكر أن شعر غوزيفسكي كان كثيفا أسود مجعدا، باستثناء أماكن مفردة كان يبدو فيها أشيب كالثلج فوق جلدة رأسه المليئة بالقشور. وكان إكليل الشعر المحلوق بدقة كبيرة يستقر مزرقا في مؤخر رأسه. وكان سائل الشعر المصنوع من أشجار البتولا، وصابون البالموليف يحددان رائحته. كان يدخن أحيانا سجائر شرقية بمبسم من الكهرمان مصقول بطريقة معقدة. كان يعتبر تقدميا، يلعب كرة المنضدة مع صبيان الهيكل وأوائل متناولي القربان في موهف الكنيسة. كان يطلب من امرأة تدعى طولكميت، وعندما تكون العجوز مريضة، يطلب ذلك من صبيان الهيكل، الذين يتصفون بالبراعة والمهارة، غالبا مني أنا، تنشية كل ألبسته البيضاء، وشاح الكتف والقميص، بشكل زائد عن اللزوم. كل شريط وكل مطرف، جميع ثياب القداس، سواء أكانت موضوعة في الخزانات أم معلقة، كان

يزينها ويثقلها بيده بأكياس صغيرة من الخزامى. عندما كنت في حوالي الثالثة عشرة من عمري، أنزل يده الصغيرة الملساء من رقبتي تحت قميصي ووصل بها إلى تكة سروالي الرياضي، ثم سحب يده لأن سروالي لم يكن مربوطا برباط مطاطي يمكن توسيعه، وإنما كنت قد ربطته من الأمام بأربطة مخيطة. لم أهتم كثيرا بهذه المحاولة المتلمسة، لأن صاحب الغبطة غوفينسكي كان قد كسب مودتي بطريقته الودية، الشبابية في معظم الأحيان. لا أزال إلى اليوم أتذكره بلطف ساخر؛ لذلك لن أقول كلمة أخرى عن هذه اللمسات اليدوية العارضة البريئة، التي كانت تبحث في الواقع عن روحي الكاثوليكية. لقد كان على العموم كاهنا مثل مئات الكهنة، يعنى بمكتبة مختارة بشكل جيد من أجل أبرشيته القليلة القراءة، ولم يكن متحمسا بشكل مبالغ فيه، كان متدينا في حدود – مثلا في الأمور المتصلة بصعود مريم العذراء – وكان ينطق كل كلمة بنفس النبرة الطليقة العذبة، سواء تجاوز المنديل الذي يوضع تحت كأس القداس إلى دم المسيح أم تحدث عن لعبة كرة المنضدة في موهف الكنيسة. وقد وجدت حمقا منه أن يقدم في بداية الأربعين طلبا لتغيير اسمه، وقد تسمى بعد أقل من سنة غوزيفنغ، صاحب الغبطة غوزيفينغ وطلب أن يسمى بهذا الاسم. على أن الكثيرين تبعوا يومذاك موضة أَلْمَنة الأسماء التي كان لها ايقاع بولوني وكانت تنتهي بكي أو كه أو بآ – مثل فورميلا – فأصبح لوفاندوفسكي لينغنيشا؛ والسيد أولسزينسكي، الجزار عندنا، تحول إلى المعلم الجزار أولفاين؛ وقد أراد والدا يورغن كوبكا أن يتخذا اسما بروسيا هو كوبكات – لكن الطلب رفض لسبب لم يعرفه أحد. ربما أراد غوزيفسكي مُعيَّن أن يدعى، وفقا لنموذج ساولوس، الذى يصبح باولوس، غوزيفيغ – لكن صاحب الغبطة غوزيفسكي يبقى على هذه الورقة غوزيفسكي؛ فأنت، يا يؤاخيم مالكه، لم تطلب تغيير اسمك.

عندما بدأت، بعد العطلة الصيفية الكبيرة، الخدمة في قداس الصباح بالهيكل لأول مرة، رأيته ثانية ومن جديد. مباشرة بعد القداس – كان غوزيفسكي يقف في الجانب الأيمن من الهيكل مشغولا بفاتحة القداس اكتشفته في المقعد الثاني أمام مذبح مريم العذراء. على أنني لم أجد الوة

الكافي لفحص منظره إلا فيما بين قراءة الرسالة الإنجيلية وكتاب أناشيد القداس، أي أثناء قراءة الإنجيل اليومي. كان شعره مفروقا في الوسط كما كان من قبل وقد ثبته بماء السكر المعتاد، لكن شعره كان في هذه المرة أطول بمقدار عود ثقاب. صلبا ومسكرا سقط فوق أذنيه مثل سقفين مائلين: كان في إمكانه أن يظهر بدور يسوع المسيح، فقد شبك يديه الحائمتين، أي دون أن يستند على المرفقين، على ارتفاع الجبهة تقريبا، وكشف تحت سقف اليدين عن منظر العنق، الذى كان يظهر كل شيء عاريا من دون حماية؛ ذلك أنه ترك ياقة قميصه المفتوحة تسقط فوق ياقة سترته: لا ربطة عنق، ولا كرات صوف، ولا شيئا معلقا، لا مفلا أو أية قطعة أخرى من ترسانته الغنية. كان الحيوان الشعاري الوحيد في هذا الحقل الطلق هو ذلك الفأر المضطرب، الذىأسكنه تحت جلده في مكان الحنجرة، والذى أغرى القط ذات مرة وأغراني أن أطلق القط على عنقه. إضافة إلى ذلك كانت لا تزال ثمة بضعة قشور من آثار الحلاقة على المسافة بين تفاحة آدم والذقن. وكدت أصل بالجرس متأخرا عند أنشودة القُدُّوس.

كان مالكه يبدو عند مقعد تناول القربان أقل تأثرا. ترك يديه المعقودتين تنزلان حتى ما تحت عظم الترقوة، وكانت تخرج من فمه رائحة كما لو أن في داخله قدرا صغيرا من الكرنب يطبخ بصورة مستمرة على نار خفيفة. ما كاد يأخذ الرقاقة في يده، حتى جلب انتباهي تجديد آخر: لقد أطال طريق العودة من مقعد تناول القربان إلى مكان جلوسه في الصف الثاني من المقاعد، ذلك الطريق الهادئ الذى كان يقطعه كما يفعل كل متناول للقربان دون القيام بدورة، ومدده، قطعه، فبحث أولا بخطى بطيئة متصلبة عن وسط مذبح مريم العذراء، ثم ركع، ولم يختر الأرضية المشمعة، وإنما اختار سجادة خشنة الشعر بمثابة مفرش، تبدأ قبل درج الهيكل بمسافة قصيرة. ومد يديه المعقودتين فوق مستوى عينيه، فوق مستوى مفرق شعره، أعلى من ذلك بنوع من اللهفة في اتجاه تمثال جبسي أكبر من الحجم الطبيعي، دون طفل، كعذراء العذارى، فوق هلال مطلي بالفضة، ينحدر من كتفيه إلى الكعبين معطف بروسي أزرق ترصعه النجوم، وقد شبك يدين طويلتي الأصابع أمام

صدر مسطح، ينظر بعينين جامدتين جاحظتين قليلا إلى سقف القاعة الرياضية القديمة. حين نهض مالكه بركبة بعد ركبة وجمع منقوشاته أكثر من مرة أمام ياقة القميص المفتوحة، كانت السجادة قد طبعت فوق رضفتي ركبتيه نموذجا شديد الاحمرار.

جلبت تفاصيل بدع مالكه الجديدة انتباه صاحب الغبطة غوزيفسكي أيضا. لم يحدث ذلك لأنني طرحت عليه أسئلة. فبعد القداس مباشرة بدأ يتحدث من تلقاء نفسه تماما، كما لو أنه كان يريد أن يتخلص من عبء أو يريد مقاسمته معي، عن حماس مالكه الديني المبالغ فيه، عن المظاهر الخارجية الخطرة، عن تلك الهموم، التى امتلأت بها نفسه منذ مدة طويلة. وقال إن عبادة مالكه لمريم العذراء تقارب العبادة الوثنية، ومن الممكن أيضا أن تكون معاناته الداخلية، أن تكون أزمته الروحية، هي التي تقوده دوما إلى الهيكل.

انتظرني أمام باب موهف الكنيسة. كاد الفزع أن يدفعني خلال الباب ثانية، لكنه بادر إلى أخذ ذراعي، وضحك بشكل جديد دون تكلف، وراح يتكلم ويتكلم. وتحدث، وهو القليل العبارة، عن الطقس – الصيف المتأخر، عن خيوط ذهبية طائرة في الهواء –، وأخذ مباشرة، ولكن دون أن يخفض صوته، يتحدث بنفس اللهجة المسامرة:

– بالمناسبة لقد تطوعت من تلقاء نفسي. إني لأستغرب أمري أنا نفسي. أنت تعرف قلة اهتمامي بهذه الأمور: الجيش، وألاعيب الحرب، والتأكيد على ما هو عسكري. احزر في أي صنف. ليس الأمر كما تظن. السلاح الجوي لم تعد له أية أهمية منذ مدة طويلة. يا له من أمر مضحك: رجال المظلات! حسبي الآن أن أقول لك إني أريد أن ألتحق بالغواصات. هذا هو الأمر في آخر المطاف! فهذا السلاح هو النوع الوحيد، الذى لا تزال له حظوظ النجاح؛ مع أني قد أبدو صبيانيا في ذلك وأنني أفضل أن أفعل ما هو أكثر نفعا أو أكثر غرابة. أنت تعرف أنني كنت أريد أن أصبح بهلوانا. ما أغرب الأفكار التي تخطر للمرء في شبابه! على أنني لا أزال إلى اليوم أجد هذه المهنة مناسبة. وفيما عدا ذلك فإن حالتي متوسطة. أواه، المدرسة مدرسة. ما أكثر ما

مارسناه فيها من لهو وعبث في تلك الأيام! أتذكر ذلك؟ لم أستطع التعود على تفاحة آدم هذه. لقد فكرت أنها نوع من المرض، مع أن الأمر عادي تماما. أعرف أناسا أو رأيت أناسا لهم منها أكبر مما لي من غير أن يشعروا لذلك بالقلق. لقد بدأ الأمر في تلك الفترة بقصة القط. ألا تزال تذكر، كنا منطرحين في ميدان هاينريش - إيلر. كانت هناك في ذلك الحين مباراة في لعبة كرة القاعدة. كنت نائما أو كنت أغالب النعاس، وكانت البهيمة الرمادية أم تراها كانت سوداء، قد رأت عنقي ووثبت إليه، أو أن واحدا منكم، هو شيلينغ، فيما أعتقد، ومثله جدير بهذه الفعلة، أخذ القط... لكن، فلنترك هذا الأمر! كلا، لم أعد إلى الزورق مرة أخرى. شتورتبيكر؟ قد سمعت عنه. فليفعل، فليفعل! فأنا لم أؤجر الزورق، أليس كذلك؟ تعال لزيارتنا في يوم من الأيام.

لم ألب دعوته إلا في عيد البشارة الثالث وبعد أن جعل مني مالكه خلال الخريف أنشط الناس في خدمة القداس. كان علي أن أخدم وحدي حتى بعد الدخول في أيام البشارة، لأن صاحب الغبطة غوزيفسكي لم يستطع الحصول على صبي ثان من صبيان الهيكل. والواقع أني كنت أريد أن أزور مالكه في عيد البشارة الأول وأحمل إليه الشمعة، ولكن توزيع أوقات العمل جاءنا متأخرا، ولم يستطع مالكه نصب الشمعة المقدسة أمام مذبح مريم العذراء إلا في عيد البشارة الثاني. وعندما سألني:

- هل تستطيع أن تحضر لي بعضا منها؟ إن غوزيفسكي لا يريد أن يعطي شمعة.

قلت له:

- سأتدبر الأمر.

وأحضرت له واحدة من تلك الشموع الطويلة الباهتة كبذر البطاطس، التي كانت نادرة في أيام الحرب؛ ذلك أن أسرتي كان لها الحق، نظرا لمقتل أخي في الحرب، في الحصول على هذه البضاعة المقننة. وذهبت مشيا على الأقدام إلى المصلحة الاقتصادية، وتمكنت، بعد إظهار شهادة الوفاة، من الحصول على بطاقة التموين، وركبت الترام إلى الدكان الخاص بذلك في أوليفا، ولكن الشموع لم تكن موجودة، وكان علي أن أقطع الطريق نفسه مرتين، ولم

أستطع أن أسلم إليك البضاعة إلا في عيد البشارة الثاني ولا أن أراك راكعا بالشمعة، كما تصورت ذلك أنا وكما كنت أتمناه، إلا في اليوم الثاني من عيد البشارة. بينما كنا أنا وغوزيفسكي في أيام عيد البشارة نضع فوق أكتافنا منديلا بنفسجيا، نما عنقك من ياقة قميصك المفتوح، الذى لم يستطع المعطف المقلوب تغطيته، الذى كنت قد أدخلت عليه آنئذ تغييرات وكان من قبل ملكا لوالدك، سائق القطار الذي مات في حادث، خصوصا وأنك - وهذا تجديد آخر - لم تربط شالا وتمسكه بمشبك أمام عنقك.

كان مالكه راكعا لفترة طويلة وفي جمود فوق السجادة الخشنة في أيام عيد البشارة الثاني والثالث على حد سواء، عندما أردت أن آخذ في فترة ما بعد الظهر دعوته مأخذ الجد وأذهب لزيارته. كانت نظرته الجامدة، التي أبت أن تختلج - أو اختلجت، بمجرد أن كان ثمة ما أفعله في الهيكل -، مصوبة مرورا بالشمعة المهداة إليه إلى بطن مريم العذراء. كان قد أقام من يديه، من غير أن يلمس جبينه بالإبهامين المتقاطعين، ما يشبه سقفا منحدرا فوق جبهته وما يعتمل فيها من أفكار.

وفكرت: سأذهب اليوم. سأذهب إليه وأنظر. أنظر بصورة دقيقة. سأكتشف أمره. لا بد أن يكون وراء ذلك شيء ما. - ثم إنه هو الذى دعاني.

رغم قصر الجادة الشرقية: فالدور الصغيرة ذات الحيطان الخشبية والواجهات المطلية بخشونة، والنباتات المنتظمة فوق الأرصفة - أشجار الزيزفون التي فقدت إبرها قبل موعد السنة لكنها كانت لا تزال بحاجة إلى ما يسندها - أفقدتني شجاعتي وأتعبتني، مع أن جادتنا الغربية كانت من نفس القالب، فقد كانت تفوح بنفس الرائحة، تتنفس، وتشهد فصول السنة في الحدائق الصغيرة أمام بيوتها. لا أزال حتى اليوم، عندما كنت أغادر بيت كولبينغ، وهذا نادرا ما يحدث، وأزور معارفي أو أصدقائي في شتوكوم أو في لوهاوزن، بين المطار والمقبرة الشمالية، ويكون علي أن أمر عبر شوارع الحي السكني التي تتكرر بشكل متعب مثبط للهمة من رقم بيت إلى رقم بيت آخر، من شجرة زيزفون إلى أخرى، فإني أكون عندئذ دائما في الطريق إلى بيت مالكه وعمة مالكه، أكون في الطريق إليك، إلى مالكه العظيم: يلتصق الجرس

بأحد أبواب البستان، الذى يمكن اجتيازه بخطوة عالية، وما هي بعالية كثيرا حتى إنه ليمكن اجتيازها دون عناء. خطوات عبر حديقة البيت الشتوية عديمة الثلج بأدغال وردها ذات الرؤوس الثقيلة الملفوفة بمقدم الحديقة. كانت هناك أحواض بدون نباتات، تزينها أصداف من بحر الشمال، يبدو بعضها سليما وبعضها الآخر مكسورا. وكان هناك ضفدع خزفي أخضر بحجم أرنب صغير قابع فوق قطعة مرمر، يمسك بأطرافها تراب البستان المحفور، ويزحف في بعض الأماكن مفتتا أو متيبسا فوقها.

وفي حوض الزينة في الجهة الأخرى من ذلك الطريق الضيق، الذى جعلني، كلما فكرت، أقوم بخطوات من باب الحديقة إلى درجات الآجر الثلاث أمام الباب ذي القوس المدور المطلي بمغرة ذات لون بني فاتح، كان ينتصب على نفس علو الضفدع الأخضر عمود بقامة الإنسان تقريبا، يقوم فوقه بيت طائر على شاكلة أكواخ المراعي الجبلية: العصافير، التي كانت تتابع أكلها، وأنا أخطو بين حوض الزينة وحوض الزينة سبعا أو ثماني خطوات؛ للمرء أن يعتقد أن رائحة جديدة نظيفة رملية مناسبة للفصل السنوي تضوع من الحي السكني، على أن الرائحة التي كانت تفوح في الجادة الشرقية وفي الجادة الغربية، في طريق الدببة، كلا، في كل مكان بلانغفور، في غرب بروسيا؛ والأفضل من ذلك في ألمانيا كلها – كانت رائحة البصل في سنوات الحرب، رائحة البصل المقلي في السمن النباتي؛ لست أريد أن ألزم نفسي: لقد كانت هناك رائحة البصل المطبوخ مع غيره، البصل المقطع حديثا، رغم أن البصل كان شحيحا وكان من الصعب الحصول عليه، رغم النكت عن قلة البصل المقترنة بمارشال الرايخ غورينغ، الذى قال شيئا ما في الإذاعة عن شحة البصل، والتي انتشرت في لانغفور، في غرب بروسيا، في ألمانيا كلها؛ لذلك كان علي أن أدهن سطح آلتي الكاتبة بعصير البصل وأقدم لها ولنفسي فكرة عن رائحة البصل، تلك التي سممت في تلك السنوات ألمانيا كلها، غرب بروسيا، لانغفور، الجادة الشرقية، الجادة الغربية، وطغت على روائح الجثث المتعفنة.

قطعت بخطوة واحدة درجات الآجر الثلاث، وأردت مسك أكرة الباب بيدي، التي كنت قد كورتها استعدادا لذلك، وإذا بالباب يفتح من الداخل.

لقد فتح مالكه الباب، وكانت ياقة قميصه مفتوحة وكان ينتعل خفا من اللباد. لعله كان قد سوى مفرق شعره قبل ذلك بقليل. لم يكن شعره الصلب الممشوط منسدلا خصلا مائلة إلى الخلف، وكان لونه لا هو بالفاتح ولا هو بالأسود، وكان لا يزال متماسكا، ولكن هذه الخصل كانت عندما هممت بالذهاب بعد ساعة، قد سقطت وارتعشت كلما تكلم فوق أذنيه الكبيرتين المرتوبيتين دما.

جلسنا في الخلف، في البهو، الذي يتسرب إليه الضوء عبر الشرفة الخارجية الزجاجية. قدم كعكا صنع طبقا لوصفة من وصفات فترة الحرب: كعك البطاطس الذى كان يغلب عليه طعم ماء الورد، وكان من المفروض أن يعيد إلى الأذهان مذاق الحلوى اللّوزية؛ وقدم بعد ذلك البرقوق المحفوظ، الذى كان له مذاق عادي، وكان قد نضج في حديقة مالكه أثناء الخريف، كان يمكن رؤية الشجرة الجرداء بجذعها المصبوغ باللون الأبيض من خلال الدرفة الزجاجية اليسرى للشرفة. وأشير إلى الكرسي الذي سأجلس عليه: في مواجهة الخارج، وجلس مالكه قبالتي في جانب ضيق من المائدة، فكانت الشرفة الخارجية خلفه. وجلست عن يساري خالة مالكه في ضوء جانبي جعل شعرها يبدو مجعدا ذا لون فضي. وجلست عن يميني أم مالكه، كانت جهتها اليمنى مضاءة، وكان شعرها أقل لمعانا، لأنه كان ممشوطا بشكل مشدود. كذلك أعادت أطراف أذنيه والشعر المنفوش فوق الأطراف وكذلك أطراف الخصلات المرتعشة الهشة رسم ضوء شتوي بارد، رغم أن الغرفة كانت حارة أكثر مما ينبغي. وكان القسم الأعلى من ياقة قميصه المفتوحة المتهدلة شديد البياض، ثم تدرج لونه هبوطا إلى لون رمادي، وبدا عنق مالكه في الظل مسطحا.

كانت المرأتان، وهما خشنتا العظام، ولدتا في الريف وكبرتا فيه، حائرتين بأيديهما. تحدثتا كثيرا، ولم تتكلما في آن واحد أبدا، ولكنهما كانتا تتكلمان على الدوام صوب مالكه، حتى وهما توجهان الخطاب إلي وتسألان عن حالة أمي. لقد عزتني كلتاهما فيه، في ذلك الذى كان جديرا أن يكون مترجما:

– الآن ها هو أخوك كلاوس قد قضى نحبه أيضا. لم أعرفه حقا إلا من

خلال الرؤية – ومع ذلك فقد كان إنسانا مجدا.

كان مالكه يدير الأمور بحلم و بصورة مؤكدة. كل المسائل الشخصية جدا – غالبا ما كانت لأمي، عندما كان أبي يوجه إليها رسائل الميدان من اليونان، علاقات حميمة غالبا مع أصحاب الرتب العسكرية –، إذن كان مالكه يحجب الأسئلة في هذا الاتجاه:

– دعي هذا يا خالتي! فمن يريد في هذا الوقت، الذى اضطرب فيه كل شيء، أن يلعب دور القاضي؟ ثم إن هذا الأمر لا يهمك أنت في شيء حقا، يا أمي! لو كان أبي لا يزال على قيد الحياة، لآخجله ذلك، وما كان يحق لك أن تتكلمي هكذا.

وأطاعته المرأتان، أو أطاعتا سائق القاطرة البخارية، الذى كان يلح في استحضاره والحديث عنه، ويأمرهما بالصمت كلما أخذتا في الثرثرة. وكذلك كان أمر الحديث عن الجبهة – كانت الاثنتان تخلطان بين ميادين الحرب في روسيا وميادين الحرب في إفريقيا الشمالية، وعندما كانتا تقولان العلمين، كانتا تعنيان بحر آزوف. وقد استطاع مالكه أن يوجههما الوجهة الجغرافية الصحيحة بهدوء ومن غير غضب:

– وقعت هذه المعركة في جزيرة وادي الكنار ولم تقع في منطقة كريلين.

ومع ذلك فقد قدمت لنا الخالة كلمة البدء، فأضعنا أنفسنا في الظنون حول جميع المشاركين في معركة وادى الكنار وفي إغراق حاملات الطائرات اليابانية والأمريكية. كان مالكه يرى أن وحدات السفن الحاملة «هورنيت» و«فسب»، مثل الحاملة «رانغر»، التي أنزلت إلى الماء، استخدمت أثناء ذلك وشاركت في المعركة، فلربما تكون «سراتوغا» أو «ليكسينكتون»، أو هما معا، قد حذفتا من قائمة الأسطول. ولا يزال هناك غموض فيما يتصل بالحاملتين اليابانيتين «أكاجي» والحاملة الشديدة البطء «كاغا.» كان مالكه يدافع عن آراء جريئة، ويرى أنه لن يكون هناك في المستقبل غير معارك حاملات الطائرات، ولم يعد من المفيد تقريبا بناء البوارج الحربية، والمستقبل، في حالة ما إذا وقعت حرب في يوم ما على الإطلاق، سيكون للوحدات الخفيفة السريعة وحاملات الطائرات. وقدم تفاصيل عن ذلك: استغربت المرأتان، وقد صفقت

خالته بيديها المعظمتين، بمجرد أن أتى على ذكر أسماء القوات الاستطلاعية الإيطالية، بصوت عال كان له صدى، واكتسبت وهي على شيء من الحماسة ما تتصف به الفتيات الشابات، وعندما خيم الصمت على الغرفة بعد انتهاء التصفيق راحت تعبث بشعرها في حرج.

لم تذكر ثانوية هورست – فيسل بكلمة واحدة. أكاد أرغب في أن أتذكر أن مالكه قد ذكر ضاحكا عند النهوض قصص عنقه كما سماها، التي تعود إلى زمن بعيد، وأورد في حديثه أيضا – وقد شاركته أمه وخالته في الضحك – خرافة القطة الصغيرة: في هذه المرة كان يورغن كوبكا هو الذي وضع ذلك الوحش على حنجرته؛ ليتني عرفت من اخترع هذه الخرافة، هو أم أنا أم مَن يكتب هنا؟

على أية حال – وهذا أمر مؤكد – لقد لفت لي أمه قطعتين من كعك البطاطس، عندما أردت توديع المرأتين. وفي الممر، إلى جانب الدرج المفضي إلى الطابق العلوي وإلى غرفته تحت السطح، شرح لي مالكه صورة فوتوغرافية معلقة إلى جانب كيس الفُرش. قاطرة توحي بالجدة بعربة من قطار السكك الحديدية البولونية السابقة – ترى عليها العلامة بي كا بي مرتين بوضوح – تملأ الصورة العرضية. وقف أمام الماكنة رجلان بذراعين متشابكتين، ضئيلين، ولكنهما متحكمان. قال مالكه العظيم:

– أبي والوقاد ليبودا، قبل أن يلقيا حتفهما عام أربعة وثلاثين قرب ديرشاو بفترة قصيرة. هذا يعني أن أبى استطاع أن يتجنب ما هو أسوأ وأخذ وساما على ذلك بعد وفاته.

-١٠-

في بداية السنة الجديدة أردت أن آخذ دروسا في العزف على الكمان – كان أخي قد خلف كمانا –، لكننا أصبحنا مساعدين في السلاح الجوي، لعل الأوان قد فات الآن، مع أن الأب ألبان لا يتعب من نصحي بأخذ دروس في العزف على الكمان؛ وكان هو الذى شجعني أيضا على الحديث عن القط والفأر:

– اجلس ببساطة، يا عزيزي بيلنتس، وباشر الكتابة. فأنت تتوفر، كما اتضح من محاولاتك الشعرية وقصصك القصيرة الخيالية الأولى، على قلم صلب المراس: امسك بآلة الكمان أو اكتب بحرية – لم يزودك الله بالمواهب من دون روية.

إذن: لقد أخذتنا بطاريات الشاطئ، وفي الوقت نفسه بطاريات التدريب في بروزن – غليتكاو، خلف كثبان وشوفان متماوج على الشاطئ ومتنزه مفروش بالحصى في بيوت احتياطية تضوع برائحة القطران والجوارب والحصران البحرية المصنوعة من العشب. من الممكن أن يروي المرء أشياء كثيرة عن الحياة اليومية لمساعد في السلاح الجوي، لطالب في الثانوية بالزي الرسمي، تلقى قبل الظهر دروسه من معلمين شيب على الطريقة المعتادة، وكان عليه أن يحفظ بعد الظهر الكلمات التي يتعلمها المدفعي، أو أسرار بحر البلطيق؛ على أنه لا ينبغي أن تُروى قصتي أنا، ولا قصة هوتن زونتا غ التي تمنح القوة على سذاجتها، ولا قصة شيلينغ التافهة تماما – بل ينبغي ألا يكون الحديث هنا إلا عنك أنت؛ ولم يصبح مالكه أبدا مساعدا في السلاح الجوي.

قدم لنا تلاميذ ثانوية هورست – فيسل، الذين تلقوا تأهيلهم أيضا في بطارية بروزن – غليتاو، عرضا ومن غير أن يتبادلوا معنا حديثا مطولا يبدأ بالقط والفأر، مادة جديدة:

– لقد دعوه بعد عيد الميلاد بفترة قليلة إلى خدمة الرايخ. ومنحوه البكالوريا الضرورية بسهولة. حسنا، لم تكن الامتحانات بالنسبة إليه

مشكلة أبدا. كان أكبر سنا منا إلى حد ما. ويقال إن فرقته تقيم في مروج توخلر. هل كان عليهم أن يستخرجوا فحم المستنقعات؟ يقال إن هناك أشياء كثيرة تحدث هنالك فوق، فهي منطقة الفدائيين وما أشبه ذلك.

في شهر فبراير زرت إش في مستشفى أوليفا العسكري. كان قد لزم الفراش بسبب كسر في عظم الترقوة، وأراد سيجائر، فقدمت له بعضا منها، وقدم لي هو عرقا حلوا لزجا. لم أمكث معه طويلا، وفي طريقي إلى محطة الترام المتجه إلى غليتكاو عرجت على حديقة القصر. أردت أن أرى ما إذا كانت مغارة الهمس القديمة لا تزال قائمة. كانت لا تزال هناك فعلا، وقد جربها صيادو الجبال المتماثلون للشفاء مع الممرضات، فكانوا يهمسون من الجهتين في اتجاه حجر بوروزن ويتضاحكون يتهامسون يتضاحكون. لم يكن لي أنا من أهامسه، فرحت أحث الخطى بشيء ما في رأسي عبر ممشى شبيه بالنفق، لأن أغصانا جرداء التأمت فوقه، وقد خلا من الطير، ولربما يكون شائكا، يمتد من بحيرة القصر ومغارة الهمس مستقيما في اتجاه طريق تسوبوطه العام، وقد أصبح ضيقا بشكل يبعث على الخوف. هنالك قابلني، بعد ممرضتين كانتا تقودان ضابطا يعرج يضحك يعرج وبعد جدتين وصبي، ربما يكون في الثالثة من عمره، لم يكن يريد أن يكون طوع الجدتين، وإنما كان يريد أن يكون طوع طبل للأطفال، كان يحمله معه، لكنه ظل صامتا – قابلني أكثر من مرة شيء، خرج من نفق الشوك الشباطي اللون في الجهة المقابلة، وراح يتنامى: لقد صادفت مالكه.

أشعرنا هذا اللقاء بالحرج. وفوق ذلك بعث فينا سير أحدنا نحو الآخر في جادة حديقة ملبدة، حتى في اتجاه السماء، وليس لها طرق فرعية، إحساسا يتراوح بين الحفاوة والضيق. لقد قاد أحدنا نحو الآخر قدر أو مخيلة من عصر الزخرفة لمهندس حدائق فرنسي. ولا أزال إلى اليوم أتجنب حدائق القصور، التي أقيمت وفقا لروح العصر القديم الطيب في استدارة ليس لها مخرج.

بالطبع تكلمنا على الفور، إلا أنه كان علي أن أحدق في غطاء رأسه وأنا كالمسمر. ذلك أن قبعة الخدمة المدنية، حتى ولو كان قد ارتداها أشخاص

أخرون غير مالكه، كانت وحيدة في قبحها. كانت تتقبب عاليا وبدون تنسيق فوق رفرفها، مشبعة بلون البراز الجاف. كان وسطها الأعلى شبيها بقبعة الرجال حقا، إلا أن النتوءات فيها كانت متقاربة جدا تقاربا جعلها تتشابك فيما بينها، فنتج عنها أخدود، خلع على قبعة الخدمة المدنية في الرايخ لقب «است بمقبض.» لقد كانت هذه القبعة تغطي رأس مالكه بشكل مزعج. كان مفرق شعره في وسط رأسه، رغم أنه كان عليه أن يتنازل عنه أثناء العمل المدني، يلفت النظر أكثر من قبل؛ لقد وقفنا متقابلين كما لو كنا ضعيفي البشرة تحت الأشواك – عاد الطفل أيضا دون جدته بطبل الصفيح الخاص بالأطفال وضرب حولنا نصف دورة، كان لها طعم السحر، وأخيرا مضى بصخبه إلى حيث تضيق الجادة.

وتوادعنا بسرعة، بعد أن أجابني مالكه عن أسئلة طرحتها عليه حول المعارك الفدائية في منطقة توخلر، وحول التموين بالمواد الغذائية في الخدمة المدنية، وعما إذا كانت ثمة عاملات في الخدمة المدنية يقمن على مقربة منه باقتضاب وتذمر. لقد أردت أن أعرف أيضا ماذا يفعل في أوليفا وما إذا كان قد زار صاحب الغبطة غوزيفسكي. وعلمت أن التموين بالمواد الغذائية في الخدمة المدنية مقبول، أما العاملات في الخدمة المدنية فليس لهن من أثر. وقد اعتبر الإشاعات عن المعارك الفدائية مبالغا فيها، إلا أن لها ما يسندها من الواقع. وكان رئيسه هو الذي أرسله إلى أوليفا بسبب قطعة من قطع الغيار: سفرة عمل، ليومين. قال:

– تكلمت اليوم لفترة قصيرة مع غوزيفسكي بعد قداس الصباح مباشرة.

ثم قام بحركة من يده دلت على اضطراب مزاجه:

– سيبقى دائما هو هو، ولو حدث ما حدث!

وأتسعت المسافة بيننا، لأننا كنا نتابع خطانا. كلا، لم ألتفت لأنظر إليه. شيء لا يصدق؟ لكن جملة صغيرة كهذه: «مالكه لم يلتف إلي!» لن تحمل أحدا على الشك في ذلك. كان علي في بعض الأحيان أن أنظر ورائي عدة مرات، لأنه لم يطالعني أحد، حتى الطفل بألعابه الكثيرة، ويساعدني.

ثم لم يتح لي أن أراك أكثر من سنة، لو أحصيت الأيام، ولكن عدم رؤيتك لم

يكن يعني ولا يعني القدرة على نسيان تناسقك وما تبذله فيه من جهد. لقد بقيت إضافة إلى ذلك بضعة آثار: عندما أرى قطا، سواء أكان أغبر، أسود أم منقطا، يعبر الفأر على الفور مجال نظري؛ مع ذلك تمرست على التردد، ولازمتني الحيرة، فلم أعرف ما إذا كان ينبغي لي حماية الفأر أو تحريض القط على الإمساك به.

سكنا حتى الصيف في بطارية الشاطئ، ولعبنا دورات لا نهاية لها في كرة اليد، وتمرغنا خلال زيارات أيام الآحاد دائما مع نفس الفتيات وأخواتهن فوق نباتات قراص الكثبان بالشاطئ؛ وكنت أنا الوحيد، الذى يخرج صفر اليدين، ولم أفقد إلى اليوم هذا التردد والسخرية من ضعفي هذا. وماذا كان هناك بعد؟ توزيع أقراص النعناع، إرشادات حول الأمراض الجنسية، في الصباح هيرمان ودوروتيا (لغوته)، وبعد الظهيرة بندقية ٩٨ ك، البريد، المربى المصنوع من أربع فواكه، مباراة في الغناء – كنا نذهب أيضا إلى زورقنا سباحة خلال أوقات الراحة من الخدمة، وكنا نلتقي هناك بانتظام بأسراب من تلاميذ السنة الرابعة الجدد، وكان ذلك يغضبنا، ولم نفهم، أثناء عودتنا سباحة، ما الذى ربطنا طيلة ثلاثة أصياف كاملة إلى ذلك الحطام الذى تعلوه قشور سلح النوارس. ونقلنا في وقت متأخر إلى بطارية ثمانية فاصل ثمانية بيلونكن، ثم نقلنا إلى بطارية تسيغانكنبيرغ. وقد زعقت صفارات الإنذار ثلاث أو أربع مرات، وشاركت بطاريتنا في إسقاط قاذفة قنابل ذات أربعة محركات. وقد استمر الجدال في مكاتب الكتيبة عدة أسابيع حول الإصابة العشوائية – وبين ذلك كانت هناك الحلويات، وهيرمان ودوروثيا، وتحيات عند المرور.

كان هوتن زونتاغ وإيش قد جاءا قبلي إلى الخدمة المدنية، لأنهما كانا متطوعي حرب. وكان قد فاتني، أنا الذى كنت مترددا كما أنا دائما وحائرا بين أنواع الأسلحة، موعد التقديم، وحصلت في شهر فبراير أربعة وأربعين مع حوالي نصف أفراد صفي داخل بيت احتياطي للتدريس على باكلوريا كادت أن تكون سلمية بحق، وتلقيت على الفور الدعوة إلى التجنيد في الخدمة المدنية، فسرحت من مساعدي السلاح الجوي وحاولت، لأنه كان لا يزال

لدي أسبوعان من الوقت، ولكي أتم شيئا نهائيا آخر، عدا البكالوريا، وأين أجد ذلك حقا، إن أنا لم أجده عند تولا بوكريفكه، التي كانت في السادسة عشرة أو أكثر وكانت تمكن كل واحد من مواصلتها، ولكن لم يكن لي الحظ، ولم أتمكن أيضا من أخت هوتن زونتاغ. وفي هذا الوضع – خففت عني رسائل إحدى بنات عمي، التي انتقلت مع أسرتها إلى شليزيا بعد خراب كامل سببه سقوط القنابل – قمت بزيارة توديعية لصاحب الغبطة غوزيفسكي، ووعدته بالعمل عريفا له في القداس أثناء عطلة الجبهة المنتظرة، وتلقيت منه، زيادة على كتاب القداس، صليبا معدنيا يدويا – مصنوعا للمجندين الكاثوليكيين خصيصا – والتقيت عند الرجوع، في زاوية طريق الدببة بالجادة الشرقية بخالة مالكه، التي كانت تضع على عينيها في الشارع نظارة ذات زجاج قوي، ولذلك لم يكن في وسعي تجنبها.

بدأت، قبل أن يحي أحدنا الآخر، تتحدث حديثا قرويا ممطوطا، ولكنه كان مع ذلك سريعا. وعندما كان المارة يقتربون منا، كانت تمسك كتفي وتجر إحدى أذني أمام فمها. وتتحدث بجمل حارة يصاحبها مطر ندي. كلمات عديمة المعنى في البداية. حكايات تتصل بالتسوق:

– لا يستطيع المرء الحصول حتى على ما هو مسجل في البطاقات.

وهكذا عرفت أن البصل غير متوفر مرة أخرى، على أنه من الممكن أن يحصل المرء على السكر الأسمر وفريك الشعير عند ماتسيرات، وأن الجزار أولفاين ينتظر وصول مصبرات اللحم – «وكلها من لحم الخنزير.» وفي النهاية، ودون أن أنبس بكلمة من جهتي، دخلت في الموضوع الرئيسي:

– أحوال الولد الآن أفضل، حتى وإن هو لم يكتب لنا أنه على ما يرام. لكنه لم يشكُ أبدا، مثله مثل أبيه، وهو زوج أختي. وقد عينوه، ولكن في وحدة الدبابات. سيكون في مأمن أكثر مما في وحدة المشاة، حتى في أوقات سقوط الأمطار.

ثم زحف همسها إلى أذني، وعرفت أشياء عن غرائب مالكه الجديدة، عن شخابيطه، التي كانت تبدو كما لو أن طفلا قد رسم تحت توقيع كل رسالة ميدانية.

– مع هذا فإنه لم يرسم أبدا عندما كان طفلا، إلا في حالة ما إذا كان عليه في المدرسة أن يرسم بالألوان السائلة. ولكن هاهي رسالة جديدة منه في المحفظة قد أصبحت مدعوكة جدا رغم ذلك. أتدري، أيها السيد بيلنتس، اقرأ منها قدر ما تتعرف به أحوال الولد!

وأرتني خالة مالكه رسالة البريد الحربي:

– والآن اقرأ.

ولكني لم أقرأ. ورق بين أصابع بدون قفاز. هبت من ميدان ماكس – هالبه ريح جافة مسننة كأكياس الورق، عصفت ولم يكن وقفها ممكنا. ضرب قلبي مع كعبي حذائي وأراد دخول الباب. تكلم في أعماقي سبعة إخوة، على أن أي واحد منهم لم يكتب. حقا لقد هب الثلج، ولكن ورق الرسالة ظل واضحا، رغم أنه كان أغبر بنيا ومن نوع رديء. يمكنني اليوم أن أقول، لقد أدركت الأمر على الفور، لكني حدقت دون أن أرى، دون الرغبة في أن إدرك؛ ذلك أنني أدركت حتى قبل أن يطقطق الورق قرب عيني، أن الدور كان لمالكه: رسوم شرطية تحت خط سوترليني مدور نظيف. كانت هناك محاولة لجعلها في صف مستقيم، لكنها انزلقت مع ذلك، حيث لم يكن ثمة ما هو تحتها، من ثماني اثنتي عشرة ثلاث عشرة أربع عشرة دائرة غير متماثلة في تسطحها، وفوق كل كلية برعم شبيه بالثؤلول، وفوق كل ثؤلولة تبدو أعمدة بطول ظفر الإبهام تعلو الأحواض المتورمة في الجهة اليسرى من الورقة، وكل هذه الدبابات – رغم ما كانت عليه الرسوم من رداءة، فقد تعرفت على الدبابة الروسية ت ٣٤ – كانت لها في موضع، غالبا بين البرج والحوض، علامة شاطبة للثؤلول، ذلك الصليب المؤيد للهدف؛ إضافة إلى ذلك – لأن المسجل قد حسب حساب المتأملين بطيئي الفهم لرسمه – كانت هناك صلبان قلمية زرقاء جرى التأكيد عليها وفاقت مقادير الدبابات المشروطة تشق في إلحاح جميع دبابات ت ٣٤ الأربع عشر – لقد كان هذا عددها –المرسومة بقلم الرصاص.

أوضحت لخالة مالكه بشيء من الغرور أن الأمر يتعلق فيما يبدو بالدبابات التي دمرها مالكه. على أن خالته لم تبد دهشة، فقد أخبرها بذلك

كثيرون، غير أنها لا تستطيع أن تفهم لماذا يكون عددها مرة أكثر ومرة أخرى أقل، مرة ثماني قطع فقط، وفي الرسالة الأخيرة بلغت سبعا وعشرين قطعة. قالت:

– قد يكون الأمر لأن البريد يصل إلى البيت بصورة غير منتظمة. – مع ذلك يجب عليك أن تقرأ، أيها السيد بلينتس، ما يكتبه يؤاخيمنا. إنه يتحدث عنك أيضا، عن بعض الشمعات، لكننا استطعنا الحصول على بعض منها.

ألقيت نظرة سريعة على الرسالة من طرف عيني: لقد أظهر مالكه بعض الاهتمام، وسأل عن عاهات أمه وعمته الصغيرة والكبيرة – كانت الرسالة موجهة إلى المرأتين معا – تساءل عن الأوردة المتشنجة وعن آلام الظهر، لكنه أراد أن يعرف وضع الحديقة:

– ترى هل أثمرت شجرة البرقوق بشكل جيد؟ كيف حال صُبّاري؟

كانت هناك جمل قصيرة عن خدمته التي وصفها بأنها متعبة وتحمله مسئولية كبيرة:

– طبعا، لقد تكبدنا نحن أيضا بعض الخسائر، لكن مريم العذراء ستواصل حمايتي.

وفي النهاية يرجو أمه وخالته أن تتلطفا وتقدما لصاحب الغبطة كوزيفسكي شمعة أو – إن أمكن ذلك – شمعتين لمذبح مريم العذراء:

– لعل بلينتس يستطيع الحصول على شيء منها. فهم يحصلون على بطاقات التموين.

وطلب مالكه إضافة إلى ذلك أداء الصلاة للقديس يوداس ثدّايوس – وهو ابن أخ من الدرجة الثانية لمريم العذراء؛ لقد كان مالكه يعرف العائلة المقدسة – وإقامة قداس على روح أبيه، الذى مات في حادث:

– لقد تركنا دون معونة.

كانت هناك في نهاية الورقة بعض التوافه، وشيء من الوصف الباهت للطبيعة:

– لا يمكنكم أن تتصوروا إلى أي حد تدهور كل شيء هنا، وما أتعس الناس والأطفال الكثيرين. فلا كهرباء ولا ماء. إن المرء ليتساءل أحيانا عن

معنى هذا كله – على أن الأمر هكذا، لأنه لابد أن يكون على هذا الوجه. إذا ما كانت لكما رغبة ذات يوم، وكان الطقس جميلا، فسافرا بالترام إلى بروزن – وعليكما أن ترتديا ثيابا دافئة – وانظرا ما إذا كان من الممكن رؤية هيكل البنايات العلوية لسفينة غريقة في الجانب الأيسر من مدخل الميناء، وهي على مسافة غير بعيدة. كان هناك في السابق حطام سفينة يمكن تمييزه بالعين المجردة، ولخالتي نظارتها – إنه ليهمني أن أعرف ما إذا كانت لا تزال...

قلت لخالة مالكه:

– ليس عليكما أن تسافرا بالترام، فالزورق لا يزال في المكان نفسه. بلغي تحياتي إلى يوأخيم عندما تكتبين إليه مرة أخرى. اطلبي منه أن يكون مطمئنا من هذا الناحية. فلا شيء يتغير هنا، وليس من السهل أن يسرقه أحد من الناس.

وحتى لو كانت ترسانة بناء السفن بشيشاو قد سرقت الزورق، بمعنى أن تكون قد رفعته وجعلته خردة أو أعادت تجهيزه، فهل كان في ذلك فائدة لك؟ وهل انقطعت في رسائلك الميدانية عن خربشاتك بشكل صبياني في رسم الدبابات الروسية بدقة وعن شطبها بالقلم الأزرق؟ ومن كان سيجعل من مريم العذراء خُردَة؟ ومن كان في وسعه أن يسحر المدرسة الثانوية الطيبة ويحولها إلى طعام للطيور؟ وماذا عن القط والفأر؟ هل هناك قصص يمكن أن تنتهي؟

-١١-

كان علي أن أحتمل البقاء في البيت ثلاثة أو أربعة أيام وشهادات مالكه المخربشة أمام عيني: كانت أمي حريصة على العناية بعلاقتها بمهندس في منظمة الإمدادات – أو كانت تقدم للملازم الأول ستيفه المَمعود طعاما دون ملح، جعله متعلقا بها إلى هذا الحد؟ – كان هذا السيد أو ذاك يتحرك في منزلنا دون حرج، وكان ينتعل، من غير أن يدرك معنى هذا الرمز، حذاء أبي المنزلي العتيق. لكنها هي كانت ترتدي، متنقلة وسط الجو الهادئ السعيد من غرفة إلى أخرى، ثوب الحداد، أي لباسها الأسود اللائق، ليس في الشارع فقط، وإنما بين المطبخ وحجرة الجلوس، وقد أنشأت لأخي القتيل فوق خزانة الطعام شيئا شبيها بالهيكل، كان فيه أولا صورة بطاقة شخصية مكبرة على نحو يجعل التعرف عليه متعذرا، تظهره بلباس ملازم ثان من غير قبعة، ثانيا النعي من «المركز الأمامي» ومن مركز «الأخبار الجديدة»، ثالثا رزمة من رسائل البريد الحربي مربوطة بخيط من حرير أسود، رابعا صليب حديدي من الدرجة الثالثة مثقل بوسام القرم من جهة الشمال على مقربة من الإطار، بينما كان فيه خامسا الكمان مع القوس وورق العلامات الموسيقية المكتوبة الموضوعة تحت ذلك إلى يمين أخي – كان قد جرب عزف مقطوعات على الكمان أكثر من مرة – كان عليها أن تشكل الوزن المعاكس للرسائل.

حين افتقد اليوم بين الحين والآخر أخي الأكبر كلاوس، الذى لم أكد أعرفه، وكنت يومذاك أقرب إلى الغيرة من الهيكل، تصورت صورتي المكبرة في إطار أسود، وشعرت بأن حقي مهضوم، فقضمت غالبا أظافري، حين أكون بمفردي في غرفتنا الطيبة، وما كان مذبح أخي ليسمح بالسهو عنه.

من المؤكد أنني كنت سأحطم في صبيحة أحد الأيام، عندما كان الملازم الأول يحرس معدته فوق الأريكة وأمي تطبخ له عصيدة من غير ملح، بيدي السائرة نحو الاستقلال عني، الصورة وأوراق النعي – ولربما الكمان أيضا – لكن يوم الاستدعاء إلى الخدمة المدنية جاء وسرق مني الظهور في مشهد

كان سيستمر عرضه إلى اليوم وإلى سنوات أخرى: لقد اخرجنا، الموت في كوبان، وأمي في المطبخ، وأنا المتردد الكبير، هذا المشهد على درجة كبيرة من الإتقان. غادرت بحقيبتي الجلدية المقلدة. سافرت عن طريق بيرنت إلى كونيتس وكانت لي خلال ثلاثة أشهر فرصة للتعرف على مرج توخلر الواقع بين أوشه وريتس. رياح ورمال في الطريق على الدوام، ربيع لأصدقاء الحشرات. عرعر يتدحرج. وكانت هناك بشكل عام أدغال وتحديدات للأهداف: المخبأ الرابع على اليسار، ووراءه رفيقان من المقوى، لغرض إصابتهما. ولكن كانت هناك سحب جميلة فوق أشجار بتولا وفراشات لا تدري إلى أين تتجه. بحيرات داكنة لامعة مستديرة في المستنقع، يستطيع المرء أن يصطاد فيها بالقنابل اليدوية أسماك الدوع وأسماك الشبوط. طبيعة حيثما اتجه المرء. وكانت هناك دار للسينما في توخل.

ومع ذلك ورغم أشجار البتولا، والسحب وأسماك الشبوط فإنه لمن حقي ألا أرسم هذا القسم من الخدمة المدنية ببيوتها الاحتياطية المربعة في الغابة الصغيرة الحامية، وصارية علمها، وخنادقها الخاصة بالشظايا، ومرحاض الميدان المنتصب إلى جانب البناية الاحتياطية للتدريس، إلا لهذا السبب وكما في حوض الرمل، لأن مالكه العظيم كان قبلي، وقبل فينتر، ويورغن كوبكا وبانسمير بسنة، قد حمل في المربع نفسه مشابيك حذاء عسكري وخلف وراءه اسمه بكل معنى الكلمة: في مرحاض الميدان، في حجرة خشبية لا سقف لها مخشخشة مغروسة بين نباتات الوزال، وجدت كلمة ذات مقطعين، حذف منها الاسم الأول، مقابل الدعامة الخشبية الملتمعة، محفورة في لوحة الصنوبر أو بتعبير أفضل محتزّة – وتحت ذلك باللاتينية، ولكن دون انحناءات، بل أقرب إلى أن تكون حروفا جرمانية قديمة، بداية الترنيمة المحبوبة لديه «واقفة كانت الأم المتألمة...» كان من حق الراهب الفرانسيسكاني جاكوبونه دي تودي أن يبتهج لذلك؛ أما أنا فلم أتخلص من مالكه حتى عند قيامي بالخدمة المدنية. فعندما كنت أنا أخفف عن نفسي وتتجمع خلفي وتحتي نخامة يتخللها الدود لسنة ولادتي، لم تلتزم أنت الهدوء أمام عيني: كان هناك نص مثلوم بعناء، يشير بصوت عال وبتكرار ملهوف

إلى مالكه ومريم العذراء، وهو ما بعث في الرغبة في السخرية منه.

أنا على يقين في ذلك من أن مالكه لم يكن يريد أن يسخر. مالكه لا يستطيع أن يسخر. لقد حاول ذلك أحيانا. على أن كل ما كان يفعله، يمسكه، ينطق به، كان يصبح جادا مهما وضخما؛ هكذا كان أيضا الخط المسماري في خشب الصنوبر لمرحاض الميدان في الخدمة المدنية للرايخ بين أوشه وريتس، الذي يدعى: شمال توخل. كلمات مأثورة بعد الهضم، أشعار عن صاحبات الحانات، وتشريح مبسط أو محور – تغلب نص مالكه على كل النصوص الأخرى، التي كانت في قليل أو كثير خنزرات مصاغة على نحو مضحك، محفورة أو مشخبطة من فوق إلى تحت، تغطى السياج الخشبي الحاجب لمرحاض الميدان، وتدع الألواح الخشبية تتحدث.

لأن مالكه كان قد اقتبس المأثور على الوجه الصحيح وفي المكان الأكثر خفاء، كدت أن أصبح في ذلك الحين تقيا ورعا شيئا فشيئا، ولما كان علي أن أتابع بضمير متذمر عملا متوسط الأجر في الرعاية الاجتماعية بدار كولبينغ، ما كان علي أن أكتشف في الناصرة شيوعية مبكرة ولا في المزارع الاجتماعية الأوكرانية مسيحية متأخرة، ولكنت قد تخلصت في النهاية من الأحاديث الليلية الطويلة مع الأب ألبان، ومن التحقيقات، لمعرفة إلى أي حد يستطيع التجديف أن يعوض الصلاة، ولحق لي أن أومن، أومن بشيء ما، أيا كان، أو أومن ببعث الجسد؛ ولكني قطعت ترنيمة مالكه المحبوبة بفأس، وبعدما كان علي أن أقطع الخشب في مطبخ الفرقة، محيت اسمك أيضا.

الخرافة القديمة المتصلة بالرقع التي لا تباع، تعد إلى حد ما أخلاقية استعلائية رهيبة، فقد تحدثت الفقرة الملتبسة ذات الألياف اليانعة بشكل أوضح مما قالته الكتابة المثلومة السابقة. كذلك لابد أن تكون قد استنسخت شهادتك بنشارة الخشب، فقد كانت تتردد قصص كبيرة في القسم بين المطبخ وغرفة الحراسة وغرفة الألبسة، خصوصا في أيام الآحاد، عندما كان السأم يبدأ في عد الذباب. وكانت دائما نفس المكررات مع بعض التغييرات الطفيفة عن رجل في الخدمة المدنية يدعى مالكه، كان قد خدم قبل سنة تقريبا في كتيبة الخدمة المرابطة بشمال توخل، ولا بد أن يكون قد قام بأعمال رائعة.

وكان سائقا الشاحنة، رئيس الطهاة، وقيم مخزن الملابس والأسلحة، ينتمون إلى ذلك الوقت، وقد تم إعفاؤهم من جميع التنقلات، وكانوا يتحدثون عن مالكه من غير أن تتناقض أقوالهم بشكل جوهري.

– كان مظهره، عندما وصل إلينا، على الوجه الآتي: كان شعره يصل إلى هنا. كان عليه أولا أن يدع الحلاق يقص شعره. لكن ذلك لم يكن مجديا: أذناه مضربان للزبد وله بلعوم، أقول لكم، له بلعوم! كان له أيضا – ومرة حين كان هنا – حين كان يتعرى ليستحم كان مثلا – لكن الرائع فيه هو أنه عندما أرسل أفراد الجماعة الذين التحقوا حديثا بالكتيبة، إلى توخل لنزع القمل عنهم، وقد كنت أنا حينئذ قيم مخزن الملابس والأسلحة، عندما وقف الجميع تحت مرشة الماء، تصورت أنني لا أرى جيدا، فعاودت النظر مرة أخرى، وأنا أقول مخاطبا نفسي: لا ينبغي لك أن تكون حسودا: لقد كان قضيبه حزاما، وأستطيع أن أهمس في آذانكم أنه، حين كانت تثور ثائرته، كان ينتصب ويشتد عن طواعية أو أكثر من ذلك. كيفما كان الأمر فقد كان يناول زوجة رئيس الميدان، وهي امرأة قوية في الأربعين، هذا الجهاز من الأمام ومن الخلف، لأن رئيس الميدان الغبي هذا – وقد نقل فيما بعد إلى فرنسا، وكان غريب الأطوار – كان قد أرسله إلى بيته ليشيد له فيه بيوتا لأرانبه، وبيته هو البيت الثاني على يسار المجمع السكني الخاص بقيادة الخدمة المدنية. كان مالكه، كان هذا هو اسمه، قد رفض ذلك أول الأمر، ولكن هذا لم يتم، لا لأنه كان مترددا في الأمر، وإنما لأنه رفض ذلك بهدوء وواقعية مستشهدا بفقرة من نظام الخدمة الميدانية. ومع ذلك عاقبه رئيس الميدان بنفسه وأكثر من تعذيبه عن طريق تكليفه بما لا يطيق، فكان عليه بعد ذلك أن يقضي يومين في مرحاض الميدان: يقضيهما في غرف العسل! وكنت أراه وبيده انبوب ماء الحديقة، كنت دائما على مسافة منه، لأنه لم يكن يريد أن يراه الآخرون في غرفة الحمام، ورضخ في الأخير وذهب بألواح الصناديق والأدوات، ولكن من أجل بناء بيوت الأرانب! لا بد أن يكون قد «أرْنَبَ» العجوز على أروع ما يكون! وطلب منه كذلك أن يعمل في الحديقة مدة أسبوع، وكان مالكه يذهب إلى هناك كل صباح، ويعود من جديد ليكون في المساء حاضرا عند المناداة. ولم ينتبه

القائد إلى الأمر إلا حين تأخر إنجاز حظيرة الأرانب فترة بعد أخرى. لست أدرى ما إذا كان قد فاجأهما عندما كانت زوجته منبطحة على ظهرها أو فوق مائدة المطبخ أو ربما كما يفعل الأب والأم في البيت تحت غطاء من الريش، على كل حال لا بد أن يكون لسانه قد انعقد، عندما اكتشف متا ع مالكه، ولم ينبس لسانه بكلمة واحدة في الكتيبة! لم يكن في هذا أية براعة - وأخذ يرسل مالكه بصورة مستمرة في سفرة إلى أوليفا أو أكسهوفت لإحضار قطعة من قطع الغيار حتى يختفي الثور ببيضتيه من الكتيبة. ولا بد أن تكون العجوز قد تباكت لذلك وإلى آخره. ولا تزال هناك كلمات مشفرة تصلنا من المكتب: لقد قيل إنهما يتكاتبان، وكان وراء الأمر أكثر من هذا. فلا يسع المرء أن يطلع على خفايا الأمور أبدا! بالمناسبة، لقد كان لمالكه نفسه - وقد كنت حاضرا - قرب بيسلاف دكانا للفدائيين تحت الأرض على مسؤوليته الخاصة. إنها لقصة رائعة أيضا. كان عبارة عن بركة عادية مثل غيرها في كل مكان هنا. كنا نقوم بنصف عملنا في المعسكر والنصف الآخر في الميدان، نستلقي نصف ساعة على مقربة من البركة ومالكه ينظر وينظر، ثم يقول، لحظة، ثمة شيء على غير ما يرام. قل لي. . قائد الميدان، ما اسمه، ويضحك في سخرية، ونضحك نحن أيضا، ولكن فلنتركه. ويخلع مالكه ثيابه بسرعة ويلقي بنفسه في البركة. ماذا أقول لكم، عند الغطسة الرابعة يعثر وسط المرقة السوداء دون الخمسين سنتمترا تحت الماء على مدخل مخزن حديث لمخبأ له منشأة مائية للشحن والتفريغ، في وسع الإنسان أن يدفع بها إلى عرض البحر: ملأنا أربع شاحنات، وكان على القائد أن يمتدحه أمام الكتيبة المجتمعة. ويقال إنه اقترح أن يقدم له وسام، رغم قصته مع زوجته العجوز. لقد أرسلوه إلى الخدمة العسكرية. ولو سارت الأمور حسب رغبته وتم قبوله، لكان قد التحق بوحدة الدبابات.

تمالكت نفسي في البداية، وكذلك فعل فينتر، ويورغن، وكوبكا، وبانسيمر، فلزمنا الصمت، عندما كان الحديث يدور حول مالكه. كنا أحيانا، عند تناول الطعام أو عندما كان علينا أن نذهب للعمل في المعسكر عبر المجمع السكني للقيادة على مقربة من البيت الثاني من اليسار، الذى لم يكن قد تم فيه بعد

إنجاز حظيرة الأرانب، ننظر بعضنا إلى بعض بسرعة. أو كان هناك قط يتربص ساكنا في مرج أخضر تحرك عشبه حركة خفيفة: وفي الحين نتفاهم عن طريق نظرات ذات مغزى. وأصبحنا مجموعة صامتة، مع أنني كنت غير مبال بفينتر وكوبكا، وخصوصا بانسيمر.

قبل حوالي أربعة أسابيع من تسريحنا – كنا نقوم بعمل فدائي بدون انقطا ع، ولكنا لم نقبض على أحد ولم تلحق بنا خسائر أيضا –، وذلك في وقت لم يتح لنا فيه أن نخلع ملابسنا، بدأ تسرب الهمسات والشائعات. وهي أن ذلك القيم على مخزن الملابس والأسلحة، الذى كان قد كسا مالكه وقاده إلى حيث ينزع القمل عنه، أتى من المكتب بما يلي:

– أولا لقد وصلت من جديد رسالة من مالكه موجهة إلى زوجة الرئيس السابق. وسترسل إليها في فرنسا. ثانيا هناك سؤال جاء من الجهات العليا ولا يزال قيد الدراسة. وثالثا، وهذا ما أقوله لكم أنا: كان مالكه متلبسا بهذا منذ البداية. ولكن العجيب أن يحدث ذلك في مثل هذا الزمن القصير! كما ترون، في الماضي كان سيعاني من آلام الزّور بشدة، لو أنه لم يصبح ضابطا. إلا أنه في إمكان الكل اليوم الحصول على رتب في الخدمة ضمن صف الضباط والجنود. ولعله أصغرهم جميعا. عندما أتصوره بتلك الآذان...

وهنا بدأت الكلمات تتدحرج من فمي. وبعدي جاء دور فينتر، ثم يورغن وكوبكا وبانسيمر، فكان عليهم أن ينشروا علمهم ومعارفهم عنه:

– أوه، هل تعلمون أننا نعرف مالكه منذ مدة طيلة.

– كان معنا في المدرسة الثانوية.

– لقد كان يعاني دائما آلاما كبيرة في الزور، قبل أن يصل الرابعة عشرة من عمره.

– حسنا، وما حدث له مع نقيب البحرية؟ ألم يسرق أثناء حصة الألعاب الرياضية وسامه، الذى كان معلقا بشريط من المشجب؟ كان الأمر قد وقع على النحو الآتي...

– كلا، يجب أن نبدأ بالحاكي.

– وعلب المصبرات، أليست لها قيمة؟ حسنا، في البداية كان يحمل في عنقه

على الدوام مفلا...

– لحظة! إذا أنت أردت أن تبدأ من الأمام، عليك أن تبدأ بدورة لعبة القاعدة في ميدان هاينريش إيلر. كان ذلك كما يلي: كنا مستلقين وكان مالكه نائما. عندها مر قط أغبر في خط مستقيم عبر المرج صوب عنق مالكه. ما أن رأى القط عنقه، حتى فكر، هذا الذى ها هنا إنما هو فأر يتحرك، ووثب...

– هُراء! بيلنتس هو الذى أخذ القط ووضعه – أليس كذلك؟

وبعد يومين تأكد لنا ذلك بصورة رسمية. لقد أخبرت الكتيبة عند مناداة الصباح بما يلي: هناك عامل سابق في الخدمة المدنية بالكتيبة المرابطة في شمال توخل، كان قد بدأ مسددا بسيطا لإطلاق النار، ثم أصبح ضابط صف وقائد دبابات في مهمة دائمة، فدمر في موقع استراتيجي مهم كذا وكذا من الدبابات الروسية وكان فوق ذلك إلى آخره إلى آخره.

كنا قد بدأنا بتسليم ثيابنا، وكان من المفترض وصول من يحل محلنا، وعندها أرسلت لي أمي قطعة من جريدة «الموقع الأمامي»، كتب فيها بحروف مطبوعة: ابن من أبناء مدينتنا لازم الميدان بدون انقطاع، بدأ مسددا بسيطا لإطلاق النار، ثم قائد دبابات إلى آخره إلى آخره.

طَفَل جيري مجروف، رمل، مستنقع ملتمع، أحراش ناعمة، مجموعات هاربة من الصنوبر، برك وقنابل يدوية وأسماك الدوع، سحب فوق أشجار البتولا، فدائيون خلف الوزال، عرعر عرعر، والأديب لونس القديم الطيب – فأصله من هناك – كل ذلك بقي، والسينما، خلفنا كل هذا في توخل. لم آخذ معي سوى حقيبتي المصنوعة من الورق المقوى الشبيه بالجلد وكذلك باقة متقادمة من الخلنج. لكني بدأت أبحث عن مالكه بهوس أثناء السفر، عندما رميت الخلنج بعد كارتهاوس بين خطوط السكك الحديد، في كل محطات الضواحي، ثم في المحطة الرئيسة، أمام الشبابيك، وفي زحمة من قدموا من الجبهة في عطلة، وفي مدخل مركز التوجيه وفي الترام المتوجه إلى لانغفور. وقد ظهرت لنفسي مضحكا منكشف السر في ثيابي المدنية – ثياب التلاميذ – التي أصبحت ضيقة علي جدا، ولم أركب للذهاب إلى البيت – ماذا يمكن أن ينتظرني هناك؟ لذلك نزلت في موقف قصر الرياضة قرب ثانويتنا.

وضعت الحقيبة المصنوعة من الورق المقوى عند بواب المدرسة، ولكنني لم أسأله عن شيء، فقد كنت على يقين من معرفتي بكل مكان، وصعدت الدرج المصنوع من حجر الصوان واثبا فوق ثلاث درجات؛ ليس لأني كنت أنتظر أن أجد مالكه في قاعة المحاضرات – كان باباها مفتوحين، فقط كانت المنظفات قد قلبن المقاعد على رؤوسها، وغسلن الخشب بالصابون، لمن يا ترى؟ وانعطفت نحو اليسار: أعمدة صوانية متزاحمة لتبريد الجباه الحارة. كانت اللافتة التذكارية لموتى الحربين لا تزال بها أمكنة فارغة كثيرة إلى حد ما. تمثال ليسينغ في الرواق. دروس في كل مكان، إذ كانت الممرات بين أبواب غرف الدرس كلها فارغة. صادفت مرة واحدة فقط تلميذا في السنة الرابعة الثانوية يحمل خريطة ملفوفة، ويسير بخطى ساقين نحيفتين عبر رائحة مثمنة تمسح كل زاوية ٣ . أ – ٣ ب – قاعة الرسم – ٥ أ – الصندوق الزجاجي للحيوانات الثديية المحشوة – ماذا كان في داخله هذه المرة؟ طبعا،

كان بداخله قط. وأين يرتعد الفأر قلقا؟ مررت بقاعة الاجتماعات. وعندما انتهى الممر، إذا بمالكه العظيم قد وقف، النافذة المضاءة خلف ظهره، بين السكرتارية وغرفة المدير، دون فأر: كانت الشيء الخاص في عنقه، الوسام، ذلك المغناطيس، عكس البصلة، ورقة نفلة رباعية مطلية بالمعدن، اختراع خيال شينكل الطيب، قطعة الحلوى، الجهاز، والشيء الشيء الشيء الذى لا أنطق به.

الفأر؟ كان نائما، يقضي فصل الشتاء في شهر حزيران. يغفو تحت غطاء سميك، ذلك أن مالكه قد زاد وزنه. لم يحدث ذلك لأن شخصا، القدر أو المؤلف، قد شطبه أو محاه، كما محا راسين الجرذ من شعاره ولم يحتمل غير البجعة. كان الفأر لا يزال حيوانا شعاريا وكان ينشط في الحلم أيضا عندما يجرض مالكه بريقه؛ ذلك أنه كان على مالكه العظيم، مهما سما ما خلعوه عليه من أوسمة، أن يجرض بريقه من حين لآخر.

كيف بدا؟ أن تكون العمليات الحربية قد زادت من وزنك، بسهولة، بمقدار ورقتي نشاف، هذا ما سبق أن قلته. كنت قد اتكأت بنصفك على حافة النافذة، وبالنصف الآخر على الخشب المطلي بالأبيض. كنت ترتدي، مثل الجميع الذين كانوا يخدمون في وحدة الدبابات، الزي العسكري الخيالي المخلوط من قطع سوداء ورمادية على طريقة القراصنة: سراويل هجوم رمادية فضفاضة تغطي سيقان الحذاء العسكري الأسود، وسترة سوداء ضيقة تحدث لك ثنايا وتشد ما تحت إبطيك – لأن ذراعيك اتخذتا شكل عروتين – لكنها كانت مناسبة من حيث هي لباس، جعلتك، رغم الأرطال التي زادت في وزنك، تبدو نحيفا. لم تكن هناك أوسمة فوق سترتك، مع أنك كنت قد فزت بالصليبين وبشيء آخر، ولكنك لم تكن تحمل علامة المجروحين: لقد كنت بفضل مساعدة مريم العذراء منيعا عن الرصاص. من الواضح أن صدرك خلا من كل ما يصرف إليه الأنظار. وكان الحزام الهش المصقول في إهمال لا يربط سوى قماش ضيق بعرض كف اليد: كانت السترات المدرعة قصيرة إلى هذه الدرجة، حتى إنه أطلق عليها أيضا اسم سُتَيرات القرود. حين كان الحزام يحاول بمساعدة ذلك المسدس المعلق بعيدا إلى الوراء، على

إليتك تقريبا، أن يرخي وقفتك المائلة الجريئة، كانت قبعتك الميدانية الرمادية، دون إمالتها إلى اليمين على النحو الذى كان محبوبا في ذلك الحين ولا يزال إلى اليوم، معتدلة على رأسك بتشدد، وقد ذكرتني بثنيتها المجعدة قائمة الزاوية من جهة اليمين حبك للتناظر، كما ذكرتني بمفرق شعرك في وسط رأسك أيام الدراسة والغطس، حين كنت تقول أنك تريد أن تصبح مهرجا. ولكنك لم تعد تحمل شعر المخلِّص، قبل معالجة آلام زَوْرك المزمنة بقطعة معدنية وبعدها. لقد قطعت أو أنك قطعت بنفسك تلك الفُرشاة الغبية بطول عود الثقاب، التي كانت تزين صدر المجندين آنذاك وتخلع اليوم على المثقف المدخن للغليون مظهر النساك الجدد. ومع ذلك كانت لك سحنة المخلص. كان النسر السامي، القابع كالمسمَّر في القبعة الميدانية، ينفرج فوق جبينك كحمامة روح القدس، وبشرتك الرقيقة الحساسة من الضوء، وبثرة أنفك اللحيم. خفضت جفنيك العلويين، اللذين تخللتها عروق صغيرة حمراء. حين تنفست أنا أمامك بسرعة، وكانت القطة المحشوة ورائي خلف الزجاج، لم تكد عيناك تتسعان.

أول محاولة للمزاح:

– طاب يومك، يا ضابط الصف مالكه!

فشلت المزحة، فقال:

– إني أنتظر كلوزه هنا. إنه يدرس الرياضيات في مكان ما.

– وإذن، سيكون مسرورا بذلك.

– أريد أن أحدثه بشأن المحاضرة.

– هل ذهبت إلى قاعة المحاضرات؟

– لقد أعددت محاضرتي كلمة كلمة.

– هل رأيت المنظفات؟ إنهنْ يغسلن المقاعد بالصابون.

– سأدخل بعد حين مع كلوزه لأنظر في الأمر وأتحدث معه عن نظام الكراسي فوق المنصة.

– سيكون مسرورا بذلك.

– سأبذل كل ما في وسعي لتكون المحاضرة لتلاميذ السنة الرابعة الثانوية

فما فوق.

– هل يعرف كلوزه أنك تنتظره هنا؟

– لقد أخبرته بذلك الآنسة هيرشنغ الموظفة بالأمانة العامة.

– سيكون مسرورا بذلك.

– سألقي محاضرة قصيرة، ولكنها ستكون مركزة.

– حدثنا، كيف تمكنت من هذا، وفي مثل هذا الوقت القصير؟

– أقول لك، صبرا يا عزيزي بيلنتس: سأتعرض في محاضرتي وأتناول جميع المشاكل المتعلقة بمنح الجوائز.

– حقا، سيكون كلوزه مسرورا بذلك.

– سألتمسه ألا يعرِّف بي وألا يقدِّمني.

– وهل سيفعل ذلك مالنبرانت؟

– يستطيع البواب أن يعلن عن المحاضرة وكفى.

– سيكون...

قفزت دقة الجرس من طابق إلى آخر، وأنهت الدروس في جميع الصفوف الثانوية. عندئذ فقط فتح مالكه عينيه. وقفت أهدابك وقتا قصيرا. كان من المفروض أن تتخذ وقفته مظهر الاسترخاء – لكنه وقف متحفزا. فاستدرت نصف استدارة، وقد أربكني شيء من ناحية ظهري، نحو الصندوق الزجاجي: لم يكن هناك قط أغبر، بل كان هناك قط أسود، يتسلل فوق مخالب بيضاء باتجاهنا باستمرار. القطط المحشوة أقدر على التسلل بأصالة من القطط الحية. لقد كتب فوق اللافتة الصغيرة من الورق المقوى بخط جميل: القط المنزلي. قلت باتجاه النافذة، لأن الصمت كان قد خيم بعد دقة الجرس، وكذلك لأن الفأر كان قد استيقظ وكانت أهمية القط تتزايد شيئا فشيئا، فكان هناك شيء هزلي ثم شيء هزلي آخر، وتحدثت عن أمه وخالته، وتكلمت، دعما له، عن أبيه، عن قاطرة أبيه، وعن موت أبيه قرب ديرشاو وعن وسام الشجاعة، الذى منح له بعد موته:

– لو كان أبوك لا يزال على قيد الحياة، لفرح بهذا بالتأكيد.

لكن مدرس الثانوي فالديمار كلوزه دخل بيننا بصوت عال نقي صاف،

قبل أن أستحضر أباك و قبل أن ينهي القط حديثه مع الفأر. لم يعبر كلوزه عن تهانيه له، ولم يخاطبه بضابط الصف وحامل الوسام، ولم ينطق بعبارة أيها السيد مالكه، إني لفرح حقا وصدقا، وإنما ترك ذلك يأتي عرضا، وبعد أن أكد على الاهتمام بفترة خدمتي المدنية، والمناظر الريفية الجميلة بمرج توخل – كان الكاتب لونس قد نشأ فيها – ذكر بعض الكلمات عن قبعة مالكه الميدانية، قال:

– أترى، أيها السيد مالكه، أن النجاح كان حليفك. هل ذهبت إلى ثانوية هورست – فيسل؟ سيكون زميلي المدير الدكتور فينت مسرورا بزيارتك. من المؤكد أنه لن يفوتك أن تلقي على زملائك القدامى كلمة قصيرة، من شأنها أن تقوي إيمانهم بأسلحتنا. هل تأذن لي أن أدعوك إلى غرفتي لحظة؟

وتبع مالكه العظيم كلوزه، وذراعاه مقوستان مثل عروتين، إلى غرفة المدير، ومسح قبعته عند الباب من زغب شعره: مؤخر رأسه الشبيه بالعقدة. تلميذ في الثانوية في زي عسكري في طريقه إلى حديث جاد، لم أنتظر نتيجته، رغم أنني كنت أتطلع إلى معرفة ما سيقوله الفأر المستيقظ والميال إلى المبادرة بعد الحديث لذلك القط، الذى كان محشوا حقا، لكنه لا يزال يتسلل.

انتصار صغير قذر: لقد فزت مرة أخرى. انتظر! لكنه لن يستطيع الاستسلام ولن تكون له رغبة فيه. سوف أساعده. أستطيع أن أتحدث مع كلوزه. سأبحث عن كلمات تمضي إلى القلب. من المؤسف أن يكونوا قد نقلوا بابا بيرنيس إلى شتوتهوف. لقد كان في إمكانه، مع آيشندورف القديم الطيب في جيبه، مساعدته.

لم يكن هناك من يستطيع مساعدة مالكه. ربما كان ذلك ممكنا لو أنني تكلمت مع كلوزه. لكني تكلمت معه، وتركته ينفخ في وجهي طوال نصف ساعة كلمات تضوع بحلوى النعناع، ورددت عليه بصوت منخفض ماكر:

– قد تكون، وحسب التقدير البشري، على حق، أيها السيد المدير. ولكن، ألا يمكن بالنظر إلى، أعني في هذه الحالة الخاصة. إني لأفهمك من جهة حق الفهم. العامل الحاسم: نظام المدرسة. ولا شيء مما حدث يمكن محوه من الوجود. ومن جهة أخرى لأنه فقد أباه مبكرا...

تكلمت مع صاحب الغبطة غوزيفسكي، وتكلمت مع تولا بوكريفكه، لتكلم شتورتبيكر وجماعته. وذهبت إلى قائدنا السابق في الشبيبة. كان قد عاد بساق خشبية من كريتا، وكان يجلس في قيادة المنطقة بساحة فنتر خلف المكتب، وتحمس لاقتراحي وشتم المدير كلوزه:

– واضح، سنفعل ذلك. على مالكه أن يحضر إلى هنا. إني أتذكره بشكل غامض. ألم يحدث له شيء في ذلك الحين؟ لكن دعك من هذا. سأفعل كل ما في وسعي. سنجند حتى فتيات هتلر والجمعية النسوية. سأنظم قاعة في الجهة المقابلة، في قسم رئاسة البريد بثلاثمائة وخمسين كرسيا...

وقد أراد صاحب الغبطة غوزيفسكي أن يجمع في موهف الكنيسة سيداته العجائز ودستة من العمال الكاثوليكيين، لأن قاعة البلدية لم تكن تحت تصرفه.

– لعل صديقك يستطيع، حتى يكون لمحاضرته الإطار المناسب للكنيسة، أن يقول في البداية شيئا عن القديس جيورغ وفي النهاية شيئا عن المساعدة والقوة اللتين تمنحهما الصلاة في أوقات الضيق والأخطار.

هذا ما اقترحه غوزيفسكي وكان ينتظر الكثير من المحاضرة.

وأذكر عرضا ذلك القبو، الذى أراد شتورتبيكر وتولا بوكريفكه أن يضعاه تحت تصرف مالكه. لقد قدمت لي تولا شخصا يدعى رينفاند، كانت لي معرفة عابرة به – كان صبي الهيكل في كنيسة قلب يسوع –، وقامت بإشارات غامضة وتحدثت عن طريق مفتوح أمام مالكه، إلا أن عليه أن يسلم مسدسه:

– طبعا سنعصب عينيه، عندما يأتي إلينا. ونطلب منه كذلك أداء قسم صغير يتعلق بالكتمان وما إلى ذلك. مسألة شكلية تماما. عليه أن يوقع بالطبع. وسندفع له طبعا مبلغا محترما. إما نقدا أو نقدمها له في صورة ساعات من العمل. نحن أيضا لا نفعل شيئا مجانا.

لكن مالكه لم يرد لا هذا ولا ذاك – ولا المكافأة أيضا. دفعته:

– ماذا تريد في الواقع؟ ما من شيء يليق بك. سافر إلى شمال توخل. هناك الآن سنة دراسية جديدة. قيم المخزن ورئيس الطهاة يعرفانك منذ ذلك الوقت وسيفرحان بك ولا شك، عندما تذهب إليهم وتلقي عليهم محاضرة.

استمع مالكه إلى جميع الاقتراحات بهدوء، وكان يبتسم في بعض المواضع، وأومأ موافقا، وطرح أسئلة حول تنظيم الحفلات المخطط لها، ورفض إذ لم يبق في طريق المشروع أي عائق، باختصار وبتذمر كل شيء، حتى دعوة من محافظة الإقليم. فلم يكن نصب عينيه سوى هدف واحد: قاعة المحاضرات بمدرستنا. أراد أن يقف في الضوء المشبع بالغبار، الذى يتسلل عبر النوافذ ذات الأقواس المدببة. أراد أن يتكلم في مجابهة رائحة ثلاثمائة من التلاميذ الضارطين بأصوات عالية ومنخفضة. أراد أن يعرف أن الرؤوس المهترئة لمعلميه السابقين قد تجمعت حوله وخلفه. أراد أن تكون قبالته تلك الصورة الزيتية في نهاية القاعة، التي تظهر مؤسس المدرسة، البارون فون كونرادي، مصفرا وسرمديا تحت الطلاء السميك العاكس. أراد أن يدخل قاعة المحاضرات عبر باب ذي مصراعين من أبوابها البنية القديمة، وكان يريد أن يخرج بعد إلقاء كلمة قصيرة، واضحة الهدف قدر الإمكان، من بابها الآخر؛ لكن كلوزه وقف في سروال واسع ذي مربعات صغيرة مربوط تحت ركبتيه أمام البابين معا:

– كان عليك بوصفك جنديا أن تعرف، يا مالكه. كلا، لقد غسلت المنظفات المقاعد بالصابون دون سبب خاص، ليس من أجلك، ولا من أجل محاضرتك. من الجائز أن تكون قد فكرت في خطتك جيدا، ولكنها مع ذلك لن تتحقق: هناك كثير من الناس – دعني أقول لك هذا – يحبون مدى الحياة البسط الثمينة، ومع ذلك يموتون فوق ألواح الأرضية الخشنة. تعلم الزهد، يا مالكه!

تراجع كلوزه قليلا، ودعا إلى اجتماع، وقرر باتفاق مع مدير ثانوية هورست – فيسل:

– نظام المدرسة يتطلب...

طلب كلوزه من مدرس الثانوي أن يصادق له على أن تلميذا سابقا، تاريخه، حتى و إن هو حاول تقديم شيء، وبالذات نظرا للأوقات الصعبة والخطيرة، من غير أن تعطى لتلك القضية أهمية أكثر مما تستحق، خصوصا وأن الحادث كان قبل فترة طويلة، ومع ذلك ولأن الحادث منقطع

النظير، فقد اتفقت هيئتا التدريس في المدرستين على أن...

وكتب كلوزه رسالة خاصة تماما. وقرأ مالكه فيها أن كلوزه لا يستطيع أن يكون كما يريد قلبه. فالوقت والظروف لا تبيح – مع الأسف – لمدرس مجرب، حنكته أعباء التدريس، أن يترك قلبه يتحدث ببساطة وعلى نحو أبوي؛ وهو يرجو، بناء على ما للمدرسة من اعتبار في النفوس مع الإشارة إلى الروح الكونرادية القديمة، تقديم المساعدة الجريئة له؛ كان يود بكل سرور أن يستمع إلى تلك المحاضرة، التي يفكر مالكه، من غير أية أفكار مريرة، في إلقائها في ثانوية هورست – فيسل؛ أو هو يستطيع، كما يليق بالبطل، أن يختار القسم الأفضل من الخطبة ويلتزم الصمت.

على أن مالكه وجد نفسه في جادة أقرب ما تكون إلى تلك الجادة الشبيه بالنفق المتلئ بالأشواك الخالي من الطيور في حديقة قصر أوليفا، الذى لم تكن له طرق فرعية، ومع ذلك كان متاهة: بينما كان ينام نهاره أو يلعب النرد مع خالته أو كان يبدو عليه أنه ينتظر نهاية إجازته، وهو متعب لا يعمل شيئا، كان يسير معي، وأنا وراءه، لا أتقدمه أبدا ونادرا ما أسير إلى جانبه، عبر ليل لانغفور. لم نكن نسير على غير هدى: مشّطنا جادة باومباخ الراقية، الخاضعة لمراسيم الحماية الجوية، التى فيها طيور العندليب ويسكن فيها مدرس الثانوية كلوزه. كنت أنا أسير خلف ظهر زيه الرسمي متعبا:

– دعك من الحماقة. أنت ترى أنه لا يمكنك أن تنجح في ذلك. ماذا يعنيك من هذا؟ لا تكدر على نفسك أيام العطلة التي لا تزال لديك. كم بقي لك من هذه العطلة في واقع الأمر؟ لا ترتكب حماقة، يا هذا...

ولكن كان لمالكه نغم آخر يطرب أذنيه الواقفتين غير مواعظي المتكررة المملة. ضربنا الحصار على جادة باومباخ وعندليبيها حتى الثانية صباحا. كان علينا أن نتركه يمر مرتين، لأنه لم يكن بمفرده. ولكن عندما جاء مدرس الثانوية كلوزه بعد أربع ليال من التربص بمفرده حوالي الحادية عشرة ليلا، سامقا ونحيفا مرتديا سرواله المربوط تحت ركبته من غير قبعة ولا معطف – فقد كان الهواء رخيا – من الطريق الأسود صاعدا جادة باومباخ، أخرج مالكه العظيم يده اليسرى وقبض على ياقة كلوزه مع ربطة عنقه المدنية.

وضغط المدير على سياج حديدي مطروق بصورة فنية، ازدهرت خلفه الورود التي كانت – لأن الجو كان معتما – تنشر عطرها في كل مكان بقوة أكبر من قوة غناء طيور العندليب. لقد قبِل مالكه نصيحة كلوزه، التي تضمنتها رسالته إليه، واختار القسم الأفضل من خطابه، اختار الصمت البطولي، وضرب وجه مدرس الثانوي الحليق شمالا ويمينا بظهر يده وبراحة يده، دون أن ينبس بكلمة. كلاهما كان متصلبا شامخا في وقفته. اصوات الصفع وحدها كانت حية ناطقة؛ ذلك أن كلوزه أيضا احتفظ بفمه الصغير مطبقا ولم يكن يرغب في أن يخلط عطر الورد بنفس النعناع.

حدث هذا في يوم خميس ولم يدم دقيقة واحدة. تركنا كلوزه واقفا عند السياج الحديدي. بمعنى أن مالكه رجع أدراجه أولا، وراح يخطو بحذائه العسكري فوق الرصيف المغطى بالحصى تحت القيقب الأحمر، الذى كان يحجب بالسواد كل شيء نحو الأعلى. حاولت أن أقدم ما يشبه الاعتذار لكلوزه، من أجل مالكه – ومن أجلي أنا أيضا. لكن المضروب أومأ بالنفي، ولم يعد يبدو عليه أنه مضروب، ووقف منتصبا، يجسّم في غموض كظل، تساعده على ذلك زهور مقطوفة وأصوات طيور نادرة – يجسم المؤسسة، المدرسة، والوقْف الكونرادي، والروح الكونرادية، والكونرادية؛ كان هذا هو اسم ثانويتنا.

منطلقين من هناك، سرنا من تلك اللحظة في شوارع الضواحي الخالية من المارة، ولم تبق لدينا كلمة واحدة نتحدث بها عن كلوزه. كان مالكه يتحدث مع نفسه بواقعية وبشيء من التأكيد: مشكلة شغلته وشغلتني أنا إلى حد ما في تلك السن. على وجه التقريب: هل هناك حياة بعد الموت؟ أو: هل تؤمن بالتناسخ؟ قال مالكه:

– إني أكثر في الفترة الأخيرة من قراءة كيركغارد. عليك فيما بعد أن تقرأ دوستويفسكي، وذلك عندما تكون في روسيا. عندها ستتكشف لك أشياء كثيرة، العقلية وما إلى ذلك.

وقفنا أكثر من مرة فوق على الجسور فوق شتريسباخ، وهو جدول ملئ بالعلق. كان من المريح أن يتعلق المرء بالسور وينتظر الفئران. كان كل جسر

يجعل الأحاديث تتبدل من تلك التافهة، والإعادات المتعبة للحكم المدرسية عن السفن الحربية وقوة دباباتها، ومدافعها، وسرعتها بالعقد، إلى الديانة وعما يسمى بالمسائل الأخيرة. فوق جسر اسكوتلاندة الجديدة الصغير حدقنا في البداية طويلا في السماء المرصعة بالنجوم المتناسبة مع شهر حزيران، حدقنا – كل على حدة – في الجدول. قال مالكه بصوت نصف مرتفع، بينما كان مصب البركة المساهمة غير العميق يتكسر أمام علب المصبرات، ويسوق معه أبخرة الشعير من مصنع الجعة المساهم:

– طبعا أنا لا أومن بالله. فتلك هي المغالطة المألوفة لاستغباء الشعب. الوحيدة، التي أومن بها، هي مريم العذراء. لذلك لن أتزوج.

كانت هذه الجملة مقتضبة ومربكة بما يكفي، لتقال فوق جسر. لكن الجملة بقيت لي. دائما عندما يمتد جسر فوق جدول، فوق قناة، دائما عندما تكون هناك غرغرة في الأسفل ويتكسر الماء أمام الركام الذي يرمي به الناس المهملين في كل مكان من فوق الجسور في الجداول والقنوات، يقف مالكه إلى جانبي بحذائه العسكري وسروال الهجوم، وسترة القرود المدرعة، يترك الشيء الكبير يتدلى من عنقه عموديا عندما ينحني فوق السور، ويزهو بصورة جادة بوصفه مهرجا على القط والفأر بعقيدة لا ترد:

– طبعا لست أومن بالله. خُدعة لاستغباء الشعب. فالوحيدة هي مريم. لذلك لن أتزوج.

وتحدث بكلمات أخرى كثيرة سقطت في جدول شليسباخ. لعلنا طفنا عشر مرات حول ميدان ماكس – هالبه، وقطعنا مرعى الجيش اثنتي عشرة مرة من أسفل إلى أعلى ذهابا وإيابا. ووقفنا مترددين في المحطة الأخيرة لخط الترام رقم خمسة. كنا ننظر، ليس دون أن نحس بالجوع، كيف كان جباة الترام والجابيات بشعورهن المكوية وقلائدهن الزرقاء المسودة، يجلسون ويقضمون شرائح الخبز بالزبدة، ويشربون من الزجاجات الحافظة للحرارة.

... وجاء مرة ترام – أو كان يمكن أن يأتي ترام، تجلس فيه تولا بوكريفكه، التي كان عليها أن تؤدي الخدمة المدنية منذ أسابيع، كجابية بقبعة مائلة. كنا

سنخاطبها، أو كنت يقينا سأتواعد معها، لو أنها عملت على الخط رقم خمسة. وهكذا لم نر منها سوى منظر وجهها الجانبي خلف الزجاج الأزرق الغائم ولم نكن متأكدين من ذلك.

قلت:

– عليك أن تحاول مع هذه مرة.

رد مالكه معذبا:

– لقد سمعت أنني لن أتزوج.

أنا.

– سيجعلك هذا تفكر في أشياء أخرى.

هو:

– ومن يجعلني بعد ذلك أفكر ثانية في أشياء أخرى؟

حاولت أن أمزح:

– مريم العذراء طبعا.

لم يشعر بالارتياح لذلك:

– وإذا ما شعرت بالإهانة؟

وتدخلت:

– إذا أردت، سأكون غدا صبي الهيكل مع غوزيفسكي في قداس الصباح.

وجاءت موافقته بصورة مفاجئة:

– اتفقنا!

وتحرك في اتجاه عربة الترام، التى كان لا يزال يظهر فيها المنظر الجانبي من وجه بوكريفكه كجابية. وقبل أن يركب، صحت به:

– كم بقي من عطلتك في الواقع؟

أجاب مالكه العظيم من باب العربة:

– لقد رحل قطاري قبل أربع ساعات ونصف، وهو الآن، إن لم يكن قد وقع شيءأثناء ذلك، على مسافة قصيرة من مودلين.

- إلهنا القادر على كل شيء يمنحكم، ويتجاوز عن خطاياكم...

هذا ما ارتفع من فم غوزيفسكي المدبب في خفة فقاقيع الصابون، وترددت أصداؤه ملونة كقوس قزح، وتأرجح متحررا من القشة السرية، مترددا، صعد أخيرا وراح يعكس النافذة، والمعبد، ومريم العذراء، يعكسك أنت يعكسني أنا، يعكس كل شيء كل شيء - وانفجر دون ألم بمجرد أن رمى فقاقيع البركة: الغفران والعفو والتجاوز عن ذنوبكم...

وما أن صدع غوزيفسكي بآمين المؤمنين السبعة أو الثمانية وأضاف إليها هذه الكرات المنفوخة، حتى رفع خبز الذبيحة، وجمع شفتيه ومدهما بشكل بلغ النهاية، وجعل فقاعة الصابون الكبيرة المهتزة في رعب تنمو في مجرى الهواء، ثم رفعها بطرف لسانه الأحمر الفاتح: فارتفعت طويلا قبل أن تقع وتذوب قرب المقعد الثاني أمام هيكل مريم العذراء:

هو حمل الله...

كان مالكه أول من ركع قبل أن تتكرر جملة - يا إلهي لستُ أهلا لأن تدخل تحت سقفي - ثلاثا.

وقبل أن أقود غوزيفسكي فوق درجات الهيكل هبوطا وأمام المقعد، ترك رأسه يسقط في رقبته، ووضع وجهه المدبب الشاحب بموازاة سقف الكنيسة الاسمنتي المبيض، وباعد بين شفتيه بلسانه. لحظة، عندما رسم الراهب بالرقاقة التي كان قد خصه بها علامة الصليب بشكل صغير عابر، فوق مالكه: تفصد وجهه عرقا. فاتح اللون تفصد الندى فوق مسامه ثم فقد تماسكه. لم يكن قد حلق وجهه: كانت الشعيرات النابتة تخرم اللآلئ. وجحظت عيناه. من الجائز أن يكون سواد السترة المدرعة هو الذى زاد شحوب وجهه. لم يجرض بريقه رغم سُمْك لسانه. تقاطع بصورة حادة ذلك الشيء الحديدي، الذي كان عليه أن يكافئ الخربشة والشطب الصبيانيين لعدد كبير من الدبابات الروسية، فوق زر الياقة الأعلى دون مشاركة. لم يكن

عليك أن تزدرد إلا عندما وضع صاحب الغبطة غوزيفسكي القربان فوق لسانك وتناولت أنت تلك الفطيرة الخفيفة؛ عملية انصاع لها المعدن واستجاب.

دعنا نحتفل ثلاثتنا مرة أخرى وبصورة متكررة بالأسرار. تركع أنت، وأقف أنا خلف البشرة الجافة. عرقك يوسع المسام. وفوق لسانك المغطى بطبقة بيضاء يفرغ صاحب الغبطة رقاقة القربان. لقد جمعتنا ثلاثتنا قافية كلمة واحدة، وهنا تجعل آلية ما لسانك يعود إلى داخل فمك. تلتصق شفتاك من جديد. يتناسل جرضك، فيتبعه الشيء الكبير في اهتزازه، أعرف أنا أن مالكه العظيم سيغادر كنيسة مريم، وقد تجددت قواه، وسيجف عرقه؛ وإذا كان وجهه لا يزال مع ذلك يلتمع رطبا، فقد بلله المطر. في الخارج يتساقط المطر أمام الكنيسة رذاذا.

وفي موهف الكنيسة الجاف قال غوزيفسكي:

– لا ريب أنه واقف أمام الباب. ينبغي لنا أن ندعوه إلى الدخول، ولكن...

قلت:

– دعك من ذلك، يا صاحب الغبطة. سأهتم أنا بأمره.

قال غوزيفسكي ويداه في أكياس الخزامى في الخزانة:

– إنه لا يريد ارتكاب بعض الحماقات؟

تركته واقفا في ثيابه، ولم أساعده على خلعها. قلت له:

– الأفضل لك، يا صاحب الغبطة، أن تظل بعيدا عن هذا الأمر تماما.

على أنني قلت أيضا لمالكه حين وقف أمامي في زيه الرسمي، وقد بلله المطر:

– ماذا تريد بعد هنا، أيها الغبي؟ عليك أن تذهب إلى هوخشتريس لتلتحق بقيادة الجبهة. تدبر الأمر فيما يتصل بتجاوزك لفترة عطلتك. لا أريد أن تكون لي علاقة بذلك.

كان عليه أن ينصرف بعد هذه الكلمة، ولكنه بقي وابتلت ثيابه: الجو الممطر يوثق الصلة. وحاولت أن آخذه بالنصح:

– لن تقبل القيادة ذلك منك فورا. لكنك تستطيع أن تقول لها إن خالتك أو أمك قد حدث لها شيء ما.

كان مالكه يحني رأسه بالإيجاب، عندما أكون مصيبا، ويترك فكه الأسفل ينحدر أحيانا، وكان يضحك دون سبب ظاهر، ثم أفاض في الحديث:

– كان الأمر رائعا أمس مع الصغيرة بوكريفكه. لم أكن أتصور أنه سيكون كذلك. إنها لشيء مغاير تماما لما تتظاهر به. أقول لك بصدق: بسببها لن التحق مرة أخرى بعملي هناك في الميدان. لقد أديت نصيبي – أليس كذلك؟ سأقدم طلبا. يستطيعون أن يرسلوني إلى بوشبول – الكبرى كمدرب. الآن يجب على الآخرين أن يتقدموا. ليس لأنني أشعر بالخوف، وإنما لأني مللت الخدمة بكل بساطة. أتستطيع فهم هذا؟

لم أنخدع بهذا، وأخذته بقوله:

– إذن، بوكريفكه هي السبب. لكنها لم تكن هي. إنها تسوق الخط رقم اثنين إلى أوليفا وليس الخط رقم خمسة. هذا ما يعرفه الجميع هنا. أنت خائف – إني أفهم هذا جيدا!

لقد أراد أن يكون بالضرورة قد فعل معها شيئا:

– مع تولا، يمكنك أن تكون على يقين من هذا. حتى أن ذلك وقع في بيتها بشارع إلزن. كانت أمها تنظر بعيدا عنا. – لكن هذا صحيح، أنا لا أريد الاستمرار في الخدمة. لعلي خائف أيضا. قبل قليل، قبل القداس، شعرت بالخوف. وحالي الآن أحسن.

– أظن أنك لا تؤمن بالله وما أشبه ذلك.

– لا علاقة لهذا بالموضوع على الإطلاق.

– طيب، دعك من هذا، ولكن ما العمل الآن؟

– ربما أمكن أن نحاول مع شتورتبيكر وجماعته من الشباب، فأنت تعرفهم.

– كلا، يا عزيزي. لم تعد لي علاقة بهذه الجماعة. لا أريد أن أقع في ورطة وما إلى ذلك. كان الأفضل لك أن تطلب ذلك من بوكريفكه، إذا كنت فعلا قد باشرتها في بيتها...

– افهمني: لم يعد في إمكاني الظهور في الجادة الشرقية. إذا لم يكونوا قد أتوا، فإنهم آتون قريبا – قل لي، ألا أستطيع أن أقيم عندكم في القبو، لبضعة

أيام فقط؟

لكني لم أرد مرة أخرى أن تكون لي علاقة بذلك.

– عليك أن تلتجئ إلى مكان ما. لديكم أقارب في الريف، أو عند بوكريفكه في مستودع الخشب بورشة النجارة، التي يملكها عمها... أو في الزورق.

وحملت الكلمة لحظة من الصمت. حقا لقد أضاف مالكه قائلا:

– في هذا الجو الرديء؟

ولكن كان كل شيء قد تقرر؛ وإذا ما كنت قد رفضت أن أرافقه إلى الزورق في إصرار وأكثرت من الكلام، تكلمت في الوقت نفسه عن الجو الرديء، فقد اتضح لي أنه كان علي أن أرافقه: الجو الممطر يوثق الصلة.

وسرنا أكثر من ساعة من اسكوتلاندة الجديدة إلى شليمول ورجعنا ثم صعدنا عدة مرات طريق بازودوفسكي الطويل. التصقنا، لنحتمي من الريح، بالأعمدة، التي كانت لا تزال مغطاة بشكل دائري بإعلانات شركات الفحم والأجهزة الاوتوماتيكية التي تعمل بقطع النقود، وعدنا نسير من جديد. كنا نرى من المدخل الرئيسي للمصحة النسوية المدنية الكواليس المألوفة: خلف جسر سكة الحديد وأشجار الكستناء الكبيرة كان يجتذبنا جملون الثانوية المستقرة وسقف برجها؛ على أن مالكه لم ينظر أو هو نظر إلى شيء آخر. ثم وقفنا نصف ساعة في مظلة موقف رايشسكولوني مع ثلاثة أو أربعة من تلاميذ المدرسة الابتدائية تحت سقف الصفيح المحدث للضجيج نفسه. كان الأطفال يتلاكمون ويزحم بعضهم بعضا فوق المقعد. لم يكن من المفيد كثيرا أن يكون مالكه قد أدار ظهره لهم. فقد جاء اثنان وقد فتحا دفتريهما، وتحدثا بلهجة فظة في نفس الوقت، فقلت لهما:

– أليس لديكما مدرسة؟

– كلا، تبدأ الدروس في التاسعة، هذا إن نحن ذهبنا على الإطلاق.

– إلي بما لديكما – ولكن بسرعة!

وكتب مالكه في الزاوية اليسرى من الصفحة الأخيرة من كل دفتر اسمه ومرتبته في الخدمة العسكرية. لم يكن الصبيان راضيين، فقد أرادا أن يسجل لهما العدد الحقيقي للدبابات التي دمرها – استجاب مالكه

لرغبتهما، وكتب وكأنه يسجل حوالة بريدية، الأعداد في البداية، ثم كتبها بالحروف، وكان عليه أن يسجل بيته الشعري في دفترين آخرين بقلمي الحبر. وهممت بأخذ قلم الحبر منه، حين أراد الصبيان أن يعرفا:

– أين أصبتها بالنار في بييلغروت أو قرب شيتمير؟

كان على مالكه أن يومئ بالموافقة وأن يطلب من التلاميذ التزام الهدوء أمامه، لكنه بدل ذلك همس بصوت ضعيف:

– كلا، أيها الأولاد، كنت قد أصبت أغلبها في منطقة كوفل – برودي – بريتساني. وفي شهر أبريل، عندما أخرجنا جيش الدبابات الأول قرب بوكزاكز.

كان علي أن أفتح قلم الحبر مرة أخرى، فقد أراد الأطفال أن يسجلوا كل شيء كتابة، وصفرًا لتلميذين آخرين طالبين منهما أن يلتحقا بمظلة موقف الترام. وظل الصبي نفسه الذي استعمل ظهره كمسند للكتابة ساكنا. لقد أراد أن يمد جسمه ويخرج هو أيضا دفتره، ولكنهم لم يسمحوا له بذلك: فلا بد لواحد منهم أن يقوم بذلك. وكان على مالكه أن يكتب كتابة تزداد ارتعاشا – وقد اندفع العرق الفاتح من مسامه ثانية – كوفل وبرودي بريزاني، تسركاسي و بوكزاكز. وجاءت الأسئلة من وجوه ملطخة لامعة:

– وهل كنت أيضا في كيفيروك.

الأفواه كلها مفتوحة. وكانت تنقص كل فم بعض الأسنان. عيون ورثوها من الجد من جهة الأب. والأذن من جهة الأم تماما. ولكل واحد منهم منخاران:

– وإلى أي مكان ستنتقل الآن؟

– لا يحق لي أن أخبركم بذلك، فلم تسألون مثل هذا السؤال؟

– فلنتراهن، للقيام بغارة؟

– سيحتفظون به إلى ما بعد الحرب.

– اسأله ما إذا كان قد زار القائد أيضا.

– أكنت عنده، يا عم؟

– قل لي، ألا ترى أنه ضابط صف؟

– ألا تحمل معك صورة لك؟
– نحن نجمع الصور.
– كم بقي لك من عطلتك في الواقع.
– أجل، كم بقي لك؟
– هل ستكون هنا صباح غد؟
– أو متى تنتهي عطلتك؟

اندفع مالكه. لقد جعلته حقيبة الظهر يتعثر. وبقي قلمي الحبر في مظلة الترام. أخذنا نركض ركضا متواصلا في خطين متوازيين مائلين. نسير جنبا إلى جنب عبر نقر الماء: المطر يوثق الصلة. ولم يتخلف الأطفال عنا إلا خلف الملعب الرياضي. وظلوا يصيحون وقتا طويلا ولم يذهبوا إلى المدرسة. لا يزالون يريدون إلى اليوم أن يعيدوا إلي قلمي الحبر.

لم نحاول أن نتنفس بهدوء إلا عندما بلغنا الحديقة الضيقة وراء اسكوتلاندة الجديدة. كنت أشعر بغضب في داخلي، وولد الغضب صبيا. ونقرت بسبابتي على قطعة الحلوى اللعينة مطالبا، فأخذها مالكه من عنقه بسرعة. كان المفل أيضا، مثلما كان قبل ذلك بسنوات، معلقا في شريط الحذاء. أراد مالكه أن يقدمه لي، ولكني أومأت له بالرفض:

– دع ذلك، إني أرفضه.

لكنه لم يلق بالحديد في الأدغال البليلة، وإنما كان له جيب خلفي في سرواله.

كيف أخرج من هنا؟ لم يكن التوت الشوكي خلف الأسيجة الاحتياطية قد نضج بعد: بدأ مالكه يجني التوت الشوكي بكلتا يديه. كانت ذريعتي تبحث عن الكلمات. كان يأكل ويلفظ القشور:

– انتظرني هنا نصف ساعة. عليك أن تأخذ شيئا من الزاد معك، وإلا فإنك لن تحتمل الأمر مدة طويلة فوق الزورق.

لو قال مالكه: «عد ثانية!» لاختفيت. ولكنه لم يكد يومىء برأسه، عندما ذهبت، كان ينتف الفاكهة بأصابعه العشر من الشجيرات بين أخشاب السياج. وأرغمني بفمه المملوء على الصمود: المطر يوثق الصلة.

فتحت خالة مالكه الباب. كان شيئا جيدا أن لا تكون أمه في البيت. من

المؤكد أنه كان في وسعي أن أجلب من عندنا ما يؤكل. لكني فكرت: ما فائدة أن تكون له أسرة إذن؟ وقد كنت أيضا أتساءل عن خالته. لقد خاب ظني. كانت تقف خلف مريلة المطبخ، ولم تطرح علي أسئلة. عبر الأبواب كانت تتسرب رائحة، تثلم الأسنان: كان أهل مالكه يطبخون الراوند.

– نريد أن نقيم حفلة لمالكه. لدينا ما يكفي من المشروبات، ولكن إذا ما شعرنا بالجوع...

أحضرت من المطبخ دون كلمة علبتين من ذوات الكيلوين من لحم الخنزير المصبر، وأتت بفتاحة أيضا، ولكنها لم تكن تلك التي كان مالكه قد أخرجها من الزورق، عندما عثر على علب أفخاذ الضفادع في مطبخ السفينة.

وبينما كانت تحضر الأشياء والمأكولات وتفكر في هذا وذاك – كانت خزانات عائلة مالكه مملوءة دائما، فقد كان لهم أقارب في الريف، فلم يكن عليهم إلا أن يأخذوا ما يريدون – كنت أقف على قدمين مضطربتين في الممر أنظر إلى ذلك الإطار العرضي الذى يظهر والد مالكه مع الوقاد ليبودا. لم يكن ثمة بخار فوق الماكنة.

عندما عادت خالته حاملة شبكة المشتريات وورق الجرائد لعلب المحفوظات، قالت:

– عندما تريدون أن تأكلوا من لحم الخنزير الشحيم، عليكم تسخينه قليلا أولا. وإلا فإنه سيكون قويا ثقيلا على المعدة.

لو أنني سألت عند ذهابي عما إن كان ثمة من جاء وسأل عن مالكه، لكان الجواب بالنفي. غير أنني لم أسأل، وإنما قلت وأنا بالباب:

– مالكه يبلغكما تحياته.

هذا مع أن مالكه لم يكلفني بإبلاغ السلام حتى لأمه.

لم يشعر بالفضول أيضا، حين وقفت ثانية في المطر نفسه أمام زيه الرسمي بين الحدائق الضيقة، وعلقت الشبكة بخشب السياج، ورحت أدعك أصابعي المضغوطة. كان لا يزال يجني ثمار التوت الشوكي غير الناضجة، وأرغمني، على أن أعتني بصحة بدنه كما تفعل خالته.

– ستفسد معدتك!

وعندما قلت له:

– فلنذهب!

خطف ثلاث حفنات من الشجيرات المقطرة، وملأ جيوب سرواله ولفظ قشور التوت الشوكي الصلبة، بينما كنا نقوم بدورة حول اسكوتلاندة الجديدة والمجمع السكني بين طريق الذئب وطريق الدببة. وحين وقفنا على درج مدخل مقطورة الترام، وكان المطار يقوم تحت المطر على الجهة اليسرى، كان لا يزال يزدرد تلك الثمرات.

لقد أثارني بالتوت الشوكي. وخف المطر أيضا. وأصبح الرمادي حليبيا، أثار رغبتي في النزول وتركه وحده مع التوت الشوكي. لكنني اكتفيت بالقول:

– لقد سألوا عنك في بيتكم مرتين. كان بعضهم يرتدي اللباس المدني.

وتفل القشور فوق أرضية الدرج الخشبية المشبكة:

– حقا؟ وأمي؟ هل لديها فكرة؟

– لم تكن أمك في البيت، كانت هناك خالتك فقط.

– لعلها ذهبت للتسوق.

– لا أظن ذلك.

– إذن فقد ذهبت إلى شيلكه لتساعدهم في كي الثياب.

– للأسف، لم تكن هناك أيضا.

– أتريد شيئا من التوت الشوكي؟

– لقد جاءوا لأخذها إلى هوخشتريس. الواقع أنني لم أكن أريد أن أخبرك بهذا.

لم تنفد ثمار التوت الشوكي عند مالكه إلا قبل أن نصل إلى برورزن بمسافة قصيرة. ولكنه ظل يبحث في جيبيه المبلولين عندما كنا نسير فوق شاطئ، نقشت الأمطار رسومها فوقه. وحين سمع مالكه العظيم كيف كان البحر يصفق الشاطئ، وشاهد بعينه بحر الشمال، وكذلك كواليس الزورق بعيدا هنالك، ورأى ظلال بعض السفن فوق الميناء، قال – وقد رسم له الأفق خطا في حدقتيه:

– لا أستطيع السباحة.

لكني أنا كنت قد نزعت حذائي وسروالي.

– دعني الآن من قصصك.

– لا أستطيع حقا. أشعر بمغص في بطني. التوت الشوكي اللعين.

فأخذت ألعن وأبحث وألعن ووجدت ماركا في جيب سترتي، وقليلا أيضا من العملة الصغيرة. فأسرعت بذلك إلى بروزن، وأجّرت من عند العجوز كريفت قاربا لمدة ساعتين. لم يسهل علي تسجيل المعلومات الضرورية، رغم أن كريفت لم يلق علي سوى أسئلة قليلة، وساعدني في تهيئة القارب. وعندما رسا القارب ثانية، كان مالكه مستلقيا فوق الرمل يتقلب هو وزيه الرسمي المدرّع. كان علي أن أرفسه ليقف على رجليه. كان يرتعد، يتفصد عرقا، يضغط قبضتي يديه معا على معدته؛ ولكني لا أصدق إلى اليوم ما ادعاه من مغص في بطنه، على الرغم من ثمار التوت الشوكي غير الناضجة التي أكلها على الريق.

– اذهب إلى الكثبان، هيا، اذهب بسرعة!

وذهب محني الظهر، وترك آثاره واختفى خلف شوفان الشاطئ. ربما استطعت أن أرى غطاء رأسه العسكري، لكني بقيت أراقب رصيف مرطم الأمواج، رغم عدم مغادرة أية سفينة الميناء أو دخوله. حقا لقد عاد منحنيا أيضا، إلا أنه ساعدني على تهيئة القارب. أجلسته في مؤخره، ووضعت الشبكة المحتوية على علبتي المصبرات فوق ركبتيه والفتاحة الملفوفة في الورق في يديه. وعندما اسود الماء بعد الرصيف الرملي الأول، ثم بعد الرصيف الرملي الثاني، قلت له:

– يمكنك الآن أن تجذف بضع مرات.

لم يحرك مالكه العظيم حتى رأسه، وجلس منحنيا، تمسك بالفتاحة الملفوفة بقوة، وراح يحدق عبر جسدي، فقد جلسنا متقابلين.

ومع أنني لم أدخل بعد ذلك وحتى اليوم قارب تجذيف أبدا، فإننا لا نزال نجلس متقابلين: يعبث بأصابعه. كان عنقه فارغا. لكن قبعته العسكرية كانت مستقيمة. وكان رمل البحر يتفتت من ثنايا زيه الرسمي. لم يكن هناك من مطر، لكن جبينه كان يقطر. كان كل عضو في جسده قد تصلب. كانت

عيناه جاحظتين. ترى مع من كان قد استبدل أنفه؟ كانت ركبتاه تطيران. لم يكن هناك قط فوق البحر، ولكن الفأر كان هاربا.

على أن الجو لم يكن باردا. حين كانت الغيوم تتشقق فقط وتسقط الشمس عبر الثقوب، كان الرذاذ يتحرك في المساحة التي لا تكاد تتنفس ويقفز فوق القارب أيضا.

– جذف بضع مرات، فإن التجذيف يبعث فيك الدفء.

وكان جوابه من مؤخرة القارب طقطقة أسنانه، وجاءت إلى الدنيا من تأوهاته المرحلية كلمات متكسرة:

–... هذه هي النتيجة. لو أن المرء أخبرني سلفا، من أجل هذا الهراء. مع ذلك كان في إمكاني أن ألقي محاضرة جيدة. كنت سأبدأ بوصف رافع التسديد، ثم أعرج على قنابل الأماكن المجوفة، ومحركات مايباخ وإلى أخره. لقد كان علي كمسلح في التعبئة أن أخرج وأعاود قرع المسامير، حتى أثناء إطلاق النار. ولكن ما كنت سأتكلم عن نفسي فقط. كنت سأتكلم عن أبي وليبودا أيضا. ولكنت وصفت بإيجاز حادثة الترام قبل وصوله إلى ديرشاو. وكيف أن أبي بعمله الشخصي. وأنني كنت وأنا عند رافع التسديد أفكر دائما في أبي، مع أني لم أكن أحصل على الرعاية التي كانت له. أشكرك على الشمعات التي كنت قد أحضرتها في ذلك الحين. أوه أيتها العذراء الطاهرة دوما. يا ذات الرونق الذى لا تنتهك حرمته. إنه لمن الممكن أن يظفر الإنسان بما يريد عن طريق وساطتك. أنت أيتها المفعمة حبا. أيتها المفعمة رأفة. أجل. كان التحاقي الأول بشمال كورسك قد أثبت ذلك. وسط المأزق، عند الهجوم المضاد، الذى وقع علينا قرب مدينة أوريل. وكيف أنني رويت كيف ظهرت مريم العذراء في شهر آب بفورسكلا. فضحكوا مني جميعا، وحرضوا قسيس الكتيبة. لكننا أعدنا بعد ذلك الهدوء إلى الجبهة. نقلت للأسف منطقة الوسط. وإلا لما حدث ما حدث قرب مدينة شاركوف بسرعة. ظهرت لي على الفور مرة أخرى عند مدينة كوروستن، عندما هاجمنا الفيلق التاسع والخمسين. ولكن الطفل لم يكن معها أبدا، وإنما كانت صورتها وحدها. أتعلم، أيها السيد مدرس الثانوية، أن الصورة معلقة عندنا في الممر

قرب كيس أدوات تنظيف الأحذية. وهي لا تمسك به أمام صدرها، بل تحته بمسافة. وكانت القاطرة واضحة فيها تماما. كل ما كان علي هو أن أضعها بين أبي والوقاد ليبودا. أربعمئة. إصابة مباشرة. لقد رأيت، يا بيلنتس، أنني كنت دائما أخاطب الأشياء بين البرج والحوض. وذلك يخفف تخفيفا كبيرا. كلا، لم تكلمني، أيها السيد مدرس الثانوية. ولكن إذا كان علي أن أكون صادقا تماما: لم يكن عليها أن تكلمني. تريد الأدلة على ذلك؟ أجبته بالإيجاب، ومسكت أمامه الصورة. أو في الرياضيات. حين تلقي درسا فيها وتنطلق من أن الخطوط المتوازية تلتقي في اللانهاية، ينتج عن ذلك، وعليك أن تعترف بهذا، مايشبه السمو. وكذلك كان الأمر أيضا عندما كنا في حالة التأهب شرق مدينة كازاتين. بالمناسبة، كان ذلك في اليوم الثالث من عيد الميلاد. كانت تتحرك من اليسار في اتجاه الغابة بسرعة تقدر بخمسة وثلاثين. لم يكن علي سوى أن أتابع، أن أتابع. جذف مرتين نحو اليسار، يا بيلنتس، إننا نبتعد عن الزورق.

لقد عرف مالكه، كان في البداية يلقي محاضرته المرسومة خطوطها الأولى بأسنان مطقطقة، ثم بأسنان تمكن من السيطرة عليها، كيف يراقب اتجاه قاربنا ويحدد سرعته بفضل طريقته في التعبير، التي جعلتني أتصبب عرقا، بينما جفت مسامه هو ووضعت نهاية لذلك. لم أكن متأكدا لدى أية تجذيفة أكان قد رأى فوق البنايات العلوية المتنامية للجسر أكثر من النوارس المعتادة.

قبل أن نرسو، كان جالسا في مؤخر القارب في ارتخاء، يلعب في تكاسل بالفتاحة دون ورق ولم يشك من المغص. كان يقف فوق القارب قبلي، وعندما ربطت القارب، كانت يداه تمارسان هوايتهما في عنقه: كانت قطعة الحلوى الكبيرة قد خرجت من جيب مؤخر سرواله والتصقت في الأعلى من جديد. دعكنا أيدينا، ظهرت الشمس في الأفق، نفضنا أعضاءنا. وخطا مالكه على سطح الزورق بخطى المالك، وتغنى بإحدى الترانيم، وأومأ إلى النوارس عاليا، ولعب دور ذلك العم المرح، الذى يأتي في زيارة بعد غيبة مغامرة تدوم عدة سنوات، ويعتبر نفسه هدية، ويريد الاحتفال باللقاء:

– مرحبا، يا أطفال، إنكم لم تتغيروا على الإطلاق!
كان من الصعب علي أن أشاركه في هذا، فقلت له:
– أسرع، أسرع! إن كريفت العجوز لم يعرني القارب إلا لساعة ونصف. ولم يرد في البداية أكثر من ساعة واحدة.
وعلى الفور عثر مالكه على النبرة الواقعية:
– طيب. لا ينبغي للمرء أن يؤخر المسافرين. بالمناسبة سفينة الشحن، نعم هذه التي تقف بجانب الخزان، إنها تقف في مكان عميق إلى حد ما. أراهن على أنها سويدية. سنجذف في اتجاهها هذا اليوم بمجرد أن يخيم الظلام، لتكن على علم بذلك. فاحرص على أن ترسو هنا في التاسعة. في وسعي أن أطلب منك ذلك – أم ماذا؟
طبعا لم يكن من الممكن معرفة جنسية السفينة الناقلة للبضائع في الميناء مع سوء حالة الرؤية. وبدأ مالكه ينزع ملابسه بشكل معقد، وهو يتكلم كثيرا. تحدث أحاديث تافهة. تحدث قليلا عن تولا بوكريفكه:
– إنها لئيمة، في وسعي أن أقول لك.
واغتاب صاحب الغبطة غوزيفسكي:
– يقال إنه باع سرا أقمشة، وكذلك شراشف الهيكل، بل بطاقات التموين الخاصة بها. لقد حضر مراقب من الدائرة الاقتصادية.
ثم ذكر أشياء مضحكة عن خالته:
– مع ذلك ينبغي أن نبقي لها حسنة واحدة، هي أنها كانت طيبة العشرة مع والدي، حتى عندما كان كلاهما طفلا في الريف.
وعاد على الفور إلى حكايات القاطرة القديمة:
– يمكنك بالمناسبة أن تمر قبل ذلك مرة أخرى بالجادة الشرقية وتأخذ الصورة مع الإطار أو بدونه. كلا، الأفضل أن تتركها معلقة هناك. فما هي إلا عبء.
كان واقفا في تلك السراويل الرياضية الحمراء، التي كانت تمثل جانبا من تقاليد ثانويتنا. أما زيه العسكري، فكان قد طواه في طرد بعناية وكما تتطلب ذلك التعليمات، ووضعه خلف بيت البوصلة، مكانه المعتاد. ووضع الحذاء

العسكري كما يوضع عند الذهاب إلى النوم. قلت له:

– هل أخذت كل شيء، العلب؟ لا تنسى الفتاحة.

ونقل الوسام من اليسار إلى اليمين، وراح يهذي بكل سخافات التلاميذ، اللعبة القديمة:

– كم من الأطنان تزن البارجة الحربية الأرجنتينية مورينو؟ سرعتها بالعقد؟ ما هي قوة الخط المائي من المصفحات؟ ما هي سنة التصنيع؟ ومتى أجريت عليها التغييرات؟ وكم لفيتوريو فينيتو من خمسة عشر فاصل اثنين؟

أجبت في كسل، لكني كنت فرحا أن تكون تلك الترهات جاهزة لدي. قلت له:

– هل تأخذ العلبتين معا إلى تحت مرة واحدة؟

– سأرى.

– لا تنس الفتاحة، هاهي هنا!

– إنك تهتم بأمري مثل أم.

– لو كنت مكانك، لنزلت الآن على مهل إلى القبو.

– أجل، حقا. لا بد أن تكون الأشياء قد فسدت.

– ليس عليك أن تقضي الشتاء هناك.

– المهم أن الولاعة سليمة، فهناك في الأسفل ما يكفي من الوقود.

– ما كنت أنا لأرمي هذا المفل. قد تستطيع بيعه في الجهة الأخرى بوصفه ذكرى، من يدرى!

جعل مالكه الشيء يثب من يد إلى أخرى. وعندما ابتعد عن الجسر وبحث عن الكوة خطوة خطوة، كان كذلك يحرك يديه متوازنا في مرح، مع أن الشبكة المحتوية على العلبتين كانت قد التفت حول ذراعه اليمنى. كانت ركبتاه تقومان بحركات أشبه بأمواج البحر أمام الباخرة المبحرة. كان أخدعاه وعموده الفقري تلقي ظلا إلى اليسار، لأن الشمس كانت قد أشرقت من بين السحب لفترة قصيرة.

– إنها العاشرة والنصف أو أكثر من ذلك.

– ليس الطقس باردا كما تصورت.
– هكذا الحال دائما بعد سقوط المطر.
– أقدر: أن درجة حرارة الماء سبع عشرة، والهواء تسع عشرة.

كانت هناك حفارة أمام عوامة إرشاد السفن في الطريق المائي. كان يظهر عليها العمل، لكن الأصوات ظلت مجرد تصور، لأن الرياح كانت معاكسة لها. وظل فأر مالكه أيضا مجرد تصور، فهو لم يظهر لي بعدئذ حين عثر بقدميه الباحثتين على حافة الكوة سوى ظهره.

كنت على الدوام أثقب أذني بسؤال خرطته بنفسي: هل قال شيئا قبل أن ينزل تحت الماء؟ ستبقى نظرته المنحرفة إلى الجسر من فوق كتفه اليسرى نصف مؤكدة. لقد قعد لفترة قصيرة، فتبلل وتلونت حمرة سروال الثانوية التي لقماش الرايات بالسواد الباهت، خطف الشبكة المحتوية على علبتي المصبرات بيده – ولكن أين هي قطعة الحلوى؟ إنها لم تكن معلقة في عنقه. أتراه رمى بها خفية؟ أي سمكة ستحملها إلي؟ هل قال بعد شيئا في احتقار؟ عاليا صوبَ النوارس؟ صوبَ الشاطئ أو صوبَ السفن في الميناء؟ هل لعن الحيوانات القارضة؟ لا أعتقد أنني سمعتك تقول: «إذن، إلى مساء اليوم!»

لقد غطس برأسه في الماء تثقله علبتا مصبرات: تبع رقبته ظهره المستدير ومؤخرته. وضربت الفراغ رجل بيضاء. وتماوج الماء فوق الكوة قليلا.

عندئذ أبعدت رجلي عن فتاحة العلب. لقد بقينا نحن أنا والفتاحة. لو أني ذهبت إلى القارب في الحال، نزعت الحبل ومضيت.

– سيان، سيتدبر أمره بدونها أيضا.

لكني بقيت، وعددت الثواني، وتركت الحفارة، وأمامها عوامة إرشاد السفن، والتي كانت تسير بكباشات فوق جنازير، تسبقني في العد، وشاركت في العد بكثير من الجهد: اثنتان وثلاثون ثلاث وثلاثون ثانية صدئة. ست وثلاثون سبع وثلاثون ثانية رافعة للوحل. واحد وأربعون اثنتان وأربعون ثانية مشحمة بشكل رديء، ست وأربعون سبع وأربعون ثمان وأربعون ثانية استمرت الحفارة أثناءها تعمل ما يسعها عمله بكباشات صاعدة منقلبة هابطة إلى الماء: كانت تعمق الأخدود إلى مدخل ميناء الطريق الملاحي الجديد،

وتساعدتني على قياس الوقت: لا بد أن يكون مالكه قد بلغ الهدف مع علبتي المصبرات، دون الفتاحة، بقطعة الحلوى تلك أو بدونها، التي أصبحت مرارتها العذبة توأما له، ودخل تلك القمرة القديمة الواقعة فوق سطح الماء التابعة للزورق البولوني للبحث عن الألغام «ريبيتفا.»

ولئن كنا لم نتفق على إشارات دق، فقد كان في وسعك أن تدق. وتركت الحفارة مرة أخرى ومرة أخرى تعد لي ثلاثين ثانية. كيف تعود المرء أن يقول، بناء على التقدير الإنساني لابد أن يكون قد... النوارس تحير الخاطر. لقد رسمت نماذج بين الزورق والسماء. ولكن ما أن استدارت النوارس فجأة دون سبب يمكن قراءته، حتى حيرني غياب النوارس. وبدأت أدق الجسر أولا بكعب حذائي ثم بحذاء مالكه. كان الصدأ يتوثب صفائح، وسلح النوارس الجبسي يتفتت ويرقص مع كل دقة. وصاح بيلنتس ويده تضرب بالفتاحة:

– أخرج من الماء ثانية! لقد تركت الفتاحة فوق، الفتاحة...

كانت لي استراحات بعد الدق الهمجي ثم الإيقاعي المنتظم. ولم أستطع للأسف أن أبرق إليه، فرحت أدق: اثنان ثلاثة اثنان ثلاثة، اعترتني بحة وأنا أصرخ:

– فتـ ـ ـتا ـحة! فتـ ـتا ـحة!

صرت أعرف منذ تلك الجمعة معنى الصمت، فهو يخيم عندما تستدير النوارس. لا شيء يستطيع أن يتسبب في الصمت أكثر من حفارة عاملة، تبعد عنها الريح أصواتها الحديدية. ولكن الصمت الكبير تسبب فيه مالكه حين لم يعرف ما يجيب به ضجتي.

وهكذا جدفت عائدا. لكني رميت الفتاحة في اتجاه الحفارة قبل أن أجذف عائدا، غير أني لم أصبها.

إذن، لقد رميت الفتاحة، وجذفت عائدا، وسلمت القارب إلى السماك كريفت، وكان علي أن أدفع له ثلاثين بفينغا أخرى، وقلت له:

– لعلي أعود في المساء وآخذ القارب مرة أخرى.

إذن، لقد رميت، وجدفت عائدا، وسلمت، ودفعت مبلغا إضافيا، وأردت مرة أخرى، وركبت الترام، ومضيت، كما يقال عادة، إلى البيت.

وهكذا لم أذهب بعد كل هذا إلى البيت في الحال، بل دققت الجرس في الجادة الشرقية، لم ألق أسئلة، لكني طلبت صورة القاطرة بإطارها، لأني كنت قد قلت له وللسماك كريفت: «ربما أعود في المساء...»

حسنا، كانت أمي قد انتهت من تهيئة الغداء، عندما وصلت إلى البيت حاملا الصورة عرضية الشكل. تناول طعام الغداء معنا مدير في مصلحة الحماية بمصنع القاطرات. لم يكن هناك سمك. وكانت هناك رسالة موجهة إلي من قيادة المنطقة العسكرية موضوعة إلى جانب الصحن.

حسنا، لقد قرأت وقرأت وقرأت أمر استدعائي. بدأت أمي تبكي وتسببت في إحراج السيد مدير مصلحة الحماية. قلت لها:

– لن أسافر إلا في مساء يوم الأحد.

ثم أضفت، دون أن ألقي بالا للسيد:

– أتدرين أين هو منظار أبي؟

حملت هذا المنظار إذن، والصورة ذات الشكل العرضي وسافرت صبيحة السبت إلى بروزن، ولم أسافر في المساء نفسه، كما تم الاتفاق على ذلك – تذرعت بكون الرؤية غائمة، وتساقط الأمطار من جديد –، وبحثت عن أعلى نقطة في كثبان غابة الشاطئ: الساحة الواقعة أمام التمثال الحربي. ووقفت فوق أعلى درجة لقاعدة التمثال – كان المسلة ترتفع فوقي وتحمل الكرات الذهبية التي بللها المطر – وجعلت المنظار أمام عيني على مدى نصف ساعة، إن لم يكن ثلاثة أربا ع الساعة. ولم أترك المنظار ينزل عنهما إلا عندما غام كل شيء أمامي، فرحت أنظر إلى شجيرات الورد البري.

إذن، لم يتحرك شيء فوق الزورق. كانت هناك بوضوح فردتا حذاء فارغتان. كانت هناك حقا نوارس معلقة فوق المشبك، حطت فوقه، ورشت المساحيق فوق ظهره وفوق الحذاء؛ ولكن علام تستطيع النوارس أن تبرهن؟ وكانت فوق الميناء نفس السفن، التي كانت فيه يوم أمس، لم تكن هناك سفينة سويدية بينها، لم تكن هناك سفينة حيادية على الإطلاق. لم تكد الحفارة تتحرك. كان الطقس يعد بالتحسن. وركبت، كما يقال عادة، أكثر من مرة لأذهب إلى البيت. ساعدتني أمي على تهيئة حقيبتي المصنوعة من الورق

المقوى.

وهكذا جمعت أمتعتي: كنت قد أخرجت تلك الصورة ذات الشكل العرضي من إطارها، ووضعتها، لأنك لم تطالبني بشيء، في الأسفل. وفوق أبيك، فوق الوقاد ليبودا، فوق قاطرة أبيك التي لم تكن تقف تحت البخار، تراكمت ملابسي الداخلية، وأمتعتي المعتادة ودفتر يومياتي، الذى فقدته فيما بعد بما كان معه من صور ورسائل قرب كوتبوس.

ترى من يكتب لي نهاية جيدة؟ ذلك أن ما بدأ بالقط والفأر، يعذبني اليوم كطائر غطاس في بركة يحف بها القصب. عندما أتجنب الطبيعة، تظهر لي الأفلام الثقافية هذا الطائر المائي البارع. أو تقدم لي الأخبار المصورة محاولات رفع الزوارق التجارية الغريقة في نهر الراين، والأعمال الجارية تحت الماء في ميناء هامبورغ: ينبغي أن تنسف المخازن الموجودة قرب ترسانة هوفالت البحرية، ألغام تنزع. ينزل الرجال بخوذات ذات وميض منبعجة قليلا، ويصعدون من جديد، فتمتد الأذرع نحوهم، وتفك الخوذة، ويرفعون خوذة الغوص: لكن مالكه العظيم لا يشعل سيجارة أبدا فوق شاشة السينما الملتمعة؛ فالآخرون هم الذين يدخنون دائما.

يأتي سيرك إلى المدينة، ويكسب المال مني. أنا أعرف الجميع تقريبا، تحدثت مع هذا المهرج أو ذاك حديثا خاصا خلف مقطورة النوم؛ على أن هؤلاء السادة غالبا ما كانوا يفتقرون إلى المرح ويأبون أن يكونوا قد سمعوا بزميلهم مالكه.

هل يجب علي بعد أن أذكر أنني سافرت عام تسعة وخمسين إلى ريغنسبورغ للقاء الباقين على قيد الحياة، الذين وصلوا مثلك إلى نيل وسام الصليب؟ لكنهم منعوني من دخول القاعة. كانت هناك في داخلها فرقة من الجيش الاتحادي تعزف الموسيقى أو هي كانت في استراحة. طلبت، عن طريق ملازم، كان يشرف على النظام، أن ينادى عليك من منصة الموسيقى أثناء استراحة من هذا القبيل:

– المطلوب من ضابط الصف مالكه أن يحضر إلى مدخل القاعة! –

لكنك أبيت أن تظهر.

الفهرس

هذا الكتاب

إن محنة بطل هذه الرواية، يؤاخيم مالكه العظيم، لا تقل من حيث غرابتها عن محنة بطل «الطبل الصفيح»، حتى وإن كان الأول يتمتع بجسد كامل. لقد بدأت محنته بين زملائه في المدرسة أثناء الحرب العالمية الثانية في مدينة دانتسيغ، ويتولى رواية قصته فيها زميله بيلنتس عندما ينتبه إلى غضروفه المتضخم، إلى تفاحة آدم في عنقه ويضع عليه قطا. إن إحساسه بالذنب يدفعه إلى كتابة قصته. إن بطل القصة يعانى من تفاحة آدم هذه، فهي تتحرك كما يتحرك الفأر، عندما يأكل أو يبلع أو يتحدث، ولكن عدو هذا الفأر، وهو القط، وليد تصور الراوي وخياله، يظل غير منظور، بحيث لا يرى وهو يطارد الفأر أو يلعب به، فما هو إلا رمز إلى محنته أو إلى المجتمع الذى يعيش فيه.






منشورات الجمل